فكر علمي ... ثقافة تقدمية

الثقافة الجديدة

452

أيار 2025

مقالات:

علي مهدي
رشيد غويلب
صالح ياسر
عادل كنيش مطلوب
عبد العزيز ججو
مجيد إبراهيم خليل

نصوص قديمة

حنا بطاطو

نصوص مترجمة

رودولف غوين

حوارات

(الثقافة الجديدة) تحاور
الدكتور نبيل المرسومي

أدب وفن

حسب الله يحيى
فاضل ثامر
خالد السلطان
عبد الغفار العطوي
جواد الزيدي
موسى غافل الشطري
بشرى البستاني
علي رحماني
ليث الصندوق
بهاء محمود علوان
دوروثي باركر
ياسر عبد الصاحب البرّاك

الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

رئيس التحرير : صالح ياسر

مجلس التحرير

ابراهيم اسماعيل — جـــــواد الزيدي

رضـــــا الظاهر — علي إبـراهيـــم

كـــــاوة محمود — مظهر محمد صالح

هـــــادي عزيـــز علي

هيئة التحرير

زهيـر الجـزائـري

هـــاشـم نعمـة

سوران قحطـان

حسب الله يحيى

محرر "أدب وفن"

العدد 452

أيار 2025

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

السعر داخل العراق: 2000 دينار للنسخة الواحدة
الاشتراك السنوي خارج العراق: للأفراد (50) دولاراً أو ما يعادلها، وللمؤسسات (100) دولار، أو ما يعادلها.
يحول المبلغ نقدا على الحساب الآتي:

بالدينار:	بالدولار:
مجلة الثقافة الجديدة	Althakafa Aljadida Magazine
مصرف المنصور للاستثمار – بغداد	Mansour Bank for Investment– Baghdad
رقم الحساب: 11153	Account No:30721
سويفت كود: MBIVIQBA	SWIFT CODE: MBIVIQBA

ايميل رئيس هيئة التحرير: althakafaaljadeda@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير: thakafajadida4u@gmail.com
ايميلات باب أدب وفن : althakafaaljadeda@yahoo.com
hassab1944@yahoo.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت: althakafaaljadeda.net

عنوان المجلة: بغداد – ساحة الاندلس.
والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.

رقم الايداع: 781
رقم الاعتماد: 1288

شروط النشر

ترجو هيئة التحرير من المساهمين في الكتابة الى المجلة مراعاة ما يأتي فيما يرسلون للنشر:

• أن تكون المقالة أو الدراسة أو الشعر... الخ مستوفية شروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
• ان لا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة، وبالنسبة لباب قراءة في كتاب، ألا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 - 3000 كلمة.
• ان لا يزيد عدد كلمات باب ترجمات عن 4000 كلمة ويمكن لهيئة التحرير أن تنشر أكثر من ذلك إذا رأت ان هناك ضرورة.
• باب نصوص قديمة، تعتمد كلماته على النص المختار.
• وبالنسبة لباب أدب وفن، لا يزيد عدد كلمات المادة عن 2500 كلمة.
• ان تكون المادة معدة اصلاً للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن اخرى أو على صفحات المواقع الالكترونية.
• ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الالكتروني أو على قرص مدمج. وارتباطا بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال او الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود سطر ونصف الى سطرين إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال او الدراسة.
• لا تعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة اعلام صاحبها بذلك.
• بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الالكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
• للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.
• يجوز للباحث/الباحثة اعادة نشر بحثه/بحثها المنشور في المجلة شريطة ان يشير/تشير الى المصدر عند اعادة النشر.
• بالنسبة لتوثيق المصادر خصوصا في المقالات يفترض أن يكون موحدا وهو يتوافق مع شخصية وأسلوب المجلة، وهنا يكون في الهامش وليس في داخل المتن بدون قوس، وهناك عدة طرق للتوثيق ولكن الأكثر استخداما ما يأتي، راجين من الباحثين والكتاب اعتماد ذلك:
• بالنسبة للكتب: اسم المؤلف أو المترجم أو المحرر، عنوان الكتاب، رقم الطبعة، مكان النشر، الناشر، تاريخ النشر، رقم الصفحة.
(لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)
• بالنسبة للدوريات أو المجلات: اسم الكاتب، «عنوان الدراسة أو المقالة»، اسم المجلة، المجلد و/أو رقم العدد، سنة النشر، رقم الصفحة.
(لا تذكر الشهادات العلمية في توثيق المصادر، مثلا دكتور...)

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5 - كلمة العدد

مقالات

8 -التحولات في كتابة الدساتير في العراق (1925–1970):
من تمثيل محدود إلى سلطة مغلقة.....علي مهدي
17 -اليسار بين التراجع والصعود... الاسباب والتحديات.....رشيد غويلب
26 -العدالة الاجتماعية في دولة الرفاه... بين السرديات والواقع الصارم.....صالح ياسر
38 -إطار التخطيط والاستثمار والتقييم في العلوم والتكنولوجيا.....عادل كنيش مطلوب
45 - قراءة في كتاب "رأس المال في القرن الحادي والعشرين".....عبد العزيز ججو
53 -نقد الخطاب الديني.....مجيد إبراهيم خليل

نصوص قديمة

63 - عودة الى الطبقات الاجتماعية القديمة: حنا بطاطو.....ترجمة: فالح عبد الجبار

نصوص مترجمة

74 -العبودية الطوعية: رودولف غوين.....ترجمة وإعداد: نجاة تميم

حوارات

87 -(الثقافة الجديدة) تحاور الدكتور نبيل المرسومي.....حاوره سوران قحطان

أدب وفن

105 - ثقافة التجهيل!.....حسب الله يحيى
106 - رواية " فهرس" وملحمة الوجع العراقي.....فاضل ثامر
112 - مقابلة :محمد عطوان:
العراقيون يرفضون التوزيع الاثني للسلطة.....أجرى المقابلة: خالد السلطان
123 - فتنة الجسد حياتنا جسد متألم للغاية.....عبد الغفار العطوي
127 -غازي السعودي.. الفن الجداري وبانوراما الواقع.....جواد الزيدي
133 - قصة قصيرة :ذات الإطار الأبنوسي.....موسى غافل الشطري
137 - حوارية الجبال.....بشرى البستاني
143 - اسراء الحنين.....علي رحماني
145 - الترسيمات والإيقاعات البصرية
للبياض والسواد في قصائد جواد الشلال.....ليث الصندوق
152 - الحداثة والاستشراق في منظور توماس مان..... بهاء محمود علوان
155 - مكالمة هاتفية قصة: دوروثي باركر.....ترجمة: ميلينا مطانيوس عيسى
160 - أُمنيةٌ واحدةٌ تَكْفِي .....ياسر عبد الصاحب البرّاك

لوحتا غلافي العدد للفنان: صادق طعمة

التدقيق اللغوي: مصطفـــى عبـــاده
التصميم والاخراج الفني: علي العـتابي

كلمة العدد

مطالبات ملحة تنتظر حلولاً...

يحل عيد العمال العالمي في 1 أيار من هذه السنة، والطبقة العاملة العراقية لا تزال تعاني من أوضاع صعبة، منها المعيشية التي لم تتحسن طيلة الفترة الماضية بما يتناسب مع ارتفاع معدلات التضخم والأسعار، ومن ثم باتت دخولها الحقيقية تتراجع. وارتباطا بذلك يعاني العمال والكادحون عموما من مشكلات أخرى تتعلق بنقص السكن وتدهور الخدمات الصحية والتعليمية، والتي أصبحت مصدرا لجني الأرباح الفاحشة. وهناك مطالبات أخرى تتعلق بتحسين أوضاع الطبقة العاملة منها: ضرورة تطبيق قانون العمل والضمان الاجتماعي، وإقرار حق تشكيل النقابات في القطاعين العالم والخاص، كي يتسنى للعمال الدفاع عن حقوقهم المهنية والاقتصادية والاجتماعية المشروعة في ظل استمرار الازمات الطاحنة التي لم تجد ''الطبقة'' السياسية لها حلولا؛ لأن هذه ''الطبقة'' تفكر ببساطة في مصالحها السياسية والاقتصادية الضيّقة. تحية إكبار وإجلال للطبقة العاملة العراقية والعالمية في عيدها الأغر الذي وسمته بالنضال والتضحيات الجسام، والتي ارتبطت أيضا بمصالح الوطن والشعب.

تتصاعد موجة الاحتجاجات في عموم محافظات بلادنا، وتشمل شرائح مختلفة: التربويين والعاطلين عن العمل من حملة الشهادات، الفلاحين ...، وعلى الرغم من إقرار مجلس النواب ومجلس الوزراء لبعض مطالب التربويين العادلة نتيجة إضرابهم عن العمل لفترة محدودة، إلا أنها تبقى دون ما طالبت به هذه الشريحة النيّرة التي تقود عملية التربية والتعليم؛ إذ لا يمكن لأي بلد أن يحرز تقدما في ناصية العلم والمعرفة والتقدم إذا كانت هذه الفئة تعيش أوضاعا اقتصادية واجتماعية، لا تليق بها، والتي ستنعكس سلبا على مستوى أدائها، وعلى مجمل العملية التربوية.

إنّ غياب رؤية علمية استراتيجية لعملية التنمية الاقتصادية ـ الاجتماعية بأبعادها الشاملة في بلادنا، من قبل الحكومات المتعاقبة التي سارت على ذات النهج الفاشل، جعل الاقتصاد الوطني هشّا ومعرّضا للصدمات الداخلية والخارجية. وبدون أن يتحول الاقتصاد الوطني من الطابع الريعي المعتمد على النفط إلى اقتصاد منتج متنوع، فإن مسألة القضاء على البطالة أو الحد منها تصبح بعيدة المنال، بل تسير في منحىً تراكمي. لكن يبدو أن ''الطبقة'' السياسية التي تحكم وفق نهج المحاصصة الطائفية الإثنية لا يناسبها هكذا اقتصاد، لأنه يُسهم في تجفيف منابع الفساد المالي والإداري الذي انغمست فيه وتتغذى عليه

كي تستمر في التحكم في مفاصل السلطة مهما كان حجم الأزمات التي يواجهها البلد، وعلى الرغم من علمها أنها باتت معزولة عن الشعب، وأن ساعة تغيير هذا النهج لا بد أن تحل.

أما وضعية الكهرباء فتسير نحو الأسوأ على الرغم من صرف مليارات الدولارات على هذا القطاع طيلة أكثر من عشرين سنة. وعلى الرغم من أن الصيف على الأبواب لكن لا يبدو أن الحكومة تمتلك حلولا جذرية لمواجهة هذه المشكلة المستعصية، بل نرى أن هناك تراجعا على مستوى عدد ساعات التزود بالكهرباء بدأ من الآن. هذه الوضعية لا تؤثر فقط على حياة المواطنين في الصيف اللاهب، بل على مجمل مفاصل الاقتصاد والخدمات، وتجعل أي حديث عن جذب الاستثمارات الأجنبية في بلد يعاني أصلا من أزمة خانقة في هذا القطاع مجرد أمنيات مضللة لا يسندها الواقع.

حُدد تاريخ 11 تشرين الثاني من هذا العام، موعدا لإجراء انتخابات مجلس النواب، ونشطت التحركات المحمومة للأحزاب والشخصيات السياسية المتنفذة لتشكيل تحالفات انتخابية مفصلة على مقاسها، كي تتناسب مع مصالحها الضيقة، مستخدمة المال والنفوذ وسلطة الدولة وامتلاك السلاح. علما أن الأصوات تتعالى منذ زمن من أجل تطبيق قانون الأحزاب الذي أقر وبقي حبرا على ورق، لأن تطبيقه لا يناسب الكتل والأحزاب المتنفذة في اقتسام غنيمة الدولة. هذا القانون الذي لا يسمح للأحزاب باستخدام المال السياسي الفاسد، ولا يسمح أيضا للأحزاب التي تمتلك أذرعا مسلحة بالمشاركة في الانتخابات. وهنا يُفترض أن يُفعل دور القضاء وأن لا يبقى صامتا من أجل تطبيق هذا القانون المفصلي الذي يُسهم لو طُبق في إضفاء نوع من الشرعية القانونية للفائزين في الانتخابات، ويكسبهم ثقة الناخبين التي تآكلت طيلة الدورات الانتخابية السابقة ما جعل نسبة المشاركة في الانتخابات تصل إلى أدنى مستوياتها. لذلك هناك حاجة ملحة لتشكيل تحالف انتخابي مدني ديمقراطي ليسهم ولو تدريجيا في تغيير موازين القوى في الانتخابات القادمة ليخدم في نهاية المطاف شعار التغيير الشامل في منظومة الحكم.

هناك مطالبات أخرى ملحة تتعلق بضرورة ضبط الواردات في المنافذ الحدودية، وخصوصا من السلع الاستهلاكية، والتأكد من بلد المنشأ وجودة هذه السلع، حيث هناك الكثير من السلع خصوصا الغذائية منها ذات الجودة السيئة تدخل الأسواق دون رقيب، وتشكل خطرا على صحة المواطنين. إضافة إلى ذلك، هناك منتجات زراعية تُنتج في العراق ويجري استيرادها، وبالتالي تنافس المنتجات الوطنية في الوقت الذي يتطلب من الحكومة توفير الحماية لهذه المنتجات لتشجيع استمرار إنتاجها لرفد الاقتصاد الوطني ودعمه.

مقالات

التحولات في كتابة الدساتير في العراق (1925–1970): من تمثيل محدود إلى سلطة مغلقة

د. علي مهدي
نائب رئيس مركز بغداد
للتنمية القانونية والاقتصادية

تميزت عملية كتابة الدساتير في العراق بتعدد الجهات المشاركة في صياغتها، بحسب طبيعة المرحلة السياسية وظروفها. ففي دستور 1925 كانت المسودة من إعداد مسؤولين بريطانيين، وناقشها المجلس التأسيسي، ثم صدرت بصيغة رسمية عبر الملك. أما بعد 1958، فقد تولت لجان ضيقة عند الصياغة، وناقشتها حكومات مؤقتة أو مجالس عسكرية. وقد غلب الطابع المركزي وغاب التمثيل الشعبي عن معظم هذه التجارب، ما انعكس على مضمون الدساتير وشكل السلطة في الدولة.

أولا: دستور عام 1925 التأسيس تحت وصاية الانتداب

صدر دستور عام 1925 في ظل ظروف سياسية استثنائية، ارتبطت بشكل مباشر بمعاهدة عقدت بين العراق وبريطانيا، وهي معاهدة عام 1922، التي شكّلت الإطار المرجعي لولادة النظام الدستوري العراقي الناشئ. فقد اشترطت المعاهدة أن يتم سنّ "قانون أساسي" يُعرض على المجلس التأسيسي، على ألا يتعارض مع بنود المعاهدة، وأن يأخذ في الحسبان حقوق ومصالح جميع السكان المقيمين في العراق، دون تمييز على أساس اللغة أو الدين أو القومية. ويجب ان يعين هذا القانون الأساسي الأصول الدستورية، تشريعية او تنفيذية التي ستتبع باتخاذ القرارات في جميع الشؤون المهمة، بما فيها الشؤون المرتبطة بمسائل الخطط المالية النقدية والعسكرية[1].

جاء في المادة الثالثة من المعاهدة أن "جلالة ملك العراق يوافق على أن يُشرع قانون أساسي يُعرض على المجلس التأسيسي العراقي، ويضمن تنفيذ هذا القانون، شريطة ألا يتضمن ما يخالف نصوص المعاهدة، وأن يراعي الحقوق والرغبات والمصالح العامة

للسكان...". كما نصّت على ضمان حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر الدينية، بشرط ألا تخلّ بالآداب العامة أو النظام العام، فضلاً عن ضرورة عدم التمييز بين المواطنين.

بناءً على ذلك، شُرع في انتخاب المجلس التأسيسي، غير أن المحاولة الأولى باءت بالفشل نتيجة المقاطعة الواسعة التي قادتها الزعامات الدينية والسياسية، احتجاجاً على مضامين المعاهدة. ورداً على ذلك، انتهجت الحكومة سياسة قمعية صارمة لقمع المعارضة، وأجريت انتخابات جديدة تمخض عنها تشكيل المجلس بنجاح.

وقد كان من شروط قبول العراقيين بتتويج الملك فيصل الأول أن تكون حكومته "دستورية تمثيلية ديمقراطية خاضعة للقانون"، وهو ما جرى تأكيده في خطاب العرش، وفي المادة الثالثة من المعاهدة، إضافة إلى التزامات بريطانيا الواردة في المادة الأولى من صك الانتداب، والتي نصّت على أن الدولة المنتدبة تلتزم بوضع قانون أساسي للعراق خلال فترة لا تتجاوز ثلاث سنوات من بدء الانتداب، على أن يُعرض على مجلس عصبة الأمم للمصادقة.

افتتحت الجمعية التأسيسية العراقية أعمالها في 27 آذار 1924، وكان من مهامها التصديق على معاهدة 1922 وإقرار أول دستور عراقي، إلى جانب قانون الانتخابات. وقد أُوكلت مهمة صياغة مسودة الدستور إلى عدد من المسؤولين البريطانيين، الذين اعتمدوا في الأساس على القانون الأساسي العثماني، مع الاستئناس ببعض النماذج الدستورية الأخرى. تسلّم الملك فيصل في آذار 1922 مشروع الدستور، وأحاله إلى لجنة عراقية ضمت وزير العدل ناجي السويدي، ووزير المالية ساسون حسقيل، وسكرتيره الشخصي رستم حيدر. وقد درست اللجنة عدة دساتير ومنها الدستور الياباني لأجل إعداد مشروع يلائم الواقع العراقي، إلا أن الطابع العام للمشروع بقي مستمداً من الدستور العثماني. حيث كان معروفا أكثر من غيره لدى أعضاء اللجنة[2].

وقد رأت اللجنة العراقية أن هذه المسودة لا تحاكي رغبات الشعب فعمدت الى تقديم مشروع دستور مستوحى في أهم مبادئه من الدستور العثماني والدستور الياباني[3].

إلا أن هذا المشروع لم يحظَ بقبول الجانب البريطاني، فاندلع خلاف بين الطرفين أُحيل على إثره المشروع إلى وزارة المستعمرات البريطانية في نيسان 1922 للفصل فيه.

أدخلت الوزارة تعديلات من شأنها تعزيز سلطة الملك على التشريع، وتم تشكيل لجنة عراقية – بريطانية مشتركة لتعديل المسودة، بما يضمن خضوع الوزراء لمساءلة مجلس النواب بدلاً من الملك، ترسيخاً للطابع البرلماني للنظام السياسي. وفي مراجعة ثانية، أعيدت المسودة إلى وزارة المستعمرات التي قامت بتنقيحها بما يمنح البريطانيين السيطرة غير المباشرة على المجلس النيابي من خلال صلاحيات الملك.

وقد عبّر وزير المستعمرات البريطاني آنذاك عن توجه حكومته بالقول: (وصلت الى نتيجة هي أنه يكفي في جميع الظروف ان يعطي الملك صلاحية إصدار تشريع عند الضرورة بشكل مرسوم، يضمن تحقيق التزامات الحكومة العراقية المدرجة في المعاهدة، وان يشترط لهذا الغرض عدم الحاجة الى عرض المرسوم على مجلس الامة للمصادقة عليه). وقررت وزارة المستعمرات البريطانية أنه يتم قبول لائحتها المقدمة هذه بشكل نهائي.

استغرقت مناقشة مشروع الدستور ثمانية عشر جلسة في المجلس التأسيسي، بدأت في 14 حزيران 1924 وانتهت في 21 تموز من العام ذاته، وقد تشكلت لجنة لهذا الغرض تألفت من كل محافظة نائب، حيث أقرّ الدستور بالإجماع.

التأثيرات الاجتماعية على تركيبة المجلس التأسيسي والحياة البرلمانية (1925)

شكّل المجلس التأسيسي العراقي الحجر الأساس لنشوء الحياة البرلمانية في العراق، غير أن تركيبة أعضائه تأثرت بشكل كبير بالخلفية الاجتماعية والاقتصادية للطبقات الممثلة فيه، وهو ما انعكس على طبيعة التشريعات والمواقف السياسية اللاحقة.

فقد ضمّ المجلس 100 عضو، توزعت مقاعدهم على النحو الآتي: 20 مقعداً خُصصت للتمثيل العشائري، و 5 لليهود، و 5 للمسيحيين، فيما خُصصت المقاعد الـ 70 المتبقية لتمثيل سكان المدن والقرى. وكان معيار التمثيل أن يمثل كل نائب 20 ألف مواطن من الذكور، وفقاً للنظام الانتخابي المعتمد حينها.

ويُلاحظ أن أكثر من 50% من أعضاء المجلس كانوا من شيوخ العشائر وكبار الملاك، أي الفئة المرتبطة اقتصادياً بالأرض والزراعة، واجتماعياً بالريف، وسياسياً بالنظام القائم. وقد كانت هذه التركيبة جزءاً من سياسة منهجية اعتمدتها سلطات الاحتلال البريطاني، ولاحقاً سلطات الانتداب، في توطيد علاقاتها مع هذه الفئة المؤثرة، مقابل تعزيز مصالحها وضمان ولائها.

لذلك، صُمّم النظام الانتخابي بطريقة تُركّز على الأرياف، مستغلاً مركزية الأرض والملكية وموارد الري لتحقيق مكاسب انتخابية تصبّ في مصلحة الفئات الحاكمة.

أما النخبة المثقفة، فقد شكّلت نحو 29% من مجموع أعضاء المجلس، من بينهم حوالي 12% من حملة الشهادات الجامعية، وهي نسبة تعكس تمثيلاً يفوق نسبتهم الفعلية في المجتمع آنذاك. وقد ساهم هؤلاء في محاولة إضفاء طابع قانوني مؤسسي على أعمال المجلس، رغم محدودية نفوذهم السياسي.

في المقابل، شكّل التجار والوجهاء حوالي 21% من الأعضاء، وقد كان أغلبهم، بشكل مباشر أو غير مباشر، على صلة بالملكية الزراعية أو مرتبطين بعلاقات اقتصادية مع الدولة، خصوصاً مع السلطة البريطانية، نتيجة تداخل مصالحهم مع رؤوس الأموال الأجنبية.

ورغم أن المجلس التأسيسي نجح في وضع اللبنات الأولى للدولة العراقية الحديثة، وساهم في تأسيس الحياة البرلمانية، إلا أنه فشل في تحقيق التطلعات الوطنية الحقيقية، نظراً لهيمنة قوى اجتماعية واقتصادية محافظة على قراراته، وضعف الالتزام بالأسس الديمقراطية الفعلية، فضلاً عن التدخل المباشر للسلطة التنفيذية في عمله.

ثانيا: دستور عام 1958 لحظة الثورة والانفراد بالسلطة

يُعدّ عام 1958 نقطة تحول جوهرية في التاريخ الدستوري للعراق، إذ أدى نجاح التحرك العسكري في 14تموز 1958، بقيادة تنظيم الضباط الأحرار، إلى إسقاط النظام الملكي وإعلان قيام الجمهورية العراقية الأولى، ما استوجب صياغة دستور جديد يُعبّر عن النظام السياسي الوليد، ويعكس الفلسفة الثورية التي تبنّاها القادة الجدد.

بموجب هذا التغيير الجذري، لم يعد من

الممكن العمل بالدستور الملكي لعام 1925، فلهذا لا بد من صياغة دستور مؤقت ينظّم عمل السلطات خلال المرحلة الانتقالية. وقد تولى وزير المالية محمد حديد، ومحمد صديق شنشل، الاتصال بالقاضي حسين جميل [4] يوم 20 تموز 1958 لتكليفه بكتابة مشروع الدستور. وعُهد بالصياغة إلى لجنة ضمت القاضي حسين محي الدين والقاضي عبد الأمير العكيلي.

استندت اللجنة في عملها إلى الدساتير العربية الحديثة، وبخاصة الدستور المصري المؤقت لعام 1956 الذي صدر عقب ثورة يوليو، والذي شكّل مصدر إلهام فكري وقانوني لقادة الثورة في العراق.

أُقرّ مشروع الدستور المؤقت في 27 تموز 1958 من قبل مجلس الوزراء، بعد إدخال تعديلات أصر عليها قادة الثورة، أبرزها نصّ المادة التي تُعلن الإسلام دين الدولة الرسمي، إضافة إلى نصّ يعتبر القوات المسلحة ملكاً للشعب، وهي صياغات ذات بعد رمزي تؤسس لشرعية وطنية جديدة.

تمتع مجلس الوزراء حسب الدستور بحق سن وإصدار القوانين بتصديق مجلس السيادة. في الوقت نفسه وحسب المادة 21 من الدستور تولى مجلس الوزراء مهام السلطة التنفيذية. ان حصر السلطتين التشريعية والتنفيذية في قبضة مجلس الوزراء أضفت بالدرجة الأولى صفة شرعية الفردية لرئيس الوزراء، ممثل النخبة الحاكمة وهو أيضا القائد العام للقوات المسلحة ووزير الدفاع[5].

وبهذا أصبح رئيس مجلس الوزراء يتمتع بسلطات تنفيذية وتشريعية واسعة، ما أدى فعليًا إلى تأسيس نظام حكم فردي تحت غطاء جمهوري.

أما مجلس السيادة، فقد تألف من ثلاثة أعضاء هم:

1. محمد نجيب الربيعي
2. خالد النقشبندي
3. محمد مهدي كبة

وتمت مراعاة تمثيل المكونات العراقية الكبرى في المجلس فاختير الربيعي رئيساً لمجلس السيادة رئيساً للجمهورية، «عربي سني» وعضوية محمد مهدي كبة، عربي شيعي قومي التوجه وخالد النقشبندي كردي.

بينما تألف مجلس الوزراء من شخصيات تمثل أغلب القوى السياسية التي كانت معارضة للنظام الملكي التالية أسماؤهم:

عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء ووكيل وزير الدفاع، عبد السلام محمد عارف نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية. محمد حديد وزير المالية. مصطفى علي وزير العدلية. فؤاد الركابي وزير الاعمار. الزعيم الركن ناجي طالب وزير الشؤون الاجتماعية. الدكتور محمد صالح محمود وزير الصحة، الدكتور عبد الجبار الجومرد وزير الخارجية، بابا علي الشيخ محمود وزير المواصلات والاشغال، محمد صديق شنشل وزير الارشاد، الدكتور ابراهيم كبة وزير الاقتصاد، هديب الحاج حمود وزير الزراعة، الدكتور جابر عمر وزير المعارف.

كان عدد العسكريين أربعة واحد منهم طبيب عسكري مقابل تسعة مدنيين من بينهم ثلاثة ممثلي أحزاب جبهة الاتحاد الوطني (حزب البعث، فؤاد الركابي، الحزب الوطني الديمقراطي، محمد حديد، حزب الاستقلال، محمد صديق شنشل، وتم استثناء الحزب الشيوعي احد أحزاب جبهة الاتحاد الوطني عن تشكيلة الوزارة)، وكان ضمن التشكيلة

وزير من القومية الكردية، أي ان مجلس الوزراء في تركيبته قد راعى عددا من التنوعات القائمة في المجتمع العراقي. ومن ناحية التحصيل العلمي كان في التركيبة أربعة حاصلين على شهادة الدكتوراه، إضافة الى قاضي ومحام ومهندس واقتصادي.

كانت الجهة المختصة بكتابة الدستور محدودة التمثيل، تركزت بثلاث شخصيات. اما الجهة التي ناقشت وأصدرت الدستور فكانت مختصرة على أعضاء مجلس الوزراء البالغ عددهم ثلاثة عشر. ومن هذا يتضح ضيق الدائرة العددية للجهات التي أنيطت بها كتابة وإصدار الدستور، وهذا النموذج سار عليه كل من تولى مقاليد السلطة حتى سقوط النظام عبر الاحتلال الأمريكي سنة 2003.

استنتاج تحليلي حول دور مجلس الوزراء بعد 1958

بعد إعلان الجمهورية في 14 تموز 1958 وسقوط النظام الملكي، بدا كأن العراق يدخل مرحلة جديدة تُبشّر ببناء دولة حديثة، تُدار وفق قواعد دستورية مستقرة. لكن الواقع السياسي والدستوري الذي تلا هذا الحدث، وتحديدًا ما ورد في الدستور المؤقت لعام 1958، كشف عن بداية انحراف مبكر عن المفاهيم الأساسية للدولة الدستورية، وأبرزها الفصل بين السلطات.

في هذا الدستور المؤقت، لم يحدد الإطار الزمني لنافذه، وأيضا لم تُشكل سلطة تشريعية منتخبة او حتى مجلس غير منتخب، يراقب أداء السلطة التنفيذية، ويصادق على مشروعات القوانين، بل أُنيطت السلطتين التشريعية والتنفيذية بالكامل بمجلس الوزراء، وتحديدًا بشخص رئيس الوزراء. هذا التركيز للسلطات في يد جهة واحدة – تحت ذريعة المرحلة الانتقالية – حوّل الحكومة من جهاز تنفيذي إلى مصدر وحيد للقرار السياسي والتشريعي، وهذا في جوهره خروج عن أي تصور حديث للدستور كنظام يقوم على توزيع السلطة ومنع احتكارها.

لذلك، من منظور القانون الدستوري، فإن دستور 1958 المؤقت لم يكن فقط دستورًا انتقاليًا، بل كان بداية تقليد دستوري غير صحي، تم فيه تهميش مبدأ الفصل بين السلطات وتغييب فكرة "الدستور كعقد اجتماعي". هذا ما يفسر هشاشة البنية السياسية والدستورية في العراق لعقود طويلة، إلى أن جاءت محاولات جديدة بعد 2003 لتأسيس دستور دائم، في ظروف صعبة، وبأعباء ثقيلة ورثها من تلك المرحلة.

ثالثا: دستور عام 1963 عسكرة الدستور وتراجع التمثيل

جاء انقلاب 8 شباط 1963 ليمثل محطة مفصلية في التاريخ الدستوري العراقي، إذ أطاح بالحكم القائم، وأعاد الجيش مجددًا إلى الواجهة كقوة فاعلة في تقرير مصير الدولة. وقد سارع قادة الانقلاب الى الإعلان عن تأليف "المجلس الوطني لقيادة الثورة" الذي خُول بممارسة السلطة العليا في الجمهورية العراقية بما فيها السلطة التشريعية وصلاحيات القائد العام للقوات المسلحة وانتخاب رئيس الجمهورية وتشكيل الحكومة.

تشكيل المجلس الوطني لقيادة الثورة

في سياق التحضيرات المسبقة لانقلاب 8 شباط 1963، طُرحت فكرة تأسيس "المجلس الوطني لقيادة الثورة" كأعلى سلطة انتقالية،

وذلك من قبل "المجلس الاستشاري العسكري" في مطلع عام 1962. وقد تقرر أن يكون أعضاء هذا المجلس الاستشاري هم النواة الأساسية للمجلس الوطني عند تشكيله. ومن أبرز هؤلاء: أحمد حسن البكر، صالح مهدي عماش، خالد مكي الهاشمي، عبد الستار عبد اللطيف، ذياب العلكاوي، حردان التكريتي، وعبد الكريم مصطفى نصرت، إلى جانب ثلاثة من أعضاء القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، وهم: علي صالح السعدي (أمين سر القطر)، وحازم جواد، وطالب حسين الشبيب. لاحقًا، أضيف كل من منذر توفيق الونداوي في أيلول 1962، وعبد السلام محمد عارف قبيل أيام من تنفيذ الانقلاب وبعد نجاح الانقلاب، انضم أنور عبد القادر الحديثي وطاهر يحيى التكريتي إلى المجلس تقديرًا لدورهما في السيطرة على معسكر الرشيد يوم الانقلاب. يُلاحظ في تكوين هذا المجلس أن الغالبية العظمى من أعضائه كانوا من العسكريين، حيث بلغ عدد المدنيين ثلاثة فقط، وجميعهم من القيادة القطرية لحزب البعث. كما أن معظم الضباط المنضوين ضمن المجلس كانوا حديثي الانتماء إلى الحزب، باستثناء بعض الأسماء مثل صالح مهدي عماش ومنذر الونداوي. في حين لم يكن عبد السلام محمد عارف منتمياً للحزب أساسًا[6]. ويُشير طالب شبيب، أحد أعضاء القيادة القطرية، إلى أن "قانون المجلس الوطني لقيادة الثورة" صاغه حسين جميل بتكليف من حازم جواد، وذلك بعد أن تم وضع الخطوط العامة له من قبل القيادة. وبهذا، نشأ المجلس الوطني لقيادة الثورة بوصفه السلطة العليا في البلاد عقب الانقلاب، وقد مُنح صلاحيات مطلقة دون خضوعه لرقابة أو تحديد دستوري واضح، الأمر الذي يعكس غياب الإطار الدستوري المؤسسي في تلك المرحلة الانتقالية[7].

ومن هذا يتضح ان الجهة التي كتبت مسودة قانون المجلس الوطني لقيادة الثورة، هي نفسها التي كتبت دستور 1958، وان الجهة التي ناقشت وأصدرت القانون اقتصرت على أعضاء المجلس الذين معظمهم عسكريون بعثيون باستثناء رئيس الجمهورية. وبهذا تقلص التنوع الذي كان قائما بالمقارنة مع دستور 1958. حيث لم نجد تمثيلا للأكراد ولا للقوى السياسية الأخرى.

ومن المثير للاهتمام أن أسماء أعضاء المجلس لم تُعلن رسميًا للرأي العام، ما يشير إلى الطابع السري أو الاحتكاري للسلطة، ويطرح إشكاليات دستورية تتعلق بشرعية التمثيل، وشفافية مراكز اتخاذ القرار في الدولة.

أثر تشكيل المجلس الوطني لقيادة الثورة على مسار كتابة الدساتير في العراق

إن التكوين العسكري الغالب على المجلس الوطني لقيادة الثورة، وطبيعة نشأته بعيدًا عن آليات الشرعية الدستورية التقليدية، كان له تأثير جوهري على مسار كتابة الدساتير في العراق في المرحلة التي أعقبت انقلاب 8 شباط 1963. فقد استُبعدت المؤسسات المدنية والقانونية القائمة آنذاك، وتُركت عملية صياغة السلطة الانتقالية بيد مجلس لا يُمثّل الشعب بشكل ديمقراطي ولا يستند إلى تفويض شعبي أو دستوري واضح.

هذا الانفراد العسكري بالسلطة أنتج بنية سياسية انتقالية اتسمت بالمركزية الشديدة وغلبة القرار الفردي أو النخبوي، وأدى إلى تغييب الإرادة الشعبية والمؤسساتية في كتابة الدستور أو حتى وضع مسودة له. كما أن

تغييب الإعلان عن أسماء أعضاء المجلس، وعدم خضوعه لأي شكل من أشكال الرقابة أو المساءلة، يعكس طابعًا سلطويًا في إدارة المرحلة الانتقالية، ما قوّض فرص سن دستور دائم يعبر عن التوافق الوطني.

وما يميز قانون المجلس الوطني لقيادة الثورة عن الدستور المؤقت الصادر في تموز 1958 في جانب تشكيلات الدولة أنه فصل بين السلطة التشريعية التي يمثلها المجلس عن السلطة التنفيذية بعكس ما كانت عليه السلطة التنفيذية في دستور 1958 التي جمعت صلاحيات السلطات التشريعية والتنفيذية معا في قبضتها.

رابعا: دستور عام 1964 تكريس الحكم الفردي العسكري

في أعقاب أحداث 18 تشرين الثاني 1963، والتي شهدت صراعاً داخلياً بين أجنحة السلطة آنذاك، تمكّن الجيش من السيطرة مجدداً على مقاليد الحكم، مُنهياً بذلك هيمنة "الحرس القومي" التي سادت بعد انقلاب شباط 1963. وقد جاء البيان رقم [1] الصادر عن المجلس الوطني الجديد لقيادة الثورة ليؤكد بداية مرحلة دستورية جديدة، عنوانها تكريس الحكم العسكري بقيادة رئيس الجمهورية.

وبناءً على ما ورد في البيان، تم تشكيل مجلس جديد بقيادة رئيس الجمهورية، ضم كبار الضباط والقيادات العسكرية، وأنيطت به مسؤولية رسم السياسات العامة للدولة. وضم المجلس:

أولا- رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة رئيساً للمجلس.

ثانيا- أعضاء بحكم مناصبهم

أ- رئيس الوزراء.

ب- رئيس اركان الجيش.

ت- معاوني رئيس اركان الجيش.

ث- قادة الفرق.

ج- قائد القوة الجوية.

ح- الحاكم العسكري العام.

خ- ضباط الجيش المستوزرين الذين ساهموا مساهمة فعالة في حركة 18 تشرين الثاني 1963.

د- الضباط الذين يرتأيهم المجلس الوطني لقيادة الثورة على ان لا يتجاوز مجموع أعضائه العشرين عضوا.

إن التغييرات الحاصلة بتركيبة المجلس الوطني بعد حركة تشرين 1963 كان لصالح تعزيز قبضة العسكريين غير المنتمين الى حزب سياسي ومن المساهمين في الحركة، والذين لديهم ولاء لرئيس الجمهورية، وجميعهم من القومية العربية وأغلبهم من انتماء مذهبي محدد.

وفي ثاني اجتماع لمجلس الوزراء الذي تشكل بعد تحرك الجيش، تم تشكيل لجنة لوضع الدستور تألفت من وزير العدل السيد كامل الخطيب ووزير الدولة مصلح النقشبندي وزير الشؤون البلدية والقروية السيد محمود شيت خطاب وزير الإصلاح الزراعي الدكتور عبد الصاحب علوان ووزير الدولة لشؤون الوحدة السيد شامل السامرائي، وان يكون وزير العدل مقررا لها. وقدمت مشروعا لكن رئيس الجمهورية لم يرض به لمحدودية صلاحياته، فتم تشكيل لجنة من رئيس الجمهورية وعدد من الوزراء وبعض الموظفين في رئاسة الجمهورية لوضع مشروع دستور جديد، تضمن صلاحيات واسعة لرئيس الجمهورية. وقد استندت لجنة وضع الدستور إلى دستور الجمهورية العربية المتحدة لسنة 1964.

أُقرّ مشروع الدستور من قبل مجلس الوزراء

وصادّق عليه رئيس الجمهورية بتاريخ 29 نيسان 1964، ثم وُجه بيان الى الشعب العراقي في3 أيار من العام نفسه، تم فيه الإعلان رسميا عن سريان الدستور[8].

وقد نصّ الدستور الجديد صراحة على تعزيز سلطات رئيس الجمهورية، سواء بصفته رئيسًا للدولة أو رئيسًا للمجلس الوطني لقيادة الثورة، بل إنه تولّى فعليًا مسؤولية الإشراف على جميع مؤسسات الحكم، ما جعل مبدأ الفصل بين السلطات مُفرغًا من مضمونه.

ومن الجدير بالذكر حدد الدستور المؤقت فترة انتقالية له مدتها ثلاث سنوات، وبنفس الوقت أكد انه يبقى نافذا حتى سن الدستور الدائم، وتم الغاء الدستور المؤقت الذي صدر في تموز 1958.

خامسا: دستور عام 1968 السلطة المطلقة للحزب الحاكم

في 17 تموز 1968، شهد العراق انقلابا عسكريا جديدا، قاده حزب البعث العربي الاشتراكي، بمشاركة ضباط بعثيين وعسكريين موالين لهم، ضد نظام الرئيس عبد الرحمن عارف. وقد أسفر هذا الانقلاب عن استلام البعثيين للسلطة، وإعادة ترتيب البنية السياسية والدستورية بما يخدم مشروعهم في احتكار السلطة وإعادة صياغة الدولة على أسس حزبية مركزية.

بُعيد الانقلاب، شُكّل مجلس قيادة الثورة كهيئة عليا حاكمة، وأصبح المصدر الوحيد للسلطة التشريعية والتنفيذية. تولى رئاسته اللواء أحمد حسن البكر، الذي أصبح في الوقت نفسه رئيسًا للجمهورية، فيما شغل عضوية المجلس عدد من القادة العسكريين والسياسيين وحسب المواقع التالية:

رئيس الجمهورية، رئيس الوزراء، وزير الدفاع، وزير الداخلية، رئيس اركان الجيش، قائد موقع بغداد، قائد الحرس الجمهوري.

ولم يمض اقل من أسبوعين حتى تم طرد الضابطين غير البعثيين من عضوية مجلس قيادة الثورة وأصبح يضم بعد 30 تموز 1968 أعضاء القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، إضافة الى البعثيين العسكريين الذين ساهموا في انقلاب 17 تموز 1968 واشترط ان لا يزيد مجموع أعضائه على خمسة عشر عضوا، وفق التعديل الثالث لدستور 1968 الذي صدر في 10 تشرين الثاني 1968[9].

بعد استيلاء حزب البعث على السلطة في تموز 1968، كُلّف بعض القضاة وكبار موظفي رئاسة الجمهورية بإعداد مشروع دستور مؤقت للنظام الجديد. تمت صياغة الدستور بالاعتماد على دستور 25 آذار 1964 للجمهورية العربية المتحدة، وأُقرّ من قبل مجلس قيادة الثورة وصدر بتاريخ 21 أيلول 1968، بعد نحو شهرين من الانقلاب.

ان كتابة الدستور المؤقت لسنة 1968 تمت من خلال قانونين بتكليف من مجلس قيادة الثورة بعد 30 تموز 1970 وان الذي ناقش المسودة واصدرتها هو مجلس قيادة الثورة الذي ضم أعضاء حزب البعث واغلبهم من خلفيات عسكرية، وتركيبته هي امتداد للنخبة العسكرية التي طغت على المسرح السياسي بعد انقلاب 8 شباط 1963 وتكرست أكثر بعد حركة الجيش في تشرين الثاني 1963.

سادسا: دستور 1970 تثبيت شرعية حزب البعث ونموذج " الدستور المغلق"

وبعد استقرار السلطة نسبياً، بادر مجلس قيادة

الثورة في عام 1970 إلى تشكيل لجنة لصياغة دستور مؤقت جديد، بهدف تقنين هيمنته على الدولة وتثبيت أركان الحكم البعثي. ضمت اللجنة:

رئيس مكتب الشؤون القانونية في المجلس، أستاذين من كلية القانون والسياسة في جامعة بغداد، من ضمنهم الدكتور منذر الشاوي.

بعد اجتماعات مكثفة، أنهت اللجنة مسودة الدستور المؤقت، ورفعته إلى نائب رئيس مجلس قيادة الثورة في9 حزيران 1970. ثم أعيد تشكيل اللجنة لاحقًا لتشمل رئيس ديوان رئاسة الجمهورية وأساتذة قانون إضافيين، وقد صدر الدستور المؤقت بقرار مجلس قيادة الثورة المرقم 792 في 16 تموز 1970[10].

ان الجهة التي كتبت الدستور هي من القانونيين المرتبطين بدوائر الدولة، ولم تعرض المسودة على مجلس الوزراء، انما تمت المناقشة والاصدار من قبل مجلس قيادة الثورة الذي يضم القيادة القطرية لحزب البعث دون مشاركة من القوى السياسية الأخرى.

هذه المرحلة رسّخت نموذج "الدستور المغلق"، أي الدستور الذي لا يعمل بوصفه إطارًا لضمان الحقوق أو تنظيم السلطة، بل كأداة شكلية لإضفاء طابع قانوني على سلطة مطلقة وفردية. لقد غاب تمامًا عن النظام السياسي مفهوم المشاركة السياسية، وانعدمت آليات التوازن والرقابة، ما مهّد الطريق لانهيار الدولة ومؤسساتها بعد الاحتلال الأمريكي عام 2003، حيث تم حل مجلس قيادة الثورة، وإلغاء الدستور المؤقت، وفتح الباب لمرحلة دستورية جديدة كليًا.

لقد كشفت دراسة كتابة الدساتير في العراق عن نمط متكرر من إقصاء القوى الاجتماعية والسياسية، واعتماد دوائر ضيّقة في الصياغة والمناقشة والإصدار. ومع هيمنة العسكريين والحزب الواحد، تحولت الدساتير إلى أدوات تثبيت للسلطة، لا عقود اجتماعية متوازنة. هذا التاريخ الدستوري غير التشاركي ساهم في هشاشة النظام السياسي، وألقى بظلاله على كل المراحل اللاحقة. ومن هنا، تبرز أهمية استحضار المشاركة والشفافية في أي مشروع دستوري مستقبلي.

الهوامش

1 - عبد الرزاق الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث، الجزء الأول، دار الرافدين، بغداد، ص-2 23.

2 - رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، بيت الحكمة، بغداد، 2004، ص 34.

3 - عبد الله البستاني، القانون الدستوري، مطبعة الرابطة، بغداد، 1951، ص234.

4 - حسين جميل: الذي كان عضواً في مجلس النواب خلال السنوات 1947، 1948، 1954، كما شغل منصب وزارة العدل في حكومة علي جودت الايوبي للفترة 1949 - 1950.

5 - مارينا سبرونفا، التحولات الدستورية في العراق، ترجمة فالح الحمراني، دار عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، 2012، ص 50

6 - تاريخ الوزارات العراقية في العهد الجمهوري -1958 1968 الجزء السادس 8 شباط- 18 تشرين الثاني 1963، تنقيح. جعفر عباس حميدي، الطبعة الثانية، بغداد، 2005، ص16.

7 - المصدر نفسه، ص 121.

8 - تاريخ الوزارات في العهد الجمهوري 1958 - 1968، الجزء السابع، تنقيح جعفر عباس حميدي، بيت الحكمة، بغداد، 2004، ص 130.

9 - احسان حميد المفرجي وآخرون، النظرية العامة في القانون الدستوري والنظام الدستوري في العراق، مطابع دار الحكمة، بغداد، 1990، ص 398.

10 - المفرجي وآخرون، ص 409.

اليسار بين التراجع والصعود.. الأسباب والتحديات

رشيد غويلب

لا شكّ في ان العالم يعيش اوقاتا صعبة، ويواجه تحديات جدية، يمكن تكثيف ملامحها بصعود اليمين الشعبوي المتطرف، الذي منحته عودة ترامب الى البيت الابيض زخما اضافيا. وعودة حروب الهيمنة بين المراكز الرأسمالية المتنافسة، التي لا تستبعد المواجهة النووية، كما هو الحال في اوكرانيا، وكذلك التطورات المتسارعة في منطقة الشرق الوسط. الى جانب ذلك تتصاعد اخطار الكوارث البيئية والمناخية المتصاعدة، وانعدام العدالة في الاقتصاد العالمي. وليس من المبالغة الحديث عن حقل الألغام الذي يلف العالم. وفي المقابل هناك توق انساني إلى حياة أفضل، وعالم اكثر أمنا للأجيال المقبلة[1].

الرأسمالية ليست بديلا

صورة الرأسمالية اليوم، تؤكد أكثر من أي وقت مضى اهمية النضال من اجل بديل ديمقراطي تضامني، يتجاوز الرأسمالية، ويفتح آفاقا لبديل اشتراكي، يستوعب ما هو ايجابي في التجارب السابقة، ويتجاوز اخطاءها، ويسعى جاهدا لتحقيق التلازم الضروري بين الاشتراكية والديمقراطية، على اساس الشفافية والمشاركة الواسعة.

لا تمثل الرأسمالية نهاية التاريخ، وهي ليس بديلا انسانيا. تقول معطيات الأمم المتحدة، إن 15 في المائة فقط من سكان العالم تتوفر لهم الخدمات الصحية الأساسية. وان هناك فائضا في إنتاج الغذاء، لكن 20 ألف انسان يموتون يوميا نتيجة الجوع. ويهاجر يوميا ثلاثة آلاف من سكان إفريقيا وأميركا اللاتينية وآسيا، الى بلدان الشمال الرأسمالية الغنية[2] والرأسمالية غير قادرة على حل مشاكل العالم الاجتماعية والبيئية. إن تقسيم العالم إلى الدول المتقدمة صناعيا في أوروبا وأميركا الشمالية ودول الجنوب باعتبارها مستعمرات سابقة لها، ومصدرا للمواد الخام والعمالة الرخيصة يعكس طبيعة الرأسمالية. كما ان نسخة الليبرالية الجديدة من الرأسمالية، التي بدأت في عام 1973 مع دكتاتورية أوغستو بينوشيت في تشيلي، ادت إلى المزيد من التفاوت

والتهميش والخصخصة.
اضافة الى ان الرأسمالية، لا تجد بديلا للحرب كحل واضح لأزماتها: الحرب في أوكرانيا، وحرب الابادة الجماعية في الشرق الأوسط. وهناك 54 حربًا صغيرة وكبيرة على مستوى العالم. وهذا يعني تحقيق أقصى قدر من الأرباح لشركات الأسلحة؛ إذ تحقق صناعة الأسلحة إيرادات بقيمة 70 ألف دولار في الثانية الواحدة[2].

مفهوم اليسار

تعدد توصيفات اليسار يعود لأسباب منهجية، تاريخية، وحتى ثقافية. وكذلك ان تطور الصراع السياسي والاجتماعي ومروره بمراحل مختلفة اضافة لموضوعات واهداف ومطالب مختلفة في هذا البلد او ذاك: "وبالاستناد الى تقاليد النضالات الاجتماعية في القرنين الـ 19 والـ 20، لقد ترسخ تفسير عام مشترك: "اليمين" للتعبير عن القوى المحافظة، و"اليسار" يعني قوى التغيير. "اليمين" هو الرجعية، و"اليسار" يعني الثورة. "اليمين" مرادف للرأسمالية، و"اليسار" مرادف للاشتراكية... الخ"[3].
اليسار مفهوم نسبي تتحرك حدوده بدرجات مختلفة من قارة الى اخرى ومن بلد الى آخر، ووفق حاجات الصراع وتوازن القوى، والتجربة التاريخية وطبيعة البنية الثقافية في البلد المعين، لذلك فحدود التوصيف في الولايات المتحدة، هي غير حدود التوصيف في أوروبا او امريكا اللاتينية.
اما في البلدان العربية، فان تجربة اليسار متأثرة بأوروبا، الموطن الأول لليسار المعاصر. وعلى الصعيد المنهجي فاليسار، كما أراه: مضاد للرأسمالية، ويناضل من اجل بديل لها جوهره العدالة الاجتماعية الجذرية وإعادة توزيع الثروة لصالح الأكثرية، هذا البديل هو الاشتراكية. وان يكون علميا أمميا، متضامنا، تحرري الموقف من حقوق المرأة وفي رؤيته للعلاقات الاجتماعية وخصوصية الأفراد.
وعلى هذا الأساس هناك كثير من القوى والافراد يمكن ان يكونوا اليوم شركاء لليسار وحتى جزء منه، ويسيرون معه محطات تطول وتقصر. والفيصل في هذا مدى تقبلهم لفكرة اعادة توزيع الثروة.
وسياسيا يمتد اليسار بالمعنى الواسع من الاحزاب الديمقراطية الاجتماعية، مرورا بالأحزاب الشيوعية واليسار الماركسي بقراءاته الفكرية المختلفة، والعديد من احزاب الخضر والدفاع عن البيئة وصولا الى تيارات الفوضويين واليسار المتطرف.

اهمية اليسار

مع تصاعد اليمين المتطرف وتراجع نموذج الليبرالية الجديدة، وعودة حروب الهيمنة لتقاسم مناطق النفوذ، وتراجع العديد من المجتمعات، وخصوصا في البلاد العربية والعديد من بلدان الجنوب الأخرى الى اشكال ما قبل الدولة، فان كل المضامين التي رافقت صعود اليسار، تحافظ على راهنيتها، بل تصبح اليوم ذات اهمية استثنائية. وبالعودة الى ما أشرنا اليه في المقدمة، يتفق الكثير من الباحثين على أن الرأسمالية لا تحل أو لن تحل، بأي شكل من الأشكال، مشاكل البشرية الحالية أو المستقبلية، على الرغم من امكانياتها في التكيّف وتجاوز الأزمات. وبالمقابل ليس هناك بديل جذري مناهض للإمبريالية

خارج منهجية اليسار التحررية، فالمشاريع القومية والطائفية، حتى وان اختلفت سياسيا مع المراكز الرأسمالية، فأنها لا تطرح مشروعا اقتصاديا اجتماعيا خارجها.

أسباب الصعود والتراجع

منذ تفكك الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية في شرق أوربا، كتب وقيل الكثير عن هذه الاسباب، وما زال وسيبقى البحث بشأنها مستمرا، اذ لا يمكن استنهاض اليسار وتعزيز دوره، دون بلورة رؤية موضوعية معاصرة عن تجربته التاريخية. وفي البلدان التي تناضل فيها قوى اليسار في ظل ظروف غاية في الصعوبة، وامكانيات محدودة، لا بد من العودة مرارا وتكرارا لأسباب صعود وتراجع اليسار، في محاولة لتفعيل الحوار بين الناشطين والمهتمين والمتابعين للصراع الدائر في عالمنا المعاصر عموما، وعلى الصعيدين الإقليمي والوطني.

وبهدف التكثيف، سنركز في تناول اهم محطات الصعود والتراجع في القرن العشرين، الذي شهد انتصارات اليسار الكبرى، وكذلك نهاية نموذجه الاشتراكي الأول.

وبالتالي سنبدأ من الحرب العالمية الأولى، التي كان الموقف منها، بالإضافة الى اسباب اخرى، وراء انشقاق الحركة العمالية، الى يسار جذري اممي رفض الحرب باعتبارها حربا امبريالية لاقتسام مناطق النفوذ بين مراكز الرأسمال حينها. كان أبرز رموزه على سبيل الاشارة لا الحصر، لينين، روزا لوكسمبورغ. وآخر وقع في فخ القومية، واصطف مع الأسمال المحلي، وبرر اقتتال عمال البلدان المتحاربة، لخدمة اهداف امبريالية.

الصعود

في سياق تناول عوامل نهوض اليسار واسبابه يمكن الاشارة الى ما يأتي:

كانت ثورة اكتوبر الحدث الأهم في نهوض يسار القرن العشرين، لانها كانت ثورة من السلام العالمي. وبانتصارها دشنت اول قطيعة ناجحة مع الموت الجماعي في الحرب العالمية الإمبريالية الأولى. وكانت ثورة من أجل الديمقراطية والتحرر الاجتماعي، ومثلا يحتذى به للثورات اللاحقة التي هزت أوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية. ولأول مرة منذ هزيمة كومونة باريس في العام 1871، وضعت ثورة أكتوبر، الثورة الاجتماعية بالملموس على جدول اعمال التاريخ.

لقد قدمت الثورة نموذجا ملموسا على امكانية كسر سلسلة الهيمنة الامبريالية. وعبرت عن مطامح الاكثرية المستغلة والمضطهدة في العالم. وقدم النظام الاشتراكي الذي انبثق عنها مساعدات مكشوفة ومستترة للعديد من الحركات والبلدان.

لقد ادى هذا التطور العاصف، خصوصا بعد فضح المعاهدات الاستعمارية، ونداءات التضامن مع شعوب الشرق، الى جانب اسباب أخرى، الى نهوض حركات التحرر في العالم، وتصدر اليسار لأغلبها، لامتلاكه اطرا تنظيمية وتعبوية معاصرة تجاوزت القوى والاطر التقليدية، واستيعابه لمضمون تحرري لمناهضة البلدان المستعمرة، واهمية حق تقرير المصير، وبالاستناد الى الماركسية أكد ان المقاومة يجب ان تؤدي الى تحرير الفرد والمجتمع، وبعكسه ستنتج

استبدادا محليا، وهذا ما حصل في العديد من بلدان منطقتنا. لقد قدم اليسار مثالا نضاليا، وتبنى شعارات واهدافا تمس حاجات الشبيبة التواقة لعالم أفضل، وانفرد في تقديم رؤية تقدمية انسانية لتحرر النساء[4].

معروف ان الاتحاد السوفيتي تحمل القسط الأكبر في هزيمة الفاشية والنازية، والى جانب انقاذ العالم من هول جرائم الفاشيين والنازيين، انفتح افق واسع للمشاريع التقدمية، مقابل انكماش اليمين في السنوات والعقود التي تلت الحرب العالمية الثانية. وكذلك الدور المحوري الذي لعبته الاحزاب الشيوعية واليسارية في حركة مقاومة الفاشية ومساهمتها الرئيسية في تحرير العديد من البلدان منها فرنسا، ايطاليا، اليونان، ويوغسلافيا.

تعزز صعود اليسار بدور مميز للمثقفين والمبدعين اليسارين، في الرد على الثقافة التقليدية، وطرح انموذجا شمل كل مجالات الابداع، وتحول الى ماكينة للتنوير وكسر هيمنة منظومة الافكار المحافظة، وفتح الباب واسعا امام رياح التقدم والتنوير، وخصوصا في بلدان المستعمرات السابقة.

الدور الذي لعبته الطبقة العاملة في النمو الاقتصادي وتصاعد دور عالمي للنقابات، واتساع حركة السلام على خلفية الدمار الناتج عن قصف هيروشيما وناكا زاكي، وانتشار الاحزاب اليسارية باعتبارها حاملة للبديل المرجو وكذلك حركات النساء والشبيبة والطلبة، ارتباطا بالإمكانيات التي وفرها قيام بلدان المنظومة الاشتراكية.

لقد مثلت التجربة الاشتراكية في شرق أوربا، خصوصا في عقودها الأولى، تهديدا وخطرا على الرأسمالية الغربية، ما دفعها الى تبني نموذج دولة الرفاه، التي حققت العديد من المكتسبات الاجتماعية، ودفعت بعض اوساط من جمهور اليسار الى اعتبارها نموذجا اشتراكيا، ولكن سرعان ما انكشف الوهم، وعملت قوى الوسط واليمين، في العقود التي تلت نهاية النموذج السوفيتي، على قضم المكتسبات الاجتماعية المتحققة، واليوم تشارك احزاب اليمين المتطرف في حكومات العديد من البلدان، التي اعتبرت رائدة في هذا المجال.

التراجع

مثلما كانت ثورة اكتوبر رافعة لنهوض اليسار، فان نهاية النموذج الاشتراكي وغياب المثل، كان عاملا رئيسيا في تراجع اليسار، حتى لقوى اليسار التي كانت ناقدة بحق للجوانب السلبية في التجربة الاشتراكية الأولى. وهنا يمكن الاشارة الى جملة من الاسباب التي تقف وراء هذا التراجع:

1. الآثار المدمرة لاعتماد التصفيات لإدارة الصراع في عقود سيادة الستالينية، وانعكاسها في موجة انشقاقات في الحركة الشيوعية وعموم اليسار، وتوفيرها فرصة لمنافسي اليسار من قوى الوسط، وخصومه في معسكر اليمين للنهوض مجددا. وجرى تبرير هذه التصفيات بالاستناد الى نظرية المؤامرة والعمالة للأجنبي، وهي ذات النظرية التي توظف حتى اليوم ضد اليسار والقوى الديمقراطية في العديد من بلدان العالم.

2. تحويل الماركسية الى عقيدة جامدة، وتحديد مسارات ادارة الصراع بعيدا عن توسيع المشاركة وتعزيز الديمقراطية، والتمسك بنظم داخلية تجاوزتها الحياة.

وحتى الاحزاب الشيوعية، التي اعتمدت عمليات تجديد تحت السيطرة، وعلى الرغم من انفتاحها خطابها السياسي، الا انها ما تزال على صعيد البنى والذهنية السائدة فيها تعاني من الإرث الثقيل للستالينية.

3. تقاسم مناطق النفوذ خلال عقود الحرب الباردة، بين البلدان الرأسمالية، ومنافستها الاشتراكية، حدّ من فرص وصول الاحزاب الشيوعية واليسارية الى السلطة في العديد من البلدان، كما حدث في فرنسا، ايطاليا، واليونان. ولذلك ليس غريبا ان تشهد اسبانيا وفرنسا وايطاليا ظهور الأورو شيوعية. وكان تقاسم مناطق النفوذ عاملا مساعدا في توسيع دائرة انقلابات المخابرات المركزية ضد نظم وحركات تقدمية، في العراق، ايران، إندونيسيا، تشيلي وأغلب بلدان امريكا اللاتينية.

4. البيروقراطية التي تراكمت في النظم الاشتراكية انتقلت الى الاحزاب الشيوعية واليسارية بحكم العلاقة، وبالتالي سببت خسائر غير قليلة لهذه الاحزاب، وحالة اغتراب بينها وبين حواضنها الجماهيرية. وكذلك ضعف التضامن مع عمال بلدان الاطراف نتيجة لنشوء ارستقراطية عمالية في بلدان المراكز الرأسمالية. ولعل المثل الابرز ما حل بحكومة حزب اليسار اليوناني، في حين اكتفت النقابات العمالية في البلدان الأوربية بدور المتفرج.

5. صعود الليبرالية الجديدة، وتراجع التصنيع لصالح رأس المال المالي، ادى الى اضعاف دور الطبقة العاملة المنتجة في المركز والاطراف، وقلص الحاجة للمواد الخام، ولم تعد البلدان المنتجة لها اسواقا مهمة. وبدأت ظاهرة الانتاج في الاطراف، والمثل الابرز النمور الآسيوية. ان هذا الواقع عمق تبعية الاطراف، وأضعف معارضة رأس المال المالي، وانعكس في تراجع التأثير الثوري لليسار.

6. لقد اتسع نطاق رأس المال الرقمي، وكذلك قطاع الخدمات، مقابل تقلص دور العاملين. ولعل المثل الأبرز هو تحالف (غلاسكو) المالي العالمي، الذي يملك 130 ترليونا (ألف مليار دولار)، أي ما يعادل 137 في المائة من الناتج الاجمالي العالمي[11].

التحديات الراهنة

تتمثل التحديات العامة التي تواجه اليسار بالآتي:

1 - التحدي الاول الذي يواجه اليسار هو تجاوز التعصب والانغلاق. لقد كان التعصب أحد أكبر اخطاء اليسار، وانعكس ذلك في مفهوم "الطليعة وثنائية الاستقطاب من ليس معنا، فهو ضدنا. وشكل ذلك ارضية خصبة للانشقاقات وغياب الشفافية، وانشغال بالذات وفي سلسلة من المناقشات غير المجدية. وتحول الى جدار عازل عن كل جديد وفقدان القدرة على التعامل مع اسئلة الواقع الجديدة، وغيب العديد من المنظمات اليسارية التي تسعى الى مساهمة جدية في النضال ضد الرأسمالية وفي سبيل الاهداف الآنية وطنيا. لقد أدى هذا السلوك الى التعارض مع جوهر الماركسية، اذ كيف ترفض قوى تريد تغيير العالم، عملية التغيير الموضوعية داخلها؟[5].

2 - وضع رؤية علمية عن العالم، تمثل واحدة من الصراعات الرئيسية في المواجهة مع الرأسمالية. واليسار اليوم

بحاجة إلى استعادة رؤية علمية تساعد على إلقاء الضوء على التفاعلات في العمليات الاجتماعية المعاصرة. عراقيا يعني هذا دراسة الخراب الاجتماعي القائم وسيادة التخلف، بترابط بين الفترات المختلفة، وكذلك قراءة الاحداث اليومية المتسارعة، وعدم الانجرار الى التفسيرات السطحية التبسيطية القائمة على التجييش الطائفي، والمقارنات الساذجة.

3 - وضع التثقيف في المقدمة، والذي يشمل كل الفاعلين. وهو تثقيف يجب ان يكون مبدعا في جميع جوانبه، في محتواه وفي الشكل الذي يتم فيه. وللأسف يكون التثقيف السياسي في كثير من الأحيان تكرارا للبديهيات، وبلغة قديمة، وكأن شيئا لم يتغير في العالم. والتحدي في هذا، هو قدرة اليسار على ان يكون خلاقا مرة أخرى، وهو بحاجة لمعرفة نفسه أكثر وتعزيز وعيه على اساس الالتقاء اليومي لروح النضال الثوري مع الحياة اليومية للمجتمع. ولهذا ليس لديه خيار آخر سوى مغادرة اخطاء العقلية السابقة، وإذا كان الابداع يعني دائما القطيعة مع أخطاء الماضي، فانه يعني الاستمرارية أيضا[6].

4 - الربط بين الفكر والممارسة هو العنصر الأساسي في العلم. ولهذا يجب ان يكون "الفكر اليساري المناهض للرأسمالية مصحوبا بالنشاط. ان يسارا يفكر فقط ويحدد المواقف والحجج، ولا يمارس عمليا الفعل السياسي، ولا يتجشم المخاطر، ويصف ما يحدث فقط، سيكون في الواقع متضررا جراء فقدانه للفهم العملي، وما عدا ذلك سيكون ضئيلا او عديم الفائدة للمجتمع، ويساهم في تسريع عملية تهميشه التي يعمل ويسعى لها منافسوه"[3]. ويتضمن ربط الفكر والممارسة أيضا وحدة الممارسة والسلوك، وبالتالي يجب ان يتوافق السلوك اليومي للناشط اليساري مع ما يفكر به. ان سلوكية الاقناع تتجسد فقط بالممارسة السياسية. وهذا يعني ان بناء عالم جديد يبدأ فينا، في الحركة الثورية، وفي تعامل اي فرد في هذه الحركة، في بناء نوع جديد من العلاقات داخل الحركة نفسها، والذي يتضمن ممارسة جديدة، سلوكاً مختلفاً يعكس الأخلاقيات الجديدة. اي ان تجديدا للفكر يشترط تجديدا للسلوك على الصعيد المجتمعي والفردي، وفي هذا السياق من الضروري مكافحة النفعية وتبريرات تسويقها، والعودة لاعتماد الكفاءة والروح النضالية في اصطفاء الكادر، بعيدا عن المحاباة والمحسوبية.

نعتقد أنه لا يمكن لليسار أن يزدهر في عالم يُغرق فيه صخب اليمين كل ما تبقى، إلا بالاستناد على أسس اليسار الراسخة ومبادئه. لهذا الغرض، يجب القيام بتحليل معمق ومنهجي للحالة المعنية. ويجب أن يكون هذا التحليل عمليا وأن يتم على أساس رؤية ماركسية.. وان تكون الرؤية الطبقية هي الأساس وبلا جمود[7].

5 - تضافر الالتزام بالمبادئ والمرونة. واليسار المرن هو القدرة على التكيف مع الظروف التي يعمل فيها. والتكتيكات جزء لا يتجزأ من المنهج الماركسي. توفر التكتيكات الذكية لحظات من الهجوم والتراجع. لكن التكتيكات تخضع دائمًا للاستراتيجية. والهدف هو إحراز تقدم استراتيجي. والتكتيكات يجب ان تجعل الاهداف قريبة، لا أن تبعدنا عنها.

ولهذا فإن قوى التحالف الاجتماعي الرئيسي، هي الطبقة العاملة والنساء والشباب وجميع المتضررين. ويتمثل التحدي الأساسي بتحويل هذه القوى الاجتماعية الى حركات اجتماعية تتميز بدرجات متباينة من الوحدة، والقدرة التنظيمية، والتعبئة، والعلاقات التحالفية، وايضاً بدرجة لا تقل أهمية، في عمق تطلعاتها السياسية وثباتها. ومن الثابت انه لا جدوى حقيقية من التحالفات الشكلية، التي تضم قوى وافراد خارج دائرة التأثير السياسي. ان تراجع اليسار لا يعود لانحسار اهميته، او ضعف تأثير قيمه، بل يكمن في احيان كثيرة في تقادم اطره التنظيمية، وهذا تحد آخر مهم، في ان يستطيع اليسار التوصل الى سياسة واطر وآليات وانظمة داخلية قادرة على تعبئة كل الذين يعون قدرة مشروع اليسار على تحقيق احلامهم. وهؤلاء يتجاوزون بكثير الناشطين في اطر اليسار اليوم.

ملاحظات ختامية

هذه الملاحظات لا تغفل الظروف الموضوعية التي هي في اغلب فترات التاريخ المعاصر ليست لصالح اليسار (عدم وجود نقطة شروع عادلة، هيمنة قوى الرأسمال على السلطة، المال، الاعلام، والمؤسسات الثقافية). واليوم اصبحت الظروف الموضوعية أكثر صعوبة، ولكن يجب ان لا تتحول هذه الصعوبات الجدية الى شماعة او مصدر لتبرير التراجع. من المعروف ان تغييرها لصالح مشروع اليسار لا يرتبط بالرغبة، او قرار يتخذه اليسار، ما يستطيع اليسار التأثير فيه هو اداؤه الذاتي:

1) على الرغم من تراجع اليسار في الإطار العام، الا ان هناك نجاحات لا يمكن اغفالها، وتعد مؤشرا مهما لإمكانية النهوض رغم المعوقات، ويمكن الاشارة الى نجاحات العديد من تحالفات اليسار في امريكا اللاتينية. تجربة حزب العمل البلجيكي، الحزب الشيوعي النمساوي، نجاحات اليسار في الانتخابات الأوربية ليسار شمال أوربا، واخير النهوض غير المتوقع لحزب اليسار الالماني. تمثل هذه النجاحات رافعة تفاؤل ومنطلقا لتحقيق المزيد. لقد جاءت هذه النجاحات على أرضية المراجعة التفصيلية (سياسة، فكر، اطر تنظيمية، ووسائل تعبويه) وعلى اساس المشاركة الواسعة وتعزيز الديمقراطية[8].

ان الاهتمام بتجارب اليسار الناجحة، لا بهدف استنساخ تجربة ما، بل للاستفادة من اتجاهاتها العامة، فالتجارب تُدرس ولا تُستنسخ، وتاريخ الحركة العمالية العالمية يعلمنا أن الاستنساخ الميكانيكي وتجاوز التباين الموضوعي بين ظروف عمل وإمكانيات الأحزاب وساحات عملها المختلفة يقود بالضرورة إلى الفشل، او على الأقل إلى تحجيم اي نجاح متوقع، وفي مقابل ذلك يجري افراغ هذه الفكرة من محتواها، لتبرير حالة الانغلاق التي تعيشها العديد من الاحزاب، التي تؤدي الى المراوحة ومن ثم التهميش. ولكن المعركة المشتركة التي يخوضها اليسار العالمي ضد المراكز الرأسمالية العالمية، والانظمة التابعة لها في الأطراف، تؤكد وحدة مشروع اليسار العالمي في الإطار العام، وتجعل من الطبيعي ان يتبادل هذا اليسار دراسة تجاربه المختلفة بروح تضامنية،

فالنجاح في بلد ما هو حافز ومثال يعلم الآخرين أن النهوض والانتصار ممكنان، مهما بدت لوحة الصراع في العالم قاتمة وغير مشجعة.

2) لماذا يعجز اليسار عن الاستفادة من أزمات الحكومات ويعزز دوره كمعارضة؟ إحدى المشاكل الرئيسية هي أن اليسار يُنظَر إليه باعتباره جزءا من النظام السياسي السائد ولم يعد كما كان في عقود صعوده قوة المعارضة الأكثر حسماً والقادر على الوصول إلى ناخبي الاحتجاج وحشدهم. وان يستطيع مواجهة المخاوف التي تدفع المتضررين، بما في ذلك جزء من انصاره الى الاحتماء بالبدائل الخطأ (قوى السلطة في بلداننا، واليمين المتطرف في أوربا). لا ينبغي تكييف مواقف اليسار مع ما هو سائد. بمعنى آخر لا استسلام للسائد ولروح العصر! بغض النظر عن التبريرات والتفسيرات التي تبدو شكليا مغرية. لم يأت اليسار ليكون صورة للأغلبية السائدة بل ليغيرها، ولا يمكنه التنازل عن قناعات لأنه غير قادر حالياً على الحصول على الأغلبية. واليسار ليس شركة يمكنها تغيير استراتيجية التسويق حسب الرغبة، أو تغيير المنتج بأكمله إذا لزم الأمر. ومن الضروري أيضا تجنب استنساخ الخطاب الليبرالي بحجة الانفتاح، وردة فعل على أخطاء الماضي[9].

3) يجب على اليسار أن يضع دائمًا حياة الناس اليومية في مركز حججه. ولا ينبغي له أن يتحدث عن الأزمات المنفردة بشكل مجرد، بل يجب أن يتحدث عن مدى تأثيرها على تفاصيل حياة الناس اليومية الملموسة، وارجاعها الى جذورها الكامنة في القراءة الطبقية للصراع الاجتماعي، وطرح البدائل الملموسة، بعيدا عن العموميات.

4) مهمة اليسار دفع عمليات التحول الى امام، وإحداث التغيير، وتحمل المخاطر. لأنه إذا لم يفعل ذلك، ويفضل التمسك بالمراوحة والتردد بحجة الاعتدال فلن تحل المشاكل. يتحمل اليسار اعباء شعوره بالمسؤولية الوطنية، ويقدم تنازلات على حساب تعزيز دوره، يصح ذلك في اوقات الكوارث الوطنية، ولكنه يتحول خارج دائرة الكوارث الى مطب، على اليسار ان يتجنبه لصالح تعزيز دوره والتأكيد على مشروعه. من الضروري تذكر ما قاله ماكس ريمان بشأن رفض الحزب الشيوعي في المانيا للقانون الأساسي (الدستور) في عام 1949: "لن نوقع. ولكن سيأتي اليوم الذي ندافع فيه نحن الشيوعيين عن هذا القانون الأساسي ضد من اقره".

5) من الضروري جدا لحزب اليسار أن يكون راسخا في النقابات العمالية والحركات الاجتماعية وأن يدعم نضالاتها، ومن الأفضل أن يكون جزءًا منها. إن اليسار الذي يرى نفسه بديلا للأحزاب الأخرى، يجب ان ينأى بنفسه بوضوح عن السياسات السيئة لهذه الأحزاب، فبدون معارضة حاسمة، لن يكون هناك تقدم اجتماعي. وبالتالي فان تحديد الموقع في الصراع ضروري. يجب أن يكون يسارا مناضلا من أجل المساواة والحرية، وفي جميع المجالات المهمة التي تؤثر على البلاد، سواء في سوق العمل وسياسة الدخل، او في انجاز السيادة الحقيقية[10].

لنمنح مشروع اليسار المستقبل الذي يستحقه، بشجاعة ومثابرة، ونقد ذاتي،

أساسه الاعتراف بالأخطاء وعدم محاولة تحجيمها مع استعداد دائم للتعلم، باعتبار أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها أن يصبح اليسار أقوى.

ختاما، قد يدور في اذهان الكثيرين السؤال التالي:

ماذا عن اليسار العراقي؟ اعتقد ان المرور السريع في هذه المساهمة، على الواقع الملتبس لليسار العراقي لا يلبي الغرض، فالإجابة تتطلب تناولا ضافيا لهذا الواقع، وربما يحتاج الى أكثر من وقفة، والى جهد متنوع يساعد على تغطية مفردات هذا الملف، وجميع المعنيين والحرصين على مستقبل اليسار مطالبون بتقديم رؤيتهم بروح تضامنية تتجاوز المخاوف والتخندق والعيش على اخطاء الآخر المنافس.

الهوامش

(1) مانفريد نورفات "أسئلة برؤية يسارية مستقبلية"، رابط المقال:
https://iraqicp.com/index.php/sections/afkar/67531-2024-11-16-18-34-28

(2) حوار بالألمانية مع مارسيلو كولوسي: على الرابط:
https://www.jungewelt.de/artikel/496351.antiimperialismus-der-sozialismus-hat-eine-schlacht-verloren-nicht-den-krieg.html

(3) داريو رودريغيز ماشادو، "ماذا يعني ان تكون يساريا اليوم؟"، على الرابط:
https://althakafaaljadeda.net/index.php/translated-texts/333-2022-11-27-20-15-02

(4) "في مئوية ثورة اكتوبر.. تقييم اللجنة التاريخية في قيادة حزب اليسار الألماني"، رابط المقالة:
https://iraqicparchives.com/index.php/sections/objekt/67648-2017-12-20-18-12-48

(5) ماشادو.

(6) رشيد غويلب، (اعداد) "تحولات المجتمع وأزمة حزب اليسار الألماني"، رابط المقالة:
https://iraqicp.com/index.php/sections/orbits/67363-2024-09-20-16-45-03

(7) بيتر مارتينز، "الازمة المتعددة والتحديات التي تواجه اليسار"، رابط المقالة:
https://www.ahewar.net/debat/show.art.asp?aid=783799&nm=1

(8) رشيد غويلب، "قراءة في النجاح الانتخابي لحزب اليسار الألماني"، رابط المقالة:
https://www.tareeqashaab.com/index.php/sections/articles/22564-2025-03-01-17-17-56

(9) غويلب، "تحولات المجتمع وأزمة حزب اليسار الألماني".

(10) المصدر نفسه.

(11) جريدة القدس العربي في 3 تشرين الثاني 2021 . رابط التقرير
www.alquds.co.uk/ تحالف-شركات-خاصة-قيمتها-130-تريليون-دولا/
وانظر كذلك
https://www.statista.com/statistics/268750/global-gross-domestic-product-gdp

العدالة الاجتماعية في دولة الرفاه.. بين السرديات والواقع الصارم
المعالم الأساسية لاتجاهات تطور الأجور في السويد
خلال الفترة 1913 – 2018

د.صالح ياسر
باحث اقتصادي

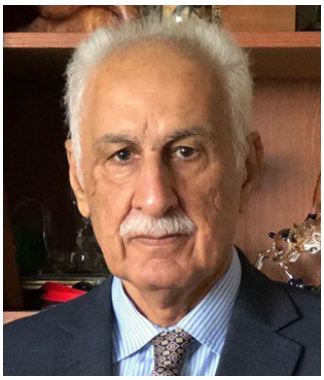

تدور اشكالية الدراسة حول تبديد وهم ساد لمدة طويلة (ولا يزال قائما حتى اليوم وسيستمر أيضا!)، وهو أن النظام الرأسمالي، إن كان يتسم بعدم العدالة في توزيع الدخل والثروة (أو البعد عن المساواة)، منذ نشأته، وحتى العقود الأولى من القرن العشرين، فإنه منذ ذلك الوقت سائر نحو تخفيف حدّة اللامساواة. ولكن حقائق التاريخ صارمة تفقأ العين حيث تقول ان الاتجاه العام للرأسمالية، منذ نشأتها وحتى الآن، هو أنها سائرة نحو مزيد من اللامساواة والاستقطاب وأن فترة التخفيف من حدّة التفاوت ليس إلا استثناء عارضا في تاريخها. وقد حدث ذلك لأسباب تاريخية معينة لا يتسع المجال في الدخول بتفاصيلها، ولا ينتظر أن تتكرر إلا اذا تمت القناعة بضرورة بذل جهد واع لإيقاف الاتجاه الى المزيد من اللامساواة، وهذا لن يحدث ابداً في هذه التشكيلة، لأن احد القوانين الناظمة للتشكيلة الرأسمالية هو تفاقم الفقر من جهة والثروة من جهة اخرى !

وتدعيما للملاحظات اعلاه يمكن الاتفاق مع ملاحظة الاقتصادي الفرنسي " توماس بيكيتي" التي تقول إن انعدام المساواة بين العمل ورأس المال وبين الطبقات داخل البلدان الرأسمالية نفسها، وفيما بين البلدان بعضها البعض قد تزايد في القرن الحادي والعشرين وفاق ما كان عليه الحال في القرون الثلاثة السابقة. ويرى أن الآمال التي علقها الناس على التقدم في اتجاه توزيع أقرب إلى المساواة في الثروة والدخل، قد تحطمت في القرن الحادي والعشرين، فما أن يتكون رأس المال إلا ويعيد إنتاج نفسه بوتيرة أسرع كثيرا من وتيرة زيادة الناتج القومي، وهكذا "يقوم الماضي بالتهام المستقبل"[1]. ويفرد "بيكيتي" مساحة كبيرة لـ "مجتمع المديرين" و "الأجور السوبر" كأحد العوامل التي أدت إلى التركيز الهائل للثروة.

وفي اطار المعركة الايديولوجية بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي خلال فترة "الحرب الباردة" جرى تقديم دولة الرفاه الاجتماعي باعتبارها "الجنة الموعودة" التي تسود فيها العدالة الاجتماعية وأنها تمثل "خيارا ثالثا" أي انها "لا شرقية ولا غربية"!!. والواقع انها ليست خيارا "ثالثا"، كما يتصور البعض، بل خيار من داخل النظام الرأسمالي نفسه لإعادة انتاج هذا النظام دون عوائق، ولمواجهة التحديات الجديدة التي نشأت بعد الحرب العالمية الثانية وما طرحته من رهانات استراتيجية وتنويعات تطبيقية ملموسة تمثلت بانتصار الاتحاد السوفيتي في تلك الحرب ونشوء المعسكر الاشتراكي، وتعاظم دور الطبقات العاملة محليا ودوليا، مما اصبحت تهدد أسس النظام الرأسمالي، فكان لا بد من "مناورة من داخل النظام" تسمح بموجبها عبور التحديات التي ظهرت بـ "اقل الخسائر" وعندها ظهرت دولة الرفاه الاجتماعي[2].

وكما قلنا قبل قليل، ولد نموذج الرعاية الاجتماعية ودولة الرفاه في قلب الصراع بين نظامي الرأسمالية والاشتراكية و"الحرب الباردة" خلال المرحلة السابقة من العولمة الرأسمالية غير المطلقة وسوقها الدولية غير الشاملة. ولما كانت قوى النموذج الاقتصادية وأسسه الفكرية وتقاليده السياسية والاجتماعية قد ترسخت في الدول التي قامت بتطبيقه عقودا متعددة من الزمن، فإن هذا النموذج صمد بقدر كبير، بالرغم من معاناته من أزمات عدة. ومع أن هذا النموذج قد حقق توازناً، في المجتمعات بين المصالح والحاجات وبين النمو والعدالة وبين الربح الفردي والفئوي والأجور وسائر العناصر المحققة للازدهار الاجتماعي والازدهار الاجتماعي فإنه - أي هذا النموذج - قد أصابه التآكل لاحقا وواجه صعوبات عدة وأزمة بنيوية متعددة الصُعُد باتت تهدد وجوده.

ان هذه العملية التي يُطلَقُ عليها أحياناً اسم: "أزمة دولة الرفاه"، أثارت تساؤلاتٍ حادة حول مفهوم "دولة الرفاه"، وحول الفرضيات الاقتصادية والاجتماعية الأساسية التي قامت عليها وحول تطوّرها في المستقبل.

وثمة العديد من المقاربات التي يمكن استخدامها للكشف عن واقع العدالة الاجتماعية في دول الرفاه الاجتماعي إلا أننا اخترنا دراسة تطور الاجور في السويد خلال فترة زمنية تجاوزت القرن (1913 – 2018) لفحص مدى صدقية هذه الاطروحة ولتبديد وهم العدالة في توزيع الدخل والثروة في دولة الرفاه الاجتماعي.

المبحث الأول: تطور الأجور والمرتبات خلال الفترة 1913 – 2018

في عام 1913، كان متوسط أجر العاملين في التعدين و الصناعة التحويلية (42) أورة öre في الساعة (الاورة الواحدة تعادل 1/100 من الكرونة السويدية). اما في عام 2018 ، أي بعد 105 سنوات ، فقد ارتفع أجر الساعة الواحدة من المرتب إلى 180 كرونة سويدية (كمتوسط) في الساعة. ولمزيد من التوضيح، كان متوسط الراتب الشهري في عام 1913 يعادل 85 كرونة سويدية، في حين بلغ 30600 كرونة سويدية في عام 2018. اما في عام 2019

فقد بلغ 35 300 كرونة شهريا[3]. وبالنسبة لصناعة التعدين، فقد ارتفع متوسط الراتب الشهري من 186 كرونة سويدية في عام 1913 إلى 44900 كرونة سويدية في 2018.

ومع ذلك، كانت قيمة الكرونة الواحدة في عام 1913 أعلى بكثير من قيمتها الحالية. وبصورة أدق فإنها تعادل 48 مرة أكثر وفقًا لمؤشر أسعار المستهلك (CPI) الخاص بإحصائيات السويد. ويعني ذلك أن سلعة معينة كانت تكلف كرونة واحدة في عام 1913 اصبحت في عام 2018 تكلف 48 كرونة.

في بداية سنة القياس (1913)، كانت السويد في منتصف مرحلة التوسع الصناعي وأدى نقص العمالة إلى ارتفاع حاد في الأجور. ومع ذلك، ارتفعت الأسعار وانخفضت الأجور الحقيقية أكثر بعد إدخال نظام العمل بمقدار 48 ساعة أسبوعيا وتطبيق السياسة النقدية المقيّدة أو الانكماشية. وقد تسبب هذا في ارتفاع الأجور خلال سنوات -1918 1920، حيث ارتفعت الأجور الحقيقية بما يزيد قليلاً على 50%.

غير انه في أوائل العشرينات من القرن الماضي، أدت أزمة اقتصادية حادة إلى انخفاض الأجور من الناحية الاسمية والحقيقية. ومع ذلك ، استقرت الأجور بعد عدّة سنوات عند حوالي 220 كرونة سويدية شهريا للعمال وحوالي 360 كرونة سويدية للموظفين، والتي تتوافق مع ما يزيد قليلاً على 6100، و 9900 كرونة سويدية على التوالي، بأسعار 2018. ثم ظلت المرتبات عند هذا المستوى تقريبا لمدة 20 عاما، حتى أوائل الأربعينيات.

أعقبت الحرب العالمية الثانية (1939 – 1945) فترة ما يقارب الثلاثة عقود من النمو الاقتصادي القوي. وتماشيا مع زيادة الأجور ارتفع متوسط الراتب الشهري للعامل الصناعي من 364 كرونة سويدية في عام 1945 إلى 2182 كرونة سويدية في عام 1970. وباسعار عام 2018 فإن هذا يتوافق مع زيادة في الأجور الحقيقية من 7500 كرونة سويدية إلى 17300 كرونة في الفترة (1945–1970). ويعني ذلك زيادة قدرها 130 بالمائة خلال هذه الفترة أو 3.4 بالمائة سنويًا لمدة 25 عاما (1945–1970).

في السبعينيات، توقف النمو الاقتصادي وتبعه حدوث تضخم اقتصادي استمر لمدة 20 عاما حيث ارتفعت الأجور والأسعار بشكل حاد. فقد جلبت هذه الاوضاع ركودا في الأجور الحقيقية، وبالأسعار الثابتة كان متوسط أجر العمال حوالي 19000 كرونة سويدية شهريا في الفترة (1995-1975). هذا على الرغم من أن الأجور ارتفعت بنسبة تزيد قليلاً على 300%، من 3621 كرونة سويدية إلى 14800 كرونة في نفس الفترة.

من جهة اخرى، فإنه في أوائل التسعينيات من القرن العشرين، أدت ما يسمى بـ "أزمة التسعينيات" إلى ضرورة وضع حد للتضخم الاقتصادي، ولهذا تخلت السويد عن سعر الصرف الثابت للعملة السويدية (الكرونة) ووضع البنك المركزي Riksbanken هدفا للتضخم لا يتجاوز نسبة الـ 2٪ سنويًا وظل ساريا طيلة الفترة التالية.

وفي الوقت نفسه، ارتفعت الأجور بنحو 2.9% سنويا بالنسبة للعمال وحوالي

3.2% للموظفين في الفترة 2018-1998.

تطور الأجور خلال الفترة 2000 - 2018

خلال الفترة 2000 - 2018 ، ارتفع متوسط الراتب الشهري لجميع العاملين في السويد من 19900 كرونة سويدية إلى 33900 كرونة. وتعني هذه الارقام ان متوسط الراتب قد ارتفع بـ 14000 كرونة، أو يعادل 70 بالمائة.

ومع ذلك، فقد زادت مرتبات الموظفين بنسبة أكبر من اجور العمال.

فبالنسبة للعمال، ارتفع متوسط الأجر الشهري خلال الفترة المذكورة من 16300 كرونة سويدية إلى 27000 كرونة سويدية، أي بزيادة قدرها 10800 كرونة سويدية، أو ما يعادل 66%، بينما زاد متوسط الرواتب للموظفين من 22800 كرونة سويدية إلى 40500 كرونة سويدية، بزيادة قدرها 17800 كرونة سويدية أو ما يعادل 78%. وبذلك ارتفع متوسط الراتب بمقدار 7000 كرونة سويدية ، أو ما يعادل 12 نقطة مئوية، بالنسبة للمشتغلين من ذوي الياقات البيضاء أكثر من العمال. ولمزيد من التفاصيل انظر الجدول (رقم 1) أدناه.

المعالم الأساسية للأجور في عام 2018

وفقا لـ [4] (Lönerapport 2019) الصادر عن المركزية النقابية (LO) في عام 2018، فقد بلغ متوسط الراتب للعاملين بأجر عموما 33900 كرونة سويدية شهريا. وعند تقسيم هؤلاء الى فئتين: العمال (ذوي الياقات الزرقاء) والموظفين tjän-stemän (ذوي الياقات البيضاء) يتضح التالي: بالنسبة للعمال، بلغ متوسط الاجر للعامل لنفس العام 27000 كرونة سويدية وللموظف 40500 كرونة سويدية. وهكذا فقد بلغ متوسط فجوة الراتب 13500 كرونة سويدية، أو 50% ، أعلى بالنسبة لذوي الياقات البيضاء بالمقارنة مع العمال. وهو ما يعكسه الجدول رقم (2) ادناه:

ولا بد من الاشارة هنا الى أن فجوة الأجور ليست فقط بين العمال من جهة وبين الموظفين من ذوي الياقات البيضاء من جهة أخرى، بل ان عوامل كالجندر والعمر والقطاع والمنطقة وكذلك العاملون الذين ينتمون الى بلدان مختلفة، تُظهِر أيضا وجود

جدول رقم (1)
تطور متوسط الاجور في السويد خلال الفترة 2000-2018

	متوسط الأجر (بالكرونة)		تطور الأجر خلال الفترة 2000-2018		
	2000	2018	كرونة	وتيرة النمو خلال الفترة %	معدل النمو السنوي %
العمال	16300	27000	10800	66	2,9
الموظفون	22800	40500	17800	78	3,2
الاجمالي	19900	33900	14000	70	3,0

سنة الاساس 2000

Källa: Mats Larsson, Lönerapport 2019, Löner och löneutveckling år 1913–2018 efter klass och kön, Landsorganisationen i Sverige. Rapporten har utarbetats av LOs Enhet för avtalsfrågor, September 2019, Tabell 2.1, s.10

جدول رقم (2)
الراتب الشهري حسب الطبقة والجندر في عام 2018 (كرونة سويدية)

	عمال	موظفون	الاجمالي
الاجمالي	27000	40500	33900
نساء	25000	37000	31900
ذكور	28500	44700	35900

Källa: Mats Larsson, Lönerapport 2019, Löner och löneutveckling år 1913–2018 efter klass och kön, Landsorganisationen i Sverige. Rapporten har utarbetats av LOs Enhet för avtalsfrågor, Tabell 1.1, s.4

فروقات كبيرة في الأجور.
هذا مع العلم انه خلال عامي 2017-2018، كان متوسط المرتب لجميع العاملين قد ازداد بنسبة 5.2 في المئة.
ولكن لو دفعنا التحليل خطوة للأمام سنجد ان اجور العمال زادت بنسبة 4.4% (أي 1140 كرونة)، في حين أن هذه الزيادة بالنسبة للموظفين بلغت 5.8٪ (أي 2220 كرونة).
والنتيجة المستخلصة من الملاحظات السابقة هي ان فجوة الأجور بين العمال (ذوي الياقات الزرقاء) وبين المشتغلين الآخرين من ذوي الياقات البيضاء قد ازدادت في العامين 2017 - 2018.
ومن المعروف انه خلال العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين، اتسعت فجوة الأجور بين العمال والموظفين، من 40 في المائة في عام 2000 إلى 50 في المائة في عام 2018. ومع ذلك، فإنه وخلال معظم هذه الفترة كانت فجوة الأجور ثابتة نسبيا عند حوالي 48% .

فجوة الاجور على مستوى الجندر خلال عام 2018

تشير المعطيات الاحصائية الى انه في عام 2018 كان متوسط الراتب الشهري للنساء 31900 كرونة سويدية وللرجال 35900 كرونة سويدية (انظر الجدول رقم 2). وبذلك بلغ متوسط أجر النساء 42000 كرونة سويدية (أو ما يعادل 13%) أقل من الرجال. وكنسبة مئوية، فإن متوسط أجر النساء الشهري يشكل 88 في المائة من متوسط أجر الرجال.
كانت الفجوة في الأجور بين النساء مقسمة بين العمال والموظفين العاملين ذوي الياقات البيضاء. ففي اوساط العمال كان متوسط الأجر بين النساء العاملات قد بلغ 25000 كرونة اما بالنسبة للرجال من العمال فقد بلغ

28500 كرونة. وتعني هذه الارقام ان فجوة الدخل بين الذكور والاناث من العمال بلغت 3500 كرونة لصالح الرجال. ومن حيث النسبة المئوية، فإن أجر النساء شكل 88% من متوسط أجر الرجال بين فئة العمال.

اما بالنسبة لفئة الموظفين (ذوي الياقات البيضاء)، فقد كان متوسط الراتب الشهري للنساء 37000 كرونة سويدية وللرجال 44700 كرونة، بفارق 7700 كرونة لصالح الرجال. وكنسبة مئوية، يعادل متوسط أجر النساء 83% من متوسط أجر الرجال بين هذه الفئة (انظر الجدول 2).

ومن جهة اخرى، وعلى مستوى توزيع العاملين بين القطاع العام والقطاع الخاص فإنه يلاحظ ان فجوة الأجور بين النساء والرجال في القطاع العام اقل منها في القطاع الخاص. فمثلا بين العمال، بلغت فجوة الاجور 300 كرونة سويدية اقل للنساء منه عن الرجال في القطاع العام و 3600 كرونة سويدية أقل في القطاع الخاص. ويعني ذلك ان متوسط أجر النساء شكل 99% من متوسط أجر الرجال في القطاع العام. اما في القطاع الخاص فكانت الفجوة اكبر، حيث بلغ متوسط أجر النساء 88% من متوسط أجر الرجال. والنتيجة المستخلصة بسيطة: تركيبة الاجور على مستوى الجندر في القطاع الحكومي أكثر عدالة مما هي عليه في القطاع الخاص.

وحتى بين الموظفين، كانت فجوة الأجور بين النساء والرجال أصغر في القطاع العام منه في القطاع الخاص. ففي القطاع العام، كان متوسط المرتب الشهري للنساء يقل بمقدار 4000 كرونة سويدية عن الرجال و 7800 كرونة في القطاع الخاص. وبالنسب المئوية، يعني ذلك ان متوسط أجر النساء يعادل 90% فقط من متوسط أجر الرجال في القطاع العام، و83% في القطاع الخاص (ولمزيد من التفاصيل انظر الجدول 3 ادناه).

جدول رقم (3)

المرتب الشهري للنساء والرجال في عام 2018 وراتب المرأة كنسبة مئوية من راتب الرجل وحسب المهنة

القطاعات	العمال			الموظفون			اجمالي المشتغلين		
	النساء	الرجال	راتب المرأة كنسبة % من راتب الرجل	النساء	الرجال	راتب المرأة كنسبة % من راتب الرجل	النساء	الرجال	راتب المرأة كنسبة % من راتب الرجل
مجموع القطاعات	25000	28500	88	37000	44700	83	31700	35900	88
القطاع الخاص	25000	28900	88	38400	46200	83	32200	36200	89
القطاع العام	24600	24900	99	35500	39500	90	31200	34500	90
الدولة	25500	27800	92	37300	40800	91	36500	38600	95
البلديات	24500	24600	100	34300	35300	97	29300	30100	97
المقاطعات	25300	24800	102	36800	47300	78	34000	41800	81

Källa: Mats Larsson, Lönerapport 2019, Löner och löneutveckling år 1913–2018 efter klass och kön…, op, cit, Tabell 3.1, s.25

مرتب المرأة كنسبة مئوية من راتب الرجل خلال الفترة 2018-2000

عند متابعة تطور فجوة الأجور بين النساء والرجال الذي يتجلى في متوسط راتب المرأة كنسبة مئوية من متوسط راتب الرجل فإن فجوة الأجور قد تقلصت ببطء ولكن بثبات في القرن الحادي والعشرين. ومع ذلك، فإن هذا ينطبق بشكل رئيس على الموظفين. أما بين العمال، فيبدو أن المساواة قد أصيبت بالركود أو تجمدت خلال السنوات الأخيرة. ففي شريحة الموظفين، تحصل المرأة على متوسط أجر يتراوح بين81 إلى 88% من متوسط أجر الرجل وذلك خلال الفترة 2018-2000. وهذا يعني ان راتب المرأة - كنسبة مئوية من راتب الرجل- قد زاد بسبع نقاط مئوية.

وحتى بين العمال، فقد تقلصت فجوة الأجور بين النساء والرجال. ففي العقدين الأولين من القرن الحادي والعشرين ارتفعت أجور النساء (كنسبة مئوية من أجور الرجال) من 85 إلى 88% خلال الفترة 2000 - 2018 ، إلا أن معظم هذا الفرق حدث خلال الفترة 2000-2009 وعلى مدى السنوات العشر التالية، يبدو أن المساواة قد توقفت بين العمال، ثم ان متوسط مرتب النساء، كنسبة مئوية من مرتب الرجال، قد بلغ 88% في كل من عامي 2008 و 2018 .

على المستوى القطاعي

بالمقابل، يمكن تناول فجوة الاجور من زاوية اخرى، أي قطاعياً، حيث يقسم العاملون حسب الفئة إلى ستة قطاعات (الصناعة التحويلية، صناعية البناء، إنتاج الخدمة الخاصة، قطاع الدولة، البلديات، المقاطعات).

تشير المعطيات الاحصائية [5] الى أن متوسط المرتب بالنسبة للموظفين أعلى بشكل واضح من أجر العمال في جميع القطاعات الستة. ويحصل الموظفون العاملون في قطاع الصناعة التحويلية على المرتبة الاولى براتب شهري قدره 45700 كرونة سويدية. يليه في الترتيب العاملون في قطاع البناء وإنتاج الخدمات الخاصة، حيث يبلغ الراتب الشهري 45100 كرونة و 42000 كرونة على التوالي.

اما بالنسبة للعمال، فقد بلغ متوسط الاجر الشهري للعامل في صناعة البناء 32100 كرونة سويدية. يأتي بعد ذلك العمال في الصناعة التحويلية حيث يبلغ متوسط الاجر الشهري للعامل في هذا القطاع 28800 كرونة سويدية.

اما بالنسبة للموظفين العاملين في القطاع العام، فبلغ متوسط الراتب الشهري في المقاطعة Landsting 39100 كرونة سويدية. وهو اعلى من متوسط الراتب الأعلى للعمال في صناعة البناء حيث يبلغ متوسط أجر العامل 30700 كرونة سويدية. وفي القطاع الحكومي المركزي، بلغ متوسط الاجر الشهري 38900 كرونة، أما على المستوى البلدي فبلغ 34500 كرونة سويدية وذلك في عام 2018.

يأتي بعد ذلك العمال في الصناعة التحويلية حيث بلغ متوسط الاجر الشهري للعامل 27500 كرونة سويدية.

هذا مع العلم ان أدنى متوسط للأجور شهريا هو ما يحصل عليه العمال في القطاع البلدي حيث يبلغ 24500 كرونة سويدية بينما تجاوز أجر العمال على مستوى المقاطعة مبلغا قدره 25200 كرونة سويدية، وقطاع

جدول رقم (4)
الراتب الشهري حسب الفئة والنوع الاجتماعي (الجندر) والقطاع لعام 2016

القطـــــاع	العمال			الموظفون			الاجمالي		
	اناث	ذكور	المجموع	اناث	ذكور	المجموع	اناث	ذكور	المجموع
مجموع القطاعات	25000	28500	27000	37000	44700	40500	31700	35900	33900
القطاع الخاص	25300	28900	27800	38400	46200	42700	32200	36200	34700
الصناعة التحويلية	27000	29200	28800	41400	47800	45700	34700	35800	35500
صناعة البناء	27100	32300	32100	39500	47400	45100	36200	35300	35400
الخدمات الانتاجية	25000	27300	26300	38000	45700	42000	31800	36500	34300
القطاع العام	24600	24900	24600	35500	39500	36700	31200	34500	32100
الدولة	25500	27800	27000	37300	40800	38900	36500	38600	37500
البلدية	24500	24600	24500	34300	35300	34500	29300	30100	29500
المقاطعة	25300	2488	25200	36800	47300	39100	34000	41800	35700

Källa: Mats Larsson, Lönerapport 2019, Löner och löneutveckling år 1913–2018 efter klass och kön, Landsorganisationen i Sverige. Rapporten har utarbetats av LOs Enhet för avtalsfrågor, September 2019, Tabell 1.2, s.7

إنتاج الخدمات الخاصة الذي بلغ متوسط الاجور فيه 26300 كرونة سويدية شهريا. ولمزيد من التفاصيل انظر الجدول رقم 4 ادناه.

المبحث الثاني: التكامل بين العاملين حسب بلد الميلاد.. حقيقة أم وهم؟

معالم تطور الاجور بين العاملين من أصول سويدية والعاملين من اصول اجنبية:

في عام 2017 كان متوسط الراتب الشهري لجميع العاملين 33000 كرونة سويدية.

وفي نفس العام، يظهر الراتب حسب بلد الميلاد أن متوسط الراتب الشهري للموظفين من اصول سويدية بلغ 33600 كرونة سويدية اما بالنسبة للموظفين المولودين في الخارج (من اصول أجنبية) فقد بلغ 29900 كرونة سويدية شهريا. ويعني هذا ان فجوة الاجور بين الفئتين بلغت 3800 كرونة سويدية شهريا، أو ما يعادل 13٪ لصالح الموظفين من اصول سويدية مقارنة بالمولودين خارج البلاد.

وعند اعتماد مدخل آخر، عبر تقسيم العاملين الى عمال من (ذوي الياقات الزرقاء) ومن المشتغلين (ذوي الياقات البيضاء)، فإنه يمكن تسجيل الملاحظات الاتية:

- بلغ متوسط الأجر الشهري للعمال المولودين في السويد 26200 كرونة سويدية، مقارنة بـ 24300 كرونة سويدية للعمال المولودين في الخارج. ويعني ذلك ان متوسط فجوة الاجور بين الفئتين من العمال بلغ 1900 كرونة سويدية شهريا لصالح العمال المولودين في السويد (من اصول سويدية) مقارنة بالعمال الذين ولدوا في الخارج. اما بالنسبة للشغيلة من ذوي الياقات البيضاء

(الموظفين tjänstemän) فقد بلغت فجوة الأجور 1200 كرونة سويدية، أي ما يعادل 3%، لصالح المولودين في السويد.

يوضح التوزيع حسب الفئة والجندر المشار إليه في [6] (Lönerapport 2019) أن فرق الأجور حسب بلد الميلاد كان أكثر بين الرجال مما هو بين النساء، سواء بين العمال او الموظفين من ذوي الياقات البيضاء (tjänstemän).

- اما بين الموظفين tjänstemän ، فقد كان متوسط الراتب الشهري 39500 كرونة سويدية للموظفين المولودين في السويد (من أصول سويدية) و38400 كرونة سويدية للموظفين المولودين في الخارج (من أصول أجنبية)، أي ان الفرق في متوسط الراتب الشهري قد بلغ 1200 كرونة سويدية، ما يعادل 3% لصالح الموظفين من اصول سويدية.

واضافة لذلك فقد كان فرق الأجر بين الموظفين المولودين في السويد والمولودين في الخارج أكبر بين العمال منه بين الموظفين. ومع ذلك، كانت الفجوة في الأجور بين العمال والموظفين أقل مما هو بين جميع الموظفين. هذا مع العلم ان من بين العاملين من اصول سويدية، كان هناك 44% منهم عمالا، و55% من الموظفين. اما بين العاملين من اصول اجنبية، فهناك 60% منهم عمال، و39% موظفون. وهكذا كانت نسبة العمال أعلى بشكل واضح بين العاملين من اصول اجنبية مقارنة بالموظفين من اصول سويدية (ولمزيد من التفاصيل انظر الجدول ادناه 5).

- اما على مستوى الجندر، فيلاحظ ان متوسط الراتب للمشتغلين من اصول سويدية كان أعلى منه بالنسبة للموظفين من اصول اجنبية بين النساء والرجال، وهذا ينطبق على جميع المشتغلين عند التقسيم الى عمال وموظفين. وعند تقسيم المشتغلين حسب بلد المنشأ وحسب الجندر، يلاحظ ان فجوة الأجور بعد بلد الميلاد كانت أكبر بين الرجال منه بين النساء – لكليهما من العمال وبين الموظفين من ذوي الياقات البيضاء.

من بين جميع المشتغلين، كان متوسط الراتب الشهري 36000 كرونة سويدية للرجال من ذوي اصول سويدية، و33200 كرونة سويدية للرجال من ذوي اصول اجنبية. أي ان متوسط الفجوة الأجرية بين الاثنين بلغ 4800 كرونة شهريا، وهو ما يعادل 15%، أعلى لصالح الرجال من اصول سويدية.

اما بين جميع العاملات من النساء فقد كان متوسط الراتب 31300 كرونة سويدية للنساء من اصول سويدية و 28500 كرونة سويدية للنساء من اصول اجنبية، أي ان الفرق بين الشريحتين بلغ 2800 كرونة سويدية، أي ما يعادل 10%، لصالح النساء المولودات في السويد. ويعني هذا ان فجوة الأجور بين المولودين في السويد وبين ذوي الاصول الاجنبية كانت بحوالي خمس نقاط مئوية بين الرجال أكثر من النساء (انظر الجدول رقم 6).

جدول رقم (5)
الراتب الشهري (بالكرونة السويدية) حسب الفئة وبلد المنشأ في عام 2017

	عمال		موظفون Tjänstemän		الاجمالي	
	العدد	متوسط الراتب	العدد	متوسط الراتب	العدد	متوسط الراتب
اجمالي العاملين	1948000	28500	2194000	39400	4194000	33000
من اصول سويدية	1508000	26200	1904000	39500	3457000	33600
من اصول اجنبية	440000	24300	290000	38400	737000	29900

Källa: Mats Larsson, Lönerapport 2019, Löner och löneutveckling år 1913–2018 efter klass och kön…, op, cit, Tabell 4.1, s.36

ومع ذلك، فإن تقسيم النساء والرجال حسب الفئة يظهر فروقًا أصغر في الأجور بين الموظفين من ذوي الاصول السويدية والاصول الاجنبية. على مستوى الرجال انخفضت فجوة الأجور بين العمال منهم إلى 2600 كرونة سويدية، أي ما يعادل الـ 10%، وبين الموظفين بـ 2300 كرونة سويدية، أي ما يعادل الـ 5%.

أما بين النساء، فقد انخفضت فجوة الأجور حسب بلد المنشأ بوتيرة اكبر. فوصلت الفجوة بين العاملات من النساء الى 1100 كرونة سويدية لصالح النساء من اصول سويدية، اي ما يعادل 5%، اما بين الموظفات tjänstemän فبلغت 300 كرونة سويدية، او ما يعادل 1%، لصالح النساء المولودات في السويد بالمقارنة مع النساء من اصول أجنبية.

إن فرق الأجر بين العاملين المولودين في السويد والخارج بهذه الصورة يعني ان التفاوتات كانت اكبر بين الرجال منها بين النساء حسب الفرع وبلد الميلاد. (لمزيد من التفاصيل انظر الجدول ادناه 6).

- بالنسبة لمعظم الأشخاص الذين يهاجرون إلى السويد، من المحتمل أن يستغرق الأمر بضع سنوات للاستقرار etablera في سوق العمل. ومن المفروض، ان ينعكس هذا في راتب المهاجر، بمعنى أن يزيد الراتب مع عدد السنوات التي يقضيها في السويد. فعلى مستوى العمال، تكون العلاقة بين الراتب وسنة الهجرة واضحة. فمثلا بالنسبة الى أولئك الذين هاجروا منذ الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي بلغ متوسط الراتب ما يقرب من 27000 كرونة سويدية، بينما أولئك الذين هاجروا مؤخرا الى السويد، في عام 2010 ولاحقا، فقد بلغ متوسط الراتب ما يقرب من 23000 كرونة سويدية في العام 2017.

- بالمقابل، تناقصت فجوة الأجور حسب بلد المنشأ تماشياً مع عدد السنوات التي يقضيها الموظف (المولود في الخارج) في السويد كشخص بالغ. واستغرق الأمر – كمتوسط - 16 عاما من الاقامة في السويد لكي يصل العمال المولودون في الخارج إلى نفس متوسط الأجر للعمال من أصول سويدية، وذلك في عام 2017.

وما يثير الانتباه هنا ان الأمر استغرق في عام 2005 حوالي ثماني سنوات بالنسبة للعامل المولود في الخارج ليبلغ نفس

جدول رقم (6)
الراتب الشهري حسب بلد المولد، الفئة والجذر لعام 2017

القطـــــاع	العمال			الموظفون			الاجمالي		
	اناث	ذكور	المجموع	اناث	ذكور	المجموع	اناث	ذكور	المجموع
مجموع القطاعات	24000	27300	25800	35900	43700	39400	30900	35200	33000
من أصول سويدية	24200	27900	26200	3600	44000	39500	31300	36000	33600
من أصول أجنبية	23200	25300	24300	35600	41700	38400	28500	31200	299000

Källa: Mats Larsson, Lönerapport 2019, Löner och löneutveckling år 1913–2018 efter klass och kön, Landsorganisationen i Sverige. Rapporten har utarbetats av LOs Enhet för avtalsfrågor, September 2019, Tabell 4.2, s.37

متوسط الأجر للعمال المولودين في السويد، بينما في عام 2017 استغرق الأمر حوالي 16 عاما، كما اشرنا الى ذلك سابقا.

- وبالنسبة للعاملين (الموظفين والعمال) ايضا، لا يبدو أن هناك علاقة واضحة بين الراتب وعدد السنوات في السويد. ربما يلعب التعليم والخبرة المهنية أهمية أكبر من بلد المنشأ بالنسبة لرواتب المشتغلين من ذوي الياقات البيضاء.

الفروقات تزداد خلال الفترة 2005 - 2017

حسب المعطيات الاحصائية الواردة في تقرير للمركزية النقابية (LO)[7] فان المشتغلين من ذوي اصول اجنبية يكسبون 2000 كرونة سويدية أقل من السويديين الأصليين شهريا.

أما خلال الفترة 2005 – 2017، فقد كانت فجوة الأجور بين الموظفين من ذوي الاصول السويدية وذوي الاصول الاجنبية قد ارتفعت. فقد ازداد متوسط الراتب لجميع المشتغلين من اصول سويدية بنسبة 41% بينما ازداد متوسط الراتب لجميع المشتغلين من ذوي اصول اجنبية بنسبة 37%. وهكذا زادت فجوة الأجور من 9 الى 13% لصالح المشتغلين من اصول سويدية مقارنة بذوي الاصول الاجنبية.

وبنفس القدر ازدادت فجوة الأجور بين العمال والموظفين من ذوي الياقات البيضاء. فعلى مستوى العمال، ارتفع متوسط الأجر للعمال من اصول سويدية بنسبة 37%، أي من 19100 إلى 26200 كرونة. اما بالنسبة للعمال من اصول اجنبية فقد ارتفع متوسط الأجر من 18100 إلى 24300 كرونة سويدية. وهكذا فإن الفرق في متوسط الأجور بين الشريحتين أعلاه قد ارتفع من 6 إلى 8% خلال الفترة 2005-2017.

اما على مستوى الموظفين ، فقد ارتفع متوسط الراتب بنسبة 40% للموظفين من اصول سويدية و 38% للموظفين من اصول اجنبية ، أي ان فجوة الأجور زادت من 1 إلى 3٪ لصالح الموظفين بأجر من اصول سويدية خلال نفس الفترة.

وأيضا ثمة عدد من السنوات في السويد يستغرقها الموظفون من اصول اجنبية كأشخاص بالغين للوصول إلى نفس متوسط الراتب بالنسبة للمشتغلين من اصول سويدية، وخاصة بين العمال.

ففي عام 2005، استغرق الأمر بالنسبة للعمال من اصول سويدية 13 عاما للوصول الى متوسط المرتب من نفس الفئة. في حين انه بالنسبة للعمال من اصول اجنبية ، استغرق الأمر قضاء 21 عاما في السويد للوصول إلى نفس متوسط الراتب، أي ثماني سنوات أطول.

اما في عام 2017، فقد ازداد متوسط الأجر بعد 14 عاما للعمال من اصول سويدية وبعد 30 عاما للعمال من اصول اجنبية. وهكذا زاد الفارق من ثماني سنوات إلى 16 سنة من الوقت الذي يمضيه العمال من اصول اجنبية في السويد للوصول إلى نفس متوسط الأجر بالنسبة للعمال من اصول سويدية.

أما بالنسبة لفئة الموظفين في عام 2017، فقد وصل الموظفون من اصول سويدية إلى متوسط الراتب بعد 21 عاما في حين بالنسبة للموظفين من اصول اجنبية فقد تطلب الامر 19 عاما من الاقامة في السويد للوصول الى متوسط الراتب السائد في هذه الشريحة. في حين، كان الترتيب معكوسا عام 2005

حيث استغرق الأمر 19 عاما بالنسبة للموظفين من اصول سويدية و21 عاما للموظفين من اصول اجنبية.

وإذا كانت هذه المعطيات تعني تحولا لصالح المشتغلين من اصول اجنبية ، إلا انه مع ذلك، من الصعب إثبات هذا على وجه اليقين لأن الاختلافات في كل من 2005 و 2017 كانت صغيرة نسبيا وليست ذات دلالة إحصائية. بل من المرجح أن المشتغلين من اصول سويدية وكذلك من اصول اجنبية، يصلون الى متوسط الراتب في نفس الوقت تقريبا، بعد حوالي 20 عاما في السويد كشخص بالغ، في عامي 2005 و 2017. ولمزيد من التفاصيل انظر الجدول رقم (7) ادناه.

جدول رقم (7)
عدد السنوات للوصول الى متوسط الراتب في السويد حسب الفئة والسنة في عامي 2005 و 2017

	2005				2017			
	متوسط الراتب للمولودين في السويد	عدد السنوات للوصول الى متوسط الراتب			متوسط الراتب للمولودين في السويد	عدد السنوات للوصول الى متوسط الراتب		
		مولود في السويد	مولود في الخارج	الفرق بين الاجنبي والمحلي/سنة		مولود في السويد	مولود في الخارج	الفرق بين الاجنبي والمحلي/سنة
العمـــال	19100	13	21	8	26200	14	30	16
الموظفون	28200	19	21	2	39500	21	19	- 2

Källa: Mats Larsson, Lönerapport 2019, Löner och löneutveckling år 1913–2018 efter klass och kön, Landsorganisationen i Sverige. Rapporten har utarbetats av LOs Enhet för avtalsfrågor, September 2019, Tabell 4.3, s.44

الهوامش:

(1) توماس بيكيتي، رأس المال في القرن الحادي والعشرين، ترجمة وائل جمال وسلمى حسين، القاهرة، التنوير، د. ت، ص 587.
(2) لمزيد من التفاصيل قارن: صالح ياسر، الاقتصاد السياسي لنماذج دولة الرفاه، نسخة الكترونية، 2021.
(3) https://www.mi.se/lon-loneutveckling/loneskillnad-mellan-kvinnor-och-man/ accessed on 5-9-2019
(4) Larsson Mats, "Lönerapport 2019, Löner och löneutveckling år 1913–2018 efter klass och kön, Landsorganisationen i Sverige". Rapporten har utarbetats av LOs Enhet för avtalsfrågor,s.2
(5) Larsson Mats, "Lönerapport (2019). Löner och löneutveckling år 1913–2018 efter klass och kön, Landsorganisationen i Sverige". Rapporten har utarbetats av LOs Enhet för avtalsfrågor, s. 5
(6) Mats Larsson, Lönerapport 2019, Löner och löneutveckling år 1913–2018 efter klass och kön, Landsorganisationen i Sverige, op, cit , s. 3
(7) See: Nilsson, Mårten Martos, "Utlandsfödda tjänar mindre än svenskar". Available on: https://arbetet.se/2006/04/20/utlandsfdda-tjnar-mindre-n-svenskar/(accessed on10-03-2020)

إطار التخطيط والاستثمار والتقييم في العلوم والتكنولوجيا

د. عادل كنيش مطلوب
مستشار علمي سابق
في وزارة العلوم والتكنولوجيا الملغاة

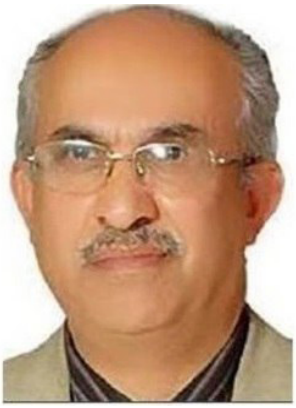

إن الاستثمار في العلوم والتكنولوجيا أصبح في صميم أولويات الدول التي تتصدر العالم تكنولوجيا؛ حيث ساعد في توفير فرص عمل جديدة، وساعد في خفض التضخم لتخفيف تكلفة المعيشة وتوفير الأمن المالي للناس وبناء اقتصاد أقوى مع وظائف أفضل، كذلك ضمان تقديم خدمات صحية متميزة وحصول الناس على الرعاية التي يحتاجون إليها بشكل أسرع. على الرغم من الاختلاف في الخلفيات التقنية والموارد البشرية لبعض الدول، فإنها لا تزال تتفوق على أقرب منافسينا، فكوريا الجنوبية وبريطانيا مثلا دول منافسة رئيسية للولايات المتحدة والصين في العديد من المجالات. ففي بريطانيا توجد 4 من أفضل 10 جامعات في العالم وقطاع تكنولوجيا تبلغ قيمته أكثر من تريليون دولار[1]. إذا جمعت 8 مدن جامعية فقط، فستجد أنها موطن لعدد من الشركات الناشئة التي تبلغ قيمتها مليار دولار أكثر من فرنسا وألمانيا مجتمعتين. لكن، عندما تتحرك فرنسا وألمانيا - بشكل أسرع وأبعد للاستثمار في العلوم والتكنولوجيا، فإن بريطانيا تفعل الشيء نفسه. لهذا السبب أنشأت بريطانيا وزارة خاصة بالعلوم والابتكار والتكنولوجيا، وركزت أفضل عقولها حول مهمة واحدة: أن يصبح الاقتصاد الأكثر ابتكارًا في العالم.

إن دول كثيرة تحاول أن تضمن موقعها كقوى عظمى في العلوم والتكنولوجيا لا لتتحدى التصنيفات فحسب، بل لتترجم فوائد هذا الوضع إلى فوائد مادية لشعوبها. إن المستقبل الأفضل سيكون مدفوعًا بأجرأ التقنيات، سواء كان ذلك يعني استخدام الذكاء الاصطناعي للتنبؤ بموعد فشل المعدات، أو الآلات، أو السماح بالصيانة الاستباقية، أو تقليل وقت التوقف، أو استخدام أجهزة كمبيوتر اللكونتوم لاكتشاف أدوية جديدة منقذة للحياة.

إن إطار العمل العلمي والتكنولوجي هو رؤية استراتيجية؛ ففي بريطانيا، مثلا، حددت

بـعشرة إجراءات رئيسية لتحقيق هذا الهدف بحلول عام 2030، حيث تعمل بريطانيا على جذب أفضل المواهب من جميع أنحاء العالم، وبناء قوة عاملة ماهرة لصناعات الغد، وتوفير البنية الأساسية والاستثمار لجلب التقنيات إلى السوق، وتشجيع البيئة التنظيمية التي تدعم الابتكار. هذه الدول تستخدم كل الرافعات في حكوماتها لتحقيق هذا الهدف، والعمل بشكل وثيق مع قادة الصناعة والأوساط الأكاديمية من دول العالم كافة. لقد عملت كل إدارة رائدة على تطوير خطط عمل لتحقيق أهدافها الاستراتيجية وتحقيق أهدافها بأن تصبح قوة عظمى في مجال العلوم والتكنولوجيا، عبر التركيز الدؤوب على التحسينات الملموسة التي تهم المجتمعات في جميع أنحاء بلدانهم، وتنمية الاقتصاد وتحسين الخدمات العامة لمساعدة شعوبها على العيش لفترة أطول، وأذكى، وأكثر صحة، وسعادة.

ما هو مشترك فيما بين هذه الدول التي أحرزت تقدما كبيرا في معظم القطاعات التكنولوجية، مثل بريطانيا والصين وكوريا الجنوبية، هي منهجية خاصة في إدارة العلوم والتكنولوجيا بإستخدام إطار التخطيط والاستثمار والتقييم (Planning, Investment, Evaluation) الذي يركز على توضيح المواضيع الكبرى التي تتصل بالمجتمع والاقتصاد من منظور العلوم والتكنولوجيا والابتكار.

يركز هذا الإطار بالأساس على نظام الابتكار الوطني (National Innovation System NIS). كما يشمل أيضا نماذج دراسات لحالات التعاون الدولي التي يمكن تطبيقها في بلدانهم.

تجربة كوريا الجنوبية

أنشأت كوريا الجنوبية معهدا لتقييم وتخطيط العلوم والتكنولوجيا يدعى "كيستيب" (Korea Institute of S&T Evaluation and Planning -KISTEP)[2] وهي مؤسسة عالمية متخصصة في التخطيط، والتقييم للعلوم والتكنولوجيا، وتهدف الى خلق قيمة مستقبلية للعلوم والتكنولوجيا. لقد تمكنت كوريا الجنوبية من تحقيق نمو ملحوظ وتقدم واضح في مجال العلوم والتكنولوجيا، وقد لعبت كيستيب أحد الأدوار الحاسمة في هذه العملية. وبخاصة، دورها الرئيسي في:

- أعمال الاستبصار التكنولوجي.
- تخطيط سياسات العلوم والتكنولوجيا.
- تحديد أولويات البحث والتطوير.
- التنسيق ما بين السياسات.
- تخصيص برنامج التنسيق والميزانية.
- ووضع برامج لتقييم البحوث والتطوير.

قامت كيستيب بدورها المحوري في الاستبصار التكنولوجي على مستوى الأمة الكورية، ووضعت الخطط الأساسية للعلوم والتكنولوجيا الوطنية بما في ذلك "الاستراتيجيات الخمسة العليا" وخرائط الطريق الوطنية للتكنولوجيا. كما حددت كيستيب أولويات الاستثمار التي هي مفيدة للغاية لتحقيق الأهداف الإنمائية الوطنية وتشارك في كل خطوة من كل عملية في توزيع الميزانية في برامج البحث والتطوير الوطنية، والسعي إلى تحقيق التوزيع الأمثل لموارد البحث والتطوير. وتقوم كيستيب أيضا، بإجراء تقييمات للبرامج الكبرى—وتتعمق بإدارة ورصد البحث والتطوير للعلوم والتكنولوجيا بما في ذلك "خدمة المعلومات للعلوم والتكنولوجيا الوطنية" و "نظام قاعدة -كي تو-". ومع الخبرة الكبيرة المكتسبة من خلال الخدمات التي تقدمها إلى كوريا الجنوبية، بدأت كيستيب بالتركيز على نشر خبرتها الدولية

وعلى التعاون العالمي في تقييم وتخطيط العلوم والتكنولوجيا. لقد مرت كوريا الجنوبية بنمو اقتصادي ملحوظ خلال العقود الستة الماضية، والتي حولت البلد من بلد زراعي يعاني من الفقر إلى واحد من أقوى الاقتصاديات الآسيوية. إن استراتيجية العلوم والتكنولوجيا الوطنية كانت أحد المحركات التي مكنت من التحول الهائل. وقد بدأت كوريا الجنوبية بتطوير بنيتها التحتية للعلوم والتكنولوجيا في الستينات، عندما أنشأت وزارة العلوم والتكنولوجيا لتنسيق ودعم أنشطتها وواصلت تعزيز موقعها في مجال العلوم والتكنولوجيا كمصدر للقدرة التنافسية الوطنية في السبعينيات والثمانينيات. وركزت مؤخرا على زيادة كفاءة جهود العلوم والتكنولوجيا وتوسيع الاستثمارات في البحوث الأساسية والجوهرية. كانت هناك نظم داعمة لهذا التطور، شملت السياسات المتعلقة بتنمية الموارد البشرية للعلوم والتكنولوجيا، والعوامل الرئيسية لتطويرها، بما في ذلك العلوم الدبلوماسية التي تتعلق بالعلوم. إن مفهوم التخطيط والاستثمار والتقييم قدم نهجاً لإدارة العلوم والتكنولوجيا والتحسين المستمر لأنشطته على جميع المستويات، بما في ذلك السياسات والبرامج والمشاريع. إن هذا النهج يعمل كدورة، هدفها تحديد الأولويات للعلوم والتكنولوجيا الوطنية الأكثر ملاءمة، وتنفيذها بطريقة أكثر فاعلية. ويتم بشكل دوري تقييم الأولويات وتنفيذها. إن نتائج التقييم لها تأثير مباشر على التخطيط لأنشطة العلوم والتكنولوجيا في المستقبل، وعلى تحسين الحالي منها.

تجربة بريطانيا(3)

إنّ الدافع وراء أجندة بريطانيا كقوة عظمى في مجال العلوم والتكنولوجيا بسيط: فالعلوم والتكنولوجيا سيكونان المحرك الرئيسي للازدهار والقوة والأحداث التاريخية في هذا القرن. إن نجاح بريطانيا في المستقبل كدولة غنية وقوية ومؤثرة، يتمتع مواطنوها بالازدهار والأمن، وحياة صحية ومستدامة، سوف يعتمد بالتالي على قدرتها على البناء على نقاط قوتها الحالية في مجال العلوم، والتكنولوجيا، والتمويل، والابتكار.

لن تتحقق هذه الأجندة إلا إذا عمل القطاع العام والمجتمع المدني والأوساط الأكاديمية والصناعة والقطاع الخاص والشركاء الدوليون معًا، وتشارك عامة الناس باستمرار في ضمان عدم اعتبار العلوم والتكنولوجيا على هامش حياة المواطنين.

يعد إطار العمل العلمي والتكنولوجي بمثابة المرساة الاستراتيجية التي ستحققها سياسة حكومتها، والتي ستحاسب الحكومة عليها.

النقاط العشرة في إطار العمل العلمي والتكنولوجي

1. تحديد التقنيات الحرجة من خلال تقييم أكثر من 50 تقنية وفقًا لـ 8 معايير:

- البيئة المستدامة
- الصحة وعلوم الحياة
- الاقتصاد الرقمي
- الأمن القومي والدفاع
- المقارنات الدولية
- القدرة التأسيسية
- إمكانات السوق
- التهديدات والمرونة

بناءً على هذا النهج، تم تحديد مجموعة من 5 تقنيات أساسية.

- الذكاء الاصطناعي (AI) - الآلات التي

تؤدي المهام التي يؤديها الذكاء البشري عادةً، وخاصةً عندما تتعلم الآلات من البيانات كيفية القيام بهذه المهام.
• علم الأحياء الهندسي - تطبيق مبادئ الهندسة الصارمة على تصميم الأنظمة البيولوجية.
• الاتصالات المستقبلية - تطورات البنية الأساسية للبيانات الرقمية والاتصالات.
• أشباه الموصلات - فئة من المواد الإلكترونية ذات خصائص فريدة تقع في قلب الأجهزة والتكنولوجيا التي نستخدمها كل يوم.
• تقنيات اللكونتوم - الأجهزة والأنظمة التي تعتمد على ميكانيكا اللكونتوم، لتوفير قدرات لا تستطيع الآلات "الكلاسيكية" توفيرها.

2. نقاط القوة والطموحات في بريطانيا مبنية على:

• تواصل واضح وموثوق ومتسق لأولويات وإجراءات العلوم والتكنولوجيا الحكومية، مما يزيد من الثقة بين أصحاب المصلحة لإجراء نشاط يدعم أهدافها؛ على غرار ما صنع فيما يعرف بـ "الصين 2025" أو الولايات المتحدة في ستينيات القرن العشرين "لقد اخترنا الذهاب إلى القمر".
• سيدرك أصحاب المصلحة أن الحكومة لديها طموحات واضحة تعمل على تحقيقها.
• بناء شعور بأهداف مشتركة في مجال العلوم والتكنولوجيا يشارك أصحاب المصلحة الرئيسيون في خلقها.
• تعزيز قوة نظم العلوم والتكنولوجيا وطموحاتها على المدى الأبعد.
• تُعَد بريطانيا من بين الدول الثلاث الأولى في العالم والقائدة في أوروبا، بحسب استطلاعات الرأي، في ما يتعلق بقوة نظم العلوم والتكنولوجيا.
• تعمل وزارة العلوم والابتكار والتكنولوجيا ضمن خطة عمل مشتركة بين مؤسسات الدولة بالتعاون مع مكتب مجلس الوزراء ووزارة الأعمال والتجارة.

3. الاستثمار في البحث والتطوير من خلال:

• زيادة استثمار القطاع الخاص في البحث والتطوير حيث خصصت بالفعل لاستثمار 20 مليار جنيه إسترليني في البحث والتطوير في الفترة من 2024 إلى 2025.
• ضمان حصول بريطانيا على التنوع المناسب في المشهد العلمي والتكنولوجي إلى جانب جامعاتها الممتازة، ستعمل على تحسين المنظمات القائمة مثل مؤسسات البحث في القطاع العام ومراكز الأبحاث، والنظر في نماذج جديدة مرنة ومبتكرة مثل منظمات البحث المركزة والدعم العملي للمبتكرين.
• تسريع الترجمة والتسويق وتبادل المعرفة من خلال الدعم المستهدف لمجموعات الابتكار المحلية.
• تقليل البيروقراطية في تمويل البحث والابتكار، مع قيام الممولين بتجربة مناهج جديدة.

4. المواهب والمهارات؛ حيث يجري العمل على:

• إنشاء نظام للمهارات سريع الاستجابة يوفر المهارات اللازمة لدعم قوة عاملة من الطراز العالمي في قطاعات العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات ودفع النمو الاقتصادي.
• توظيف والاحتفاظ بمعلمي التعليم العالي والمدارس في المواد المتعلقة بالعلوم، والتكنولوجيا، والهندسة، والرياضيات.
• توسيع الفرص للمشاركة في العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات، وضمان دخول مجموعة أكثر تنوعًا من الأشخاص إلى

القوى العاملة في العلوم والتكنولوجيا.
• تأسيس ميزة تنافسية راسخة في جذب المواهب الدولية.
• العثور على الجيل القادم من قادة الذكاء الاصطناعي من جميع أنحاء العالم وجذبهم، وتقديم عروض رائعة ومطابقتهم لفرص محددة في المملكة المتحدة.
• إعطاء الناس الفرصة للتدريب وإعادة التدريب وتحسين المهارات طوال حياتهم للاستجابة للاحتياجات المتغيرة؛ باستخدام برامج استشارية مهنية استباقية تنشئ روابط بين التدريب أو التعليم في مجالات العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات في سن 16 والوظائف ذات الأجر الجيد. شملت هذه مبادرات ثورية مثل استحقاق لقرض مدى الحياة، وهو أمر مهم بشكل خاص نظرًا لأن ٪80 من القوى العاملة بحلول عام 2030 ستكون مشاركة في العمل فعليا.

5. تمويل شركات العلوم والتكنولوجيا المبتكرة باتباع ما يأتي:
• زيادة المعروض من الاستثمار المؤسسي لتعميق مجموعة رأس المال المحلي المتاح لتوسيع نطاق شركات العلوم والتكنولوجيا. والاستفادة من مدخري المعاشات التقاعدية من عائدات محتملة أعلى وأن تتمكن الشركات الواعدة من الوصول إلى مصادر محلية لرأس المال للتوسع والبقاء في المملكة المتحدة.
• نظام بيئي لتمويل التوسع، قادر على رعاية الجيل القادم من شركات العلوم والتكنولوجيا التنافسية عالميًا.

6. امتلاك الابتكارات التي تساهم في النمو الاقتصادي عبر:
• سجل حافل بالنجاحات الاستراتيجية في تنفيذ الابتكارات الحالية والمستقبلية من خلال الإشارة بوضوح إلى امتلاك التقنيات التي قامت الحكومة بشرائها لتلبية طموحاتها الخاصة في التقنيات الحيوية.
• تطوير الأعمال والقدرة على المغامرة لدعم شركات العلوم والتكنولوجيا التي تدعم الأهداف الموضوعة، وتشكيل مجموعة من الشراكات مع شركات مبتكرة عالية النمو.
• زيادة الإنفاق من قبل الإدارات على المنتجات والخدمات المبتكرة، بمساعدة جزء محدد من الإنفاق على المشتريات لدعم الابتكار بشكل مباشر.

7. شراكات دولية تدعم التقنيات الحرجة، بالاستفادة من:
• تقديم صندوق الشراكات العلمية الدولية بقيمة 119 مليون جنيه إسترليني لإنشاء عالم أكبر وأفضل مما يمكننا القيام به بمفردنا.
• توصيل أولويات العلوم والتكنولوجيا ونقاط القوة والقيم بوضوح وبشكل متسق إلى جمهور دولي واسع من الحكومات، والأكاديميين، والمستثمرين، والصناعات.
• مجموعة متنوعة وذات أولوية من الشراكات الدولية القائمة على العلوم والتكنولوجيا، بناءً على الروابط القائمة (مثل مجموعة الدول السبع ومجموعة العشرين) والمحددة بأهداف مفيدة للطرفين.
• إتباع نهج منسق للنشاط الدولي في مجال العلوم والتكنولوجيا، والذي من شأنه أن يسهل من الشراكات البحثية والبنية الأساسية طويلة الأجل، واستكشاف أموال التعاون الدولي الجديدة، وإعطاء الأولوية للبحث والتطوير في ميزانية المساعدات الإنمائية الرسمية، ونشر شبكة العلوم والابتكار بشكل فعال.
• شبكة دبلوماسية تتمتع بمعرفة علمية وتقنية قوية وشبكات داخل البلاد، وقيادة تكنولوجية دولية أكبر.
• إنشاء مركز خبرة تكنولوجي في بريطانيا حتى

يتمكن خبراء التكنولوجيا من دعم البلدان النامية لتحويل اقتصاداتها، بما يتماشى مع المبادئ المشتركة.

8. تعزيز وتنسيق البنية التحتية لجذب المواهب والاستثمارات عبر:

• زيادة قدرة البنية التحتية لتحقيق طموحات العلوم والتكنولوجيا من خلال استخدام نهج السندات التجارية عبر جميع مستويات الجاهزية التكنولوجية.

• الوصول إلى مجموعة واسعة من البنية الأساسية للبحث والابتكار في مؤسسات أبحاث القطاع العام.

• ضمان الاستثمار بشكل استراتيجي في البنية الأساسية الدولية ذات الصلة والمهمة التي تدعم الميزة العلمية لبريطانيا (مثل مركز سيرن الدولي، مختبر البيولوجيا الجزيئية الأوروبي)، أو الذي يتماشى مع التقنيات الحرجة، أو تسهل تبادل المعرفة.

• تعزيز البيانات كعامل تمكين حيث يتم تلبية الاحتياجات الرقمية للأوساط الأكاديمية والحكومة والصناعة من خلال البنية الأساسية الرقمية الراسخة بما في ذلك خدمة البيانات المتكاملة لمكتب الإحصاء الوطني، واتفاقيات تبادل البيانات وبروتوكولات الوصول.

9. التنظيم والمعايير:

• نظام تنظيم ومعايير مؤيد للابتكار يسهل تطبيقات العلوم والتكنولوجيا التجارية على نطاق واسع.

• التحرك بسرعة نسبيًا مقارنة بالآخرين لوضع قواعد للتكنولوجيات الحرجة، وعند الاقتضاء، وضع اللوائح لزيادة اليقين للمبتكرين في هذه المجالات.

• الجهود الدولية الرائدة لتشكيل المعايير واللوائح للتكنولوجيات الحرجة.

• وضع نظام المعايير الفنية العالمي الذي يدعم الحوكمة الدولية للتكنولوجيات الحرجة.

• استخدام قدرة الحكومة على مسح الأفق لدعم الجهات التنظيمية للنظر في كيفية تحول التقنيات الناشئة إلى تقنيات حاسمة.

10. تحقيق قطاع عام مبتكر بالسعي الى:

• خلق المهارات والعمل على محو الأمية في مجالات العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات اللازمة لتقديم سياسة العلوم والتكنولوجيا لتحقيق ميزة استراتيجية على جميع مستويات الحكومة.

• تحسين المعرفة والمواهب وتبادل الموارد داخل الحكومة، وبين القطاع العام والأوساط الأكاديمية والشركات.

• مكافأة ودعم النهج المبتكر لتقديم الخدمات داخل القطاع العام.

• زيادة نسبة خريجي العلوم والتكنولوجيا والهندسة والرياضيات من خلال التأهيل السريع إلى 50٪. لقد خصصت بريطانيا 250 مليون جنيه إسترليني لـ "مهام التكنولوجيا" التي تستغل وتدعم الريادة العالمية في ثلاث تقنيات حاسمة، وهي الذكاء الاصطناعي، وتقنيات اللكونتوم، وعلوم الأحياء الهندسي.

بإرشاد من هذا الإطار، يتم الحفاظ والتطوير لنظام بيئي يجذب الاستثمار، وينمي الشركات، والابتكار، وينشر الأبحاث العلمية والتكنولوجية ذات المستوى العالمي من أجل الخير. لكن في نفس الوقت سيتطلب جهودًا متضافرة ومرونة وعقلية موجهة نحو التنفيذ تشمل الحكومة والشركاء خارجها لتقديمها بوتيرة سريعة.

تجربتنا في العراق

أنشأت وزارة العلوم والتكنولوجيا في العراق بعد الاحتلال عام 2003؛ بالاستناد الى حقيقة الدور الذي يمكن أن تلعبه العلوم والتكنولوجيا في ازدهار أي بلد، لكن هذا الإنجاز البناء رُجِمَ من قبل الأحزاب الاسلامية الحاكمة في عام 2015 لأسباب يصعب لأي منصف أن يستوعبها.

مرت تسعة أعوام على إلغاء وزارة العلوم والتكنولوجيا في العراق. الإلغاء الذي تم بقرار من مجلس الوزراء رقم 312 في عام 2015 أثناء رئاسة السيد حيدر العبادي لمجلس الوزراء؛ والسيد العبادي حامل شهادة دكتوراه في الهندسة الميكانيكية من مانشستر في المملكة المتحدة!!! هذا القرار عطل النشاطات العلمية في البلد على شحتها، وشتت كوادر الوزارة العلمية بشكل مدروس ومتعمد، حيث تم توزيع قسم كبير من موظفي الوزارة على بقية مؤسسات الدولة، مثل دوائر الكمارك الحدودية، وقسم شحيح في الدوائر غير التدريسية التابعة الى "وزارة التعليم العالي والبحث العلمي". من المفيد التذكير بالنشاطات التي قامت بها الوزارة قبل قرار الإلغاء للوصول الى الأسباب الحقيقة الخفية، وغير المعلنة، وراء هذا الاجراء. قامت الوزارة خلال عام 2014 بجولة الى كافة محافظات العراق، عدا إقليم كردستان، بمشاركة كادر الوزارة بدءا من الوزير والوكلاء، والمستشارين، والمدراء العامين، والخبراء. كان الغرض من هذه الجولة هي رصد المشاكل الفنية التي تواجه المحافظات والمشاريع التي تسعى المحافظات الى تنفيذها ووضع كافة إمكانات الوزارة الفنية للتعاون مع المحافظات في مجال الاستشارات العلمية وتنفيذ مشاريعهم. كانت حصيلة هذه الجولة هي المئات من الاستشارات العلمية والمشاريع التي كانت تتماشى وقدرات وزارة العلوم والتكنولوجيا لتنفيذها، وفي نفس الوقت توفر الملايين من العملات الصعبة لخزينة الدولة، لتستغل داخليا في بناء القدرات والبنى التحتية، وتدعم العمالة المحلية وتطور من خبراتها. لكن هذه الاستشارات العلمية والمشاريع لو نفذت ستمنع مكاتب الأحزاب الإسلامية، المتنفذة المتواجدة في المحافظات، من الفساد والتلاعب بالمشاريع وتحرمها من ممارسة فسادها المستشري في البلد. جاء رد هذه المكاتب سريعا وخاطفا، كممارساتها المعتادة في الإضرار بكل ما يخدم المصلحة العامة، وهو بإلغاء وزارة العلوم والتكنولوجيا بحجة الترشيق في الهيكل الوظيفي؛ التي هي حجة واهية لأن كل كوادر الوزارة بقوا يتقاضون رواتبهم، لكن من مؤسسات أخرى في الدولة، عدا الوزير الذي تم إنهاء خدماته لحصول خلاف سياسي بينه وبين أحد وكلاء الوزارة المقربين من الأحزاب السياسية الدينية الحاكمة. السؤال الموضوعي والمنطقي هنا، لما لا نستفيد من التجارب الدولية في مجال العلوم والابتكار والتكنولوجيا ونتبنى ما يلائمنا من هذه التجارب ونطوعه بحسب ظروف بلدنا؛ ماذا جنى أبناء شعبنا من جراء إلغاء وزارة العلوم والتكنولوجيا؟ هذا الاجراء الذي حرمنا من استثمار إمكانية كوادرنا العلمية، سواء من هم في الداخل أو في الخارج. إن قدرات هذه الكوادر نحن بأمس الحاجة اليها، لأن جزءا كبيرا من مشاكلنا، بسبب خصوصيتها، يكون حلها من قبل كوادرنا هو الحل الأمثل دائما.

المصادر

1 - UK tech sector reaches $1 trillion valuation | ITPro

2 - KISTEP Korea Institute of S&T Evaluation and Planning

3 - The Green Book (2022) - GOV.UK (www.gov.uk)

قراءة في كتاب
"رأس المال في القرن الحادي والعشرين"

عبد العزيز ججو

يُعَدّ كتاب الاقتصادي الفرنسي توماس بيكيتي رأس المال في القرن الحادي والعشرين أحد أكثر الكتب التي أثارت اهتمامًا عالميًا بين مؤلفات الاقتصاد السياسي الصادرة في العقود الأخيرة، وغالبًا ما يُقارَن بأعمال كارل ماركس وجون مينارد كينز. يعتمد بيكيتي في كتابه على بيانات وأبحاث أُجريت على مدى أكثر من ثلاثة قرون، وبمساهمة أكثر من ثلاثين باحثًا من مختلف دول العالم، بدءًا من القرن السابع عشر وحتى القرن الحادي والعشرين.

في المقدمة

"لا يمكن للتمايزات الاجتماعية أن تقوم إلا على المنفعة العامة"

إعلان حقوق الإنسان والمواطن، المادة 1، 1789، الثورة الفرنسية

تُعَدّ قضية توزيع الثروة من أكثر القضايا المثيرة للجدل في عصرنا. هل يؤدي تراكم رأس المال الخاص إلى تركزه في أيدي قلة، كما اعتقد ماركس في القرن التاسع عشر؟ أم أن التطور الاقتصادي والتنمية بمختلف أشكالها تسهم في تقليل اللامساواة وتعزيز الانسجام بين الطبقات، كما تصور سايمون كوزنتس في القرن العشرين؟ ما الذي تعلمناه من تطورات القرنين الماضيين، وأي اتجاه تسير فيه الأمور؟ (ص 9).

يسعى بيكيتي إلى تقديم تحليل يمتد لثلاثة قرون ويغطي أكثر من عشرين دولة، فضلًا عن طرح إطار نظري جديد لفهم أعمق لآليات توزيع الثروة. لقد نجح الاقتصاد المعاصر في تفادي النبوءة الكارثية لماركس، لكنه لم يغيّر البنية العميقة لرأس المال واللامساواة كما توقع البعض خلال العقود المتفائلة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وهو ما يقوض جذريًا قيم الجدارة التي تقوم عليها المجتمعات الديمقراطية. (ص 9).

الأدب واللامساواة

انعكست اللامساواة في روايات بلزاك وجين

أوستن (1790–1830)، التي قدمت تصورًا دقيقًا لهرم الثروة في بريطانيا وفرنسا، ودورها الخفي في حياة الرجال والنساء، وهو منظور لا يمكن لأي تحليل إحصائي أن ينقله بذات الدقة. إن توزيع الثروة مسألة في غاية الأهمية، بحيث لا يمكن تركها للاقتصاديين والمؤرخين والفلاسفة وحدهم، إذ إنها تمس الجميع. فاللامساواة المادية واضحة للجميع بالعين المجردة، مما يولّد أحكامًا سياسية متناقضة؛ إذ يرى الفلاح والنبيل، والعامل وصاحب المصنع، العالم من مواقع مختلفة، وهو ما يغذي الصراعات السياسية التي لا يمكن إسكاتها بتحليلات "جمهورية الخبراء" التي تحاول أن تحل محل الديمقراطية. لذا، فإن مسألة توزيع الثروة تستحق دراسة منهجية دقيقة، بعيدًا عن الأحكام المطلقة. (ص 10).

نظريات التفاوت الاقتصادي عبر التاريخ

في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، أصبح توزيع الثروة قضية جوهرية بسبب التغيرات العميقة في البنية الاجتماعية والاقتصادية وتأثيرها على التوازن السياسي الأوروبي. كان النمو السكاني، وفقًا لمالثوس، هو التهديد الرئيسي. أما ريكاردو وماركس، الأكثر تأثيرًا في القرن التاسع عشر، فقد توقعا أن ملاك الأراضي والرأسماليين الصناعيين سيطالبون بنصيب متزايد من الدخل، مما سيؤدي إلى تراجع نصيب بقية السكان. لكن الواقع خالف هذه التوقعات، إذ انهارت أسعار الأراضي بدلًا من ارتفاعها. ومع ذلك، فإن فكرة الندرة لم تندثر، بل تحوّلت من الأراضي إلى العقارات في المدن والنفط في العقود الأخيرة (ص12).

أما ماركس، في كتابه رأس المال عام (1867) فقد ركّز على القوى المحركة للرأسمالية الصناعية، وليس على الندرة الزراعية. ورأى أن نمو الاقتصاد زاد من بؤس الطبقة العاملة مقارنةً بالعمال الزراعيين، مما أدى إلى قصر أعمارهم، كما انعكس ذلك في روايات البؤساء وجيرمينال وأوليفر تويست، وأيضًا في كتاب إنجلس أوضاع الطبقة العاملة في إنكلترا (1845). ومع استمرار ارتفاع مستويات اللامساواة، بدأ التساؤل حول فائدة التقدم الصناعي إذا كان يؤدي إلى تدهور أوضاع الجماهير، مما أسهم في صعود الحركات الاشتراكية والشيوعية (ص15).

لقد كان ماركس مقتنعًا بأن الرأسمالية تنتج حفاري قبرها، وأن انهيارها وانتصار البروليتاريا أمران حتميان. وقد ميز نفسه عن الاقتصاديين السابقين مثل آدم سميث وريكاردو وجان بابتيست ساي، حيث رأى أن تراكم رأس المال الصناعي لا حدود له، مما سيؤدي إما إلى تراجع مستمر في معدل الربح وتصاعد التنافس بين الرأسماليين، أو إلى استحواذ رأس المال على نصيب متزايد من الدخل القومي، مما سيؤدي في النهاية إلى ثورة العمال. غير أن نبوءة ماركس لم تتحقق، إذ شهدت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ارتفاعًا طفيفًا في الأجور، رغم استمرار التفاوتات الكبيرة. كما أن الشيوعية لم تظهر في أقوى الاقتصادات الرأسمالية، بل في أضعف حلقاتها (ص 18).

"أهمل ماركس قوتين كانتا، إلى حد ما، قادرتين على تشكيل ثقل مضاد لعملية تراكم رأس المال الخاص. كان السبب في ذلك هو عدم توفر البيانات لدى ماركس. رغم ذلك،

يبقى تحليل ماركس ساريًا في العديد من الجوانب. فكرة التراكم التي قدمها ماركس ما زالت سارية المفعول اليوم كما كانت في السابق. رغم أن قلة النمو السكاني لا يمكن أن توازن التراكم اللانهائي لرأس المال وفقًا لماركس، إلا أن هذا يبقى مقلقًا "(ص 19).

اللامساواة في القرن العشرين

خلال القرن العشرين، قدم سايمون كوزنتس رؤية مختلفة، حيث اعتقد أن اللامساواة في الدخل ستتراجع تلقائيًا في المراحل المتقدمة من الرأسمالية، بغض النظر عن السياسات الاقتصادية أو الفوارق بين الدول. وفي عام 1955، طرح كوزنتس ما يُعرف بـ"فرضية المنحنى"، والتي تنص على أن اللامساواة تزداد في البداية مع النمو الاقتصادي، لكنها تنخفض لاحقًا، متبعةً منحنى على شكل ∩. وقد استندت نظريته إلى بيانات إحصائية من الولايات المتحدة على مدى 35 عامًا (ص 22).

لكن نتائج الأبحاث الحديثة تدعو إلى الحذر من الحتمية الاقتصادية فيما يتعلق بتفاوت الثروة. إذ لم يكن انخفاض اللامساواة بين عامي 1910 و1950 نتيجة تطور طبيعي، بل جاء بسبب تأثير الحروب وسياسات التكيف مع صدماتها. وبذلك، تظل اللامساواة ناتجًا مشتركًا لكل الفاعلين في المجتمع، وتخضع لعوامل سياسية واجتماعية بقدر ما تخضع لعوامل اقتصادية (ص 29).

هل المعرفة والمهارات قادرة على تقليص التفاوت؟

يُقال إن انتشار المعرفة والمهارات هو العامل الأهم في تقليل اللامساواة داخل الدول وبينها، كما يتجلى ذلك في النمو الاقتصادي لدول مثل الصين. ومع ذلك، فإن تأثير هذا العامل يظل محدودًا مقارنةً بالقوى الاقتصادية التي تدفع نحو مزيد من التفاوت، مثل تركز الثروة عندما يكون النمو الاقتصادي ضعيفًا وعائد رأس المال مرتفعًا.

تشير البيانات إلى أن أغنى 10% من السكان في الولايات المتحدة امتلكوا بين 45% و50% من الثروة في العقدين الأولين من القرن العشرين، ثم تراجعت النسبة إلى 35%-30% في أواخر الأربعينيات واستقرت حتى السبعينيات، قبل أن تبدأ في الارتفاع مجددًا في الثمانينيات، حتى عادت إلى مستوياتها السابقة بحلول عام 2000. هذا يثير تساؤلًا جوهريًا: هل سيستمر هذا الاتجاه التصاعدي في اللامساواة؟ وهل تُعزى هذه الزيادة إلى الكفاءة والمهارات الإنتاجية لأولئك الذين يتقاضون أجورًا مرتفعة، أم أن السبب هو قدرتهم على تحديد مكافآتهم بأنفسهم، بغضّ النظر عن إنتاجيتهم الحقيقية (ص 30).

قوة التباعد والتقارب

تعمل قوة التباعد وفق معادلة بسيطة لكن ذات تأثير بالغ: عندما يكون العائد على المال أعلى من تقدم الإنتاج والدخل، يتسع الفارق بين من يملكون الأصول ومن يعتمدون على العمل كمصدر وحيد للعيش. عندما يتفوق العائد على المال بشكل دائم على النمو الاقتصادي، يتحول التفاوت إلى مسار ثابت يتسع مع الوقت، مما يؤدي إلى تراكم الثروة في القمة وتقلص حصّة باقي المجتمع.

في أوروبا، كانت الثروة الخاصة الإجمالية في نهاية القرن التاسع عشر تتراوح بين ستة

إلى سبعة أضعاف الدخل القومي. لكن بعد الحرب العالمية الأولى، انخفضت نسبة رأس المال إلى الدخل إلى ضعفين أو ثلاثة، لتبدأ بالارتفاع مجددًا منذ الخمسينيات، وصولًا إلى خمسة أو ستة أضعاف الدخل القومي في أوائل القرن الحادي والعشرين في فرنسا وبريطانيا. إذا استمر العائد على رأس المال أعلى من نمو الاقتصاد، سيزداد التفاوت بشكل كبير، مما يهدد قيم العدالة الاجتماعية. تساهم عوامل مثل ارتفاع معدلات الادخار أو زيادة العائد الفعلي على رأس المال في تعزيز التباعد الهيكلي.

على الرغم من وجود قوى تقارب، إلا أن قوى التباعد تظل الأقوى في الوقت الحالي. الحل يكمن في تبني سياسات مضادة مثل فرض ضرائب تصاعدية على رأس المال، لكن تأثيرها قد يكون محدودًا.

تقتصر الدراسة على الفترات التي تتوافر فيها البيانات، مع التركيز على الدول الغنية والفقيرة والناشئة. تم تحليل العلاقة بين فرنسا وبريطانيا واستعمار الدول الأخرى خلال "العولمة الأولى" (1870-1914)، حيث بلغ التفاوت مستويات هائلة. أسواق الأسهم في القرن الحادي والعشرين لم تصل إلى نفس النسب التي كانت في باريس ولندن في تلك الفترة (ص 36).

أحد المصادر المهمة لدراسة فرنسا هو هيكلة الثروة التي وُثّقت بتفاصيل دقيقة منذ تسعينيات القرن الثامن عشر. كما أن النمو السكاني المنخفض في فرنسا مقارنة بأمريكا له دلالات مهمة؛ فبينما تضاعف عدد سكان فرنسا خلال قرنين من الزمن (من 30 إلى 60 مليون نسمة)، زاد عدد سكان الولايات المتحدة بمئة ضعف. ومن الضروري النظر إلى الثورة البرجوازية الفرنسية، التي أرسَت بسرعة أسس المساواة القانونية في علاقتها بالسوق (ص 37).

منذ السبعينيات، فقدت العلوم الاجتماعية اهتمامها إلى حد كبير بدراسة توزيع الثروة وقضايا الطبقات الاجتماعية، رغم أن هذه الإحصاءات كانت تلعب دورًا مهمًا في البحث التاريخي والاجتماعي. فالمفاهيم المجردة مثل الدخل، ورأس المال، ومعدل النمو الاقتصادي، والعائد على رأس المال، ليست مجرد حقائق رياضية مؤكدة، بل هي أدوات نظرية تساعد في تحليل الواقع التاريخي.

تمثل المنحنيات نسبة رأس المال إلى الدخل في عدة دول أوروبية، إضافة إلى اليابان. ومن الممكن، في نهاية المطاف، أن تتحد قوى التباعد في القرن الحادي والعشرين لتزيد من حدة عدم المساواة، بل وتخلق أنماطًا جديدة من التفاوت الجذري. ومع ذلك، هناك ظاهرتان مختلفتان يجب التمييز بينهما. وهو تغيير لافت للنظر. والسؤال الذي يطرح نفسه: إلى أي مدى يمكن أن يستمر هذا الاتجاه؟

تُكتب المتباينة الأساسية بين معدل العائد السنوي على رأس المال، شاملاً الأرباح، والتوزيعات، والفوائد، والريع، وجميع الدخول الأخرى الناتجة عن رأس المال، معبرًا عنها كنسبة من قيمته الإجمالية. معدل النمو الاقتصادي، أي الزيادة السنوية في الدخل أو الناتج.

إن إطلاق الرصاص على عمال مناجم البلاتين المُضربين في جنوب أفريقيا عام 2012 للمطالبة بزيادة أجورهم بنسبة 100%، مما أسفر عن مقتل 34 عاملًا وإصابة آخرين، ثم قيام الشركة لاحقًا بعرض

زيادة بنسبة 1.5% فقط، يذكرنا دوماً بتاريخ توزيع الدخل بين العمل ورأس المال. لقد كان هذا التوزيع في قلب الصراع الاجتماعي وأساس التفاوت الاقتصادي، وهو تفاوت تفاقم مع الثورة الصناعية، ربما بسبب تركز الإنتاج واستغلال الموارد الطبيعية.

تم إطلاق النار على العمال المضربين في أيار 1886 في شيكاغو، ثم في أيار 1891 في شمال فرنسا، حين كانوا يطالبون بزيادة الأجور. وهنا يبرز السؤال: هل أصبح هذا الأمر من الماضي، أم أنه سيستمر في القرن الحادي والعشرين؟ يتساءل الكاتب. لم يكن إضراب عمال المناجم مرتبطًا فقط بالأرباح الطائلة التي حققتها الشركة والمساهمون، بل كان أيضًا رد فعل على الفوارق الشاسعة بين أجور العمال والمرتبات الخيالية للمدراء.

منذ القرن الثامن عشر، اعتقد الاقتصاديون أن توزيع الدخل بين العمل ورأس المال مستقر نسبيًا، حيث يحصل العمل على ثلثي الدخل القومي، ويذهب الثلث إلى رأس المال. لكن بيانات القرن العشرين كشفت عن تحولات كبيرة بفعل الحروب (1914–1945)، والثورة البلشفية، والكساد الكبير، إضافة إلى السياسات الضريبية في الخمسينيات التي قلّصت من حصة رأس المال.

غير أن رأس المال استعاد نفوذه مع "الثورة المحافظة" بقيادة تاتشر وريغان، ثم تسارع هذا الاتجاه بانهيار الاتحاد السوفييتي وتحرير الأسواق في التسعينيات. في هذا السياق، تحوّل مفهوم رأس المال من العقارات إلى الأصول الصناعية والمالية.

مع ظهور "رأس المال البشري"، كان متوقعًا أن تزداد حصة العمل، لكن البيانات الحديثة تُظهر ضعفها في العقود الأولى من القرن الحادي والعشرين. وإذا استُثني رأس المال البشري، فإن نصيب العمل من الدخل يعود إلى مستويات القرن التاسع عشر. ويظل التفاوت ظاهرة داخلية بالأساس، حيث تُعمّق ملكية رأس المال الفجوة بين الأغنياء والفقراء في البلد الواحد، أكثر من كونها فجوة بين الدول.

لكن تطرح العولمة سؤالًا حاسمًا: ماذا يحدث عندما تصبح بعض الدول مدينة لدول أخرى بشكل مفرط، ويقترب صافي أصولها من الصفر؟

يُحتسب الدخل القومي على النحو التالي:

الدخل القومي = الناتج القومي + صافي الدخل من الخارج

وعلى المستوى العالمي:

الدخل العالمي = الناتج العالمي (ص53).

أما رأس المال، فهو يشمل جميع الأصول غير البشرية القابلة للملكية والتداول، كالمعدات، والعقارات، والأصول المالية، ويُستثنى منه ما يُعرف بـ"رأس المال البشري". ففي عام 2010، ورغم ارتفاع متوسط الدخل الفردي في الدول الغنية، لم يكن هذا التوزيع عادلًا، إذ يكسب البعض أقل بكثير، بينما يجني آخرون أضعافًا بسبب تراكم الثروة وتفاوت الأجور. يدفع المواطنون عادةً ثلث إلى نصف دخلهم كضرائب لتمويل الخدمات العامة. لكن يبقى السؤال الأساسي:

ما هو رأس المال؟

باختصار، سواء كنا نتحدث عن الحسابات على مستوى شركة أو دولة أو الاقتصاد العالمي، يمكن تقسيم إجمالي الإنتاج والدخل إلى مجموع دخل رأس المال ودخل العمل (الدخل المكتسب من العمل).

الدخل القومي = دخل رأس المال + دخل العمل

هنا، لا يشمل رأس المال ما يسميه الاقتصاديون "رأس المال البشري"، أي المهارات والقوى العاملة للأفراد. بل يشير إلى مجموع الأصول غير البشرية القابلة للملكية والتداول، مثل رأس المال المالي والمعدات الإنتاجية التي تستخدمها الشركات والوكالات الحكومية، بالإضافة إلى رأس المال الخاص والعام. يتغير تعريف ما يمكن امتلاكه بمرور الزمن وفقًا لمراحل التنمية والعلاقات الاجتماعية في كل مجتمع، إذ تسعى بعض المصالح الخاصة إلى امتلاك أصول في الجو، والبحر، والجبال، وحتى الآثار، مما يجعل مفهوم رأس المال غير ثابت (ص 55).

في أغلب الدول المتقدمة اليوم، تكاد الثروة العامة تكون معدومة أو سالبة بسبب ارتفاع الديون، بينما تُشكّل الثروة الخاصة الجزء الأكبر من الثروة القومية

الثروة القومية = الثروة الخاصة + الثروة العامة

ويمكن تفكيك الثروة القومية إلى رأس مال محلي ورأس مال أجنبي:

الثروة القومية = رأس المال المحلي + صافي رأس المال الأجنبي

حيث يمثل صافي رأس المال الأجنبي الفرق بين الأصول التي يملكها المواطنون في الخارج، وتلك التي يملكها الأجانب في الداخل.

عشية الحرب العالمية الأولى، كانت بريطانيا وفرنسا تملكان فوائض كبيرة في الأصول الخارجية. أما في عصر العولمة منذ الثمانينيات، فتقاربت موازين الأصول بين الدول، رغم استمرار ضخامة حجم الأصول المتبادلة (ص 57 - 58).

نسبة رأس المال/ الدخل

يشير الدخل إلى تدفق الإنتاج خلال فترة زمنية معينة (عادة سنة)، بينما يمثل رأس المال المخزون التراكمي للثروة في لحظة زمنية محددة، ويمكن قياسه كنسبة من الدخل القومي. في الدول المتقدمة، تتراوح هذه النسبة بين 5 و6، حيث يكون معظم رأس المال مملوكًا للقطاع الخاص. فعلى سبيل المثال، في عام 2010، بلغ متوسط دخل الفرد القومي في هذه الدول 35-30 ألف يورو سنويًا، بينما تراوحت الثروة الخاصة بين 200-150 ألف يورو للفرد، أي خمسة إلى ستة أضعاف الدخل السنوي. لكن هذا المتوسط لا يعكس التوزيع الحقيقي، إذ يكسب البعض أقل بكثير، بينما يمتلك آخرون ملايين أو حتى عشرات الملايين. لذا، فإن نسبة رأس المال إلى الدخل لا تخبرنا بشيء عن التفاوت الاقتصادي (ص 59).

التوزيع العالمي للإنتاج

بين عامي 1900 و1980، كانت أوروبا وأمريكا الشمالية تسيطران على 80-70% من الإنتاج العالمي للسلع والخدمات. إلا أن هذه الحصة تراجعت بحلول عام 2010 إلى 50%، وهو تقريبًا نفس المستوى الذي كانت عليه في عام 1860. ومن المرجح أن تستمر هذه الحصة في التراجع، لتصل إلى 30-20% في مرحلة ما من القرن الحادي والعشرين، ما لم يحدث تحول مفاجئ، مثل انتكاسة اقتصادية في الصين. وهذه العودة إلى مستويات ما قبل الثورة الصناعية تعني

أن الغرب تمكن، عبر التصنيع، من تحقيق إنتاج يعادل ضعفين أو ثلاثة أضعاف حصته السكانية من الناتج العالمي (ص 68).

اللامساواة العالمية

يتراوح دخل الفرد بين 150 يورو إلى 3000 يورو شهريًا. أدنى مستويات الدخل توجد في جنوب الصحراء الكبرى والهند، حيث يتراوح بين 150 و250 يورو شهريًا، بينما يصل إلى 3000-2500 يورو شهريًا في أوروبا وأمريكا واليابان، أي بين عشرة إلى عشرين ضعفًا من الدخل في البلدان الفقيرة. أما المعدل العالمي، وهو قريب من المعدل الصيني، فيتراوح بين 600 و800 يورو شهريًا، مع وجود هامش كبير للخطأ في هذه الأرقام. إذا تم استخدام أسعار الصرف الحالية، ستظهر اللامساواة بشكل أكبر نظرًا لتأثرها بالسياسات والاستثمارات (ص 71 - 72).

التوزيع العالمي للدخل مقارنة بالناتج المحلي

توزيع الدخل عالميًا أكثر تفاوتًا من توزيع الناتج المحلي. الدول ذات الإنتاج المرتفع لا تكتفي بإنتاجها، بل تملك أيضًا حصصًا من رأسمال الدول الأخرى، ما يتيح لها جني دخل خارجي إضافي. وبهذا، يصبح نصيب الفرد من الدخل القومي في الدول الغنية أعلى من نصيبه من الناتج المحلي، فيما يحدث العكس في الدول الفقيرة. تشكّل هذه الظاهرة رافعة للدخل القومي في دول مثل اليابان وألمانيا، حيث يزيد دخل الفرد بنحو 5% عن ناتجه، وتبلغ حصة رأس المال في الدخل نحو 30%، منها 20% مملوكة لمستثمرين أجانب (ص 76).

القوى المعززة للتقارب بين الدول

في عام 1913، امتلكت أمريكا وبريطانيا وفرنسا، إلى حد ما ألمانيا، بين ثلث ونصف الرأسمال المحلي في آسيا وإفريقيا، وأكثر من ثلاثة أرباع رأس المال الصناعي في تلك المناطق. رغم ما تفترضه النظريات الكلاسيكية، لم يؤدِّ الاستثمار الأجنبي في الدول الفقيرة دائمًا إلى تضييق الفجوة مع الدول الغنية. في حالات كثيرة، كما في إفريقيا، ساهم امتلاك المستثمرين الأجانب لجزء كبير من الناتج في ترسيخ التفاوت بدلًا من الحدّ منه.

التجربة التاريخية تُظهر أن النمو الحقيقي تحقق حين اعتمدت الدول على تمويل محلي، كما فعلت الصين وكوريا، إلى جانب استثمار كثيف في التعليم والمهارات. أما الدول التي خضعت للاستعمار أو راهنت على رأس المال الأجنبي فكانت أقل نجاحًا (ص 78).

تشير الدراسات إلى أن المعرفة، لا المال وحده، كانت العامل الحاسم في تقليص الفجوة. فالتجارة الحرة لم تفد الجميع بالتساوي، بل استفاد منها من امتلك أدوات الإنتاج المعرفي. هذه الأدوات لا تُمنح، بل تُكتسب من خلال استثمار منهجي في التعليم والتدريب، وضمان بيئة قانونية مستقرة (ص 80).

تشير البيانات إلى أن تركز الدخل والثروة لم يتعافَ تمامًا من صدمات 1914–1945، حيث انخفض نصيب أعلى 1٪ بين 1950 و1970، قبل أن يعاود الارتفاع بعد 1980. ومع العولمة، لم يعد من الممكن الاكتفاء بقياس هذه الفروقات على مستوى الدول، بل بات ضروريًا النظر إليها عالميًا (ص 107). يرتبط تراكم الثروة بالنمو الاقتصادي البطيء

مقارنةً بأرباح المال، وبالانتقال الوراثي للثروة قبل القرن الثامن عشر، حين كان دخل الأصول يمثل ٪40 من الناتج، وكان ادخار ٪10 كافيًا لزيادة التركز. وقد أدى النظام الضريبي بعد الحرب العالمية الثانية إلى تراجع هذا التفاوت مؤقتًا.

بين اعوام 1987 و2011، ارتفع عدد أصحاب المليارات من 140 إلى 1400، وارتفعت ثرواتهم من 300 إلى 5400 مليار دولار، في وقت بلغ فيه الناتج المحلي العالمي 85,000 مليار (ص 445).

خلال الفترة ما بين عامي 1970 و2010، برزت العلاقة بين الادخار الوطني (الخاص والعام) بوضوح، لا سيما في الدول الصناعية. فعلى سبيل المثال، بلغ معدل الادخار الخاص في إيطاليا نحو 15%، بينما سجّل الادخار العام فيها معدّلًا سلبيًا قدره – 6.5%. أما في اليابان، فكان القطاع العام هو الاستثناء الوحيد بين تلك الدول، حيث بلغ معدل ادخاره 0.1%، في حين سجّلت بقية الدول الصناعية معدلات سالبة في ادخار القطاع العام (ص 196).

خلاصة القول: في اقتصاد السوق القائم على الملكية الخاصة، تسهم المعرفة والتعليم في تقليص الفجوة، لكن تفوق أرباح المال على نمو الدخل يدفع نحو اتساع التفاوت، ما يهدد قيم العدالة والاستقرار. إذ يميل المال المتراكم إلى أن ينمو أسرع من الناتج، ما يُحوِّل صاحب العمل إلى مالك ريع، ويعمّق تبعية من لا يملك سوى قوة عمله. ولتحقيق التوازن، يجب أن يكون نمو الناتج 4–5% سنويًا ولمدة طويلة.

الكتاب: توماس بيكيتي، رأس المال في القرن الحادي والعشرين، ترجمة وائل جمال وسلمى حسين، القاهرة، التنوير، د. ت، عدد الصفحات 653.

نقد الخطاب الديني

د. مجيد إبراهيم خليل

نصر حامد أبو زيد (1943-2010) مفكر مصري متخصص في الدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية متعمق في دراسة النص القرآني وتأويله. أصدر كثيرا من الأعمال منها: إشكاليات القراءة والتأويل، مفهوم النص، الخطاب والتأويل. أصدر كتاب "نقد الخطاب الديني" عام 1992 وقدم فيه قراءة نقدية للخطاب الديني المعاصر. وبسبب مضامين الكتاب واجه الكاتب حملة شرسة من خصومه، واتهم بسبب أبحاثه بالردة والإلحاد، وفرّقت محكمة الأحوال الشخصية بين المؤلف وزوجته على أساس أنه لا يجوز للمرأة المسلمة الزواج من غير المسلم. اضطر إلى مغادرة مصر 1995 والهجرة إلى هولندا، مواصلا عطاءه الفكري الذي لم ينقطع حتى رحيله عن عالمنا.

ونعرض هنا الكتاب في طبعته الثانية الصادرة عن دار سينا، القاهرة، عام 1994، ويقع في 225 صفحة من القطع المتوسط. وقد تصدرها تمهيد طويل بعنوان "تعليق على ما حدث" ناقش فيه ما أثير من اعتراضات واتهامات على الكتاب ومؤلفه وردّه عليها. يتضمن الكتاب مقدمتين، وثلاثة فصول. عرض المؤلف في الفصل الأول: الخطاب الديني المعاصر، آلياته ومنطلقاته الفكرية. وطرح في الفصل الثاني: قراءة نقدية في مشروع اليسار الإسلامي. وعالج

في الفصل الثالث: قراءة النصوص الدينية، دراسة استكشافية لأنماط الدلالة.

استرعت الكاتب ظاهرة المد الديني الإسلامي في تسعينيات القرن الماضي، ورأى أن الاتجاهات العامة للدراسات والأبحاث بشأنها ثلاث، الأول: اتجاه المؤسسة الدينية الرسمية للدولة، ممثلة في الأزهر، وبعض رجال الدين الذين يصنفون في صفوف المعارضة الدينية، الثاني: الاتجاه الذي تعامل مع الظاهرة بوصفها تعبيرا حضاريا عن واقع جديد يرفض التبعية والهيمنة الغربية، وممثلو هذا الاتجاه ينتمون إلى تيار اليسار السياسي والفكري. الثالث: اتجاه الرافضين لمشروع "الإسلام هو الحل"، لعلّ أبرز ممثليه "التنويريون" ويطلق عليهم أيضا

"العلمانيون". إن المعركة في نظر الباحث هي معركة قراءة النصوص الدينية، طبقا لآليات العقل الإنساني التاريخي، لا العقل الغيبي الغارق في الخرافة والأسطورة. وهي ليست مجرد معركة حول قراءة النصوص الدينية أو حول تأويلها، بل هي معركة شاملة تدور على جميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. ويطرح المؤلف مشروعا استكشافيا هو: تحديد طبيعة النص الديني وآلياته في إنتاج الدلالة، تخلصا من عقدة التأويل والتأويل المضاد، لأن النزال بين قوى التقدم والعقلانية وقوى الأسطورة والخرافة يتم غالبا بآليات السجال الإيديولوجي دون البدء في تحقيق وعي علمي بطبيعة النصوص الدينية، وبطرائق قراءتها، ولهذا تظل الغلبة في هذا السجال للديني على العقلاني. إن الدين -وليس الإسلام وحده- يجب أن يكون عنصرا أساسيا في أي مشروع للنهضة. والخلاف حول المقصود من الدين؛ هل هو كما يطرح ويمارس بشكل أيديولوجي نفعي من جانب اليمين واليسار على السواء، أم الدين بعد تحليله وفهمه وتأويله تأويلا علميا ينفي منه الأسطورة، ويستبقي ما فيه من قوة دافعة نحو التقدم والعدل والحرية (ص 61 - 64).

الخطاب الديني المعاصر، آلياته ومنطلقاته الفكرية

تعتمد الدراسة في الفصل الأول مجمل الخطاب الديني موضوعا لها دون التفريق بين "المعتدل" و"المتطرف" فالفارق بين هذين النمطين من الخطاب فارق في الدرجة لا النوع، ويتجلى تطابقهما في اعتماد نمطي الخطابة على عناصر أساسية غير قابلة للنقاش أو المساومة، أهمها عنصران: النص والحاكمية. وكما يتطابق نمطا الخطاب من حيث المنطلقات الفكرية يتطابقان كذلك في الآليات. ويطرح المؤلف الآتي:

أولا: آليات الخطاب

1 - التوحيد بين الفكر والدين: منذ اللحظات الأولى في التاريخ الإسلامي كان ثمة إدراك مستقر أن للنصوص الدينية مجالات فعاليتها الخاصة، وأن ثمة مجالات أخرى تخضع لفعالية العقل البشري والخبرة الإنسانية. والخطاب الديني يمد فعاليته إلى كل المجالات، ويوحّد بطريقة آلية بين هذه النصوص وبين قراءته وفهمه لها، ويقوم بإلغاء المسافة المعرفية بين الذات والموضوع، ويدعي القدرة على الوصول إلى القصد الإلهي في النص، أي الحديث باسم الله. الخطاب الديني يبدو وكأنه يصدر عن مسلّمات لا تقبل النقاش، فالجميع يتحدثون عن الإسلام دون أن يخامر أحدهم أدنى تردد أنه يطرح فهمه للإسلام أو لنصوصه، وحتى الاستناد لآراء القدماء واجتهاداتهم أصبح استنادا إلى الإسلام (ص 78 - 79).

2 - ردّ الظواهر إلى مبدأ واحد: يعتمد الخطاب الديني في توظيفه لهذه الآلية على ذلك الشعور الديني العادي، فيوظفها على أساس أنها إحدى مسلّمات العقيدة التي لا تناقش. كل العقائد تؤمن بأن العالم مدين في وجوده إلى علة أولى أو مبدأ أول- هو الله في الإسلام- والخطاب الديني يقوم بتفسير كل الظواهر الطبيعية والاجتماعية بردّها إلى ذلك المبدأ الأول. فهو يقوم بإحلال "الله" في الواقع العيني المباشر. وفي هذا الإحلال يتم تلقائيا نفي الإنسان ويتم إلغاء القوانين

الطبيعية والاجتماعية ومصادرة أي معرفة لا سند لها من الخطاب الديني (ص 81).

3 - الاعتماد على سلطة "التراث" و"السلف": توظف هذه الآلية عن طريق تحويل أقوال السلف واجتهاداتهم إلى "نصوص" لا تقبل النقاش أو إعادة النظر وصولا إلى التوحيد بين تلك الاجتهادات وبين الدين في ذاته. يتجاهل الخطاب الديني جانبا آخر من التراث، مستبعدا منه "العقلي" ليكرس الرجعي المتخلف. وهو موقف نفعي إيديولوجي، كما أن الطرف الآخر يستخدم نفس السلاح، مستندا إلى العقل المستنير في التراث، متصورا أنه يستطيع هزيمته بنفس السلاح (ص 85).

4 - اليقين الذهني والحسم الفكري: تتلاحم هذه الآلية مع آلية التوحيد بين الفكر والدين. والتلاحم بين الآليتين في الخطاب يقود أصحابه إلى تجهيل الخصوم أو تكفيرهم. وهذا الخطاب لا يتحمل أي خلاف جذري، فهو يزعم امتلاكه الحقيقة المطلقة الشاملة. و حين يزعم امتلاكه وحده الحقيقة يحتمي بدعوى الحقيقة المطلقة التي يمثلها، ويلجأ إلى لغة اليقين والقطع. يفترض الخطاب الديني أن الإسلام تمّ عزله وإقصاؤه عن حركة الواقع، وعلى هذا الافتراض يتم تحديد المشاكل ويرى في العودة إلى الإسلام حلا لكل تلك المشاكل. وهكذا تبدو القضية بديهية بالنسبة له ولا ينشغل بطرح التساؤلات: لماذا، كيف، متى تم إقصاء الإسلام عن واقع المجتمعات الإسلامية (ص 90).

5 - إهدار البعد التاريخي: تبدو هذه الآلية واضحة في وهم التطابق بين المعنى الإنساني -الاجتهاد الفكري- الآني، وبين النصوص الأصلية. ويؤدي التوحيد بين الفكر والدين إلى التوحيد مباشرة بين الإنساني والإلهي، وإضفاء صفة القداسة على الزماني والإنساني. تبدو هذه الآلية واضحة كذلك في تصور التطابق بين مشكلات الحاضر وهمومه، وبين مشكلات الماضي وهمومه وافتراض صلاحية حلول الماضي للتطبيق على الحاضر. إن رد كل أزمة من أزمات الواقع في المجتمعات الإسلامية إلى البعد عن منهج الله هو في الحقيقة عجز عن التعامل مع الحقائق التاريخية وإلقاؤها في دائرة الغيبي والمطلق (ص 95).

ثانيا: المنطلقات الفكرية

الحاكمية: يرى المؤلف أن دعوة الإسلام كانت في جوهرها دعوة لتأسيس العقل في مجال الفكر، والعدل في مجال السلوك الاجتماعي بوصفهما نقيضين للجهل والظلم. وقد ظل الخطاب الديني في تاريخ الثقافة الإسلامية حريصا على نفي أي تعارض يمكن أن ينشأ -بحكم حركة الواقع وثبات النصوص- بين الوحي والعقل. وأن أولى محاولات إلغاء العقل لحساب النص، حسب رأيه، هي حادثة رفع المصاحف، فهي نقلت الصراع من مجاله السياسي والاجتماعي إلى مجال آخر هو مجال الدين والنصوص. وحين يتحول الصراع الاجتماعي السياسي من مجال الواقع إلى مجال النصوص يتحول العقل إلى تابع للنص وتتحدد مهمته في استثمار النص لتبرير الواقع أيديولوجيا. ويؤدي تحكيم النصوص في مجال الصراع الاجتماعي السياسي إلى "الشمولية" في فعالية النصوص. إن مبدأ تحكيم النصوص يؤدي إلى القضاء على استقلال العقل بتحويله إلى تابع يقتات على النصوص. وإن الهجوم

على التفكير العقلي ورفض التعددية يمثل أساسا من أسس مفهوم الحاكمية. والأساس الثاني والأخطر هو وضع الإلهي مقابل الإنساني، والمقارنة الدائمة بين المنهج الإلهي ومناهج البشر وتؤدي المقارنة إلى عدمية الجهود الإنسانية، ولكي تتعمق الهوة بينهما يتم إعادة صياغة المفاهيم الدينية بإعادة تأويلها لتصب في أيديولوجية "الحاكمية". إن النتائج الخطيرة التي تترتب على طرح مفهوم الحاكمية هي: إهدار دور العقل منتهيا إلى تكريس أشدّ الأنظمة الاجتماعية والسياسية رجعية وتخلفا حيث يكون الوطن ملكا للحاكم (ص 101 - 117).

النص: يرى المؤلف أن الخطاب الديني يتجاهل البعد التاريخي للنصوص، الذي يتعلق بتاريخية المفاهيم التي تطرحها النصوص من خلال منطوقها، وذلك نتيجة طبيعية لتاريخية اللغة التي صيغت بها النصوص، فتاريخية اللغة تتضمن اجتماعيتها. وهذا يؤكد أن للمفاهيم بعدها الاجتماعي الذي يؤدي إهداره إلى دلالات النصوص ذاتها. إن النصوص محكومة بقوانين ثابتة، والمصدر الإلهي للنصوص لا يخرجها عن هذه القوانين لأنها تأنسنت وتوجهت بمنطوقها ومدلولها إلى البشر في واقع تاريخي محدد، فالنصوص ثابتة في المنطوق، متغيرة في المفهوم (ص 118 - 119).

التراث بين التأويل والتلوين، قراءة في مشروع اليسار الإسلامي

تناول الباحث في الفصل الثاني قراءة في مشروع اليسار الإسلامي، الذي يمثله، حسب رأيه الدكتور حسن حنفي، مستشهدا بكتاباته المتوزعة في أكثر من كتاب ثم يقوم بنقدها. وقبل الدخول في موضوع القراءة طرح المؤلف تعريفه لمفهومين استخدمهما في قراءته وهما: التأويل والتلوين.

التأويل: تتضمن الدلالة اللغوية بُعدين: الأول: من الفعل آل ومشتقاته ومعناها العودة والرجوع، فالتأويل هو إرجاع الشيء أو الظاهرة موضوع الدرس إلى عللها الأولى. الثاني: معنى الوصول إلى الغاية -غاية الشيء- بالرعاية والسياسة والإصلاح آل مالَهُ إيالة، إذا أصلحه وساسه. والائتيال: الإصلاح والسياسة. يقارن علماء القرآن بين الدلالة الاصطلاحية لمفهوم "التأويل" مع مفهوم "التفسير" ويحددون العلاقة بينهما بأنها علاقة الخاص بالعام، فالتفسير يتعلق عندهم بالرواية فيما يتعلق التأويل بالدراية. التفسير بتعلق بالنقل والتأويل بالعقل. والنقل يعني مجموعة العلوم الضرورية واللازمة للنفاذ إلى عالم النص وفضّ مغاليقه وصولا لتأويله. وبدون هذه العلوم ينفسح المجال بلا حدود أو ضوابط أمام الفرد والجماعة لإسقاط أيديولوجيتها على النص، أي للوثب من "التأويل" إلى "التلوين" (ص 140 - 141).

التلوين: ما دام التأويل فعالية ذهنية استنباطية، فمن البديهي أن يكون للذات العارفة دور لا يمكن إنكاره أو تجاهله. فالقارئ محكوم معرفيا بآفاق الزمان والمكان. وهكذا تتعدد دلالات النصوص. يرى الباحث ضرورة التفريق بين القراءة "غير البريئة" والقراءة "المغرضة". إن انعدام البراءة في قراءة النصوص أمر له تأويله المعرفي، ما دام فعل المعرفة لا يبدأ من فراغ شامل مطابق لحالة البراءة الأصلية على افتراض وجودها، أمّا القراءة المغرضة فلا تأويل لها إلّا في الأيدولوجيا. إن التعامل مع النصوص أو

تأويلها يجب أن ينطلق من زاويتين: زاوية التاريخ: لوضع النصوص في سياقها من أجل اكتشاف دلالتها الأصلية وزاوية السياق الاجتماعي والثقافي الراهن الذي يمثل دافع التوجه إلى التأويل، وذلك من أجل التفرقة بين الدلالة الأصلية التاريخية وبين المغزى الذي يمكن استنباطه من تلك الدلالة. القراءة المغرضة لا تنتج سوى التلوين. والتلوين ينتج عن النزعة الذاتية النفعية في التعامل مع النصوص، وينتج كذلك عن نزعة شكلية تخفي توجهاتها الأيدولوجية تحت شعار الموضوعية العلمية (ص 142 - 143). إن المغزى أو محاولة الوصول إليه يمثل الغاية والهدف من فعل القراءة، وهذه الغاية لا يمكن الوصول إليها إلا عبر اكتشاف الدلالة. إن التأويل حركة بندولية وليست حركة في اتجاه واحد، هي حركة بين الدلالة والمغزى، وبدونها تتباعد القراءة عن أفق التأويل لتقع في وهدة التلوين. وبعد التعريف بمصطلحات البحث تناول المؤلف دراسة مشروع اليسار الإسلامي كتطبيق لما طرحه سمّاه: القراءة المنتجة.

اليسار الإسلامي وأولويات الخطاب الديني

يرى الباحث أن مفهوم "اليسار" ونقيضه "اليمين" ينطلقان من نفس الثوابت المعرفية التي تطرحها النصوص الدينية. ويشير إلى أن مصطلح اليسار الإسلامي طرحه الدكتور حسن حنفي بداية الثمانينيات. ويرى الباحث أن ما يفسّر نبرة التردد في الخطاب السياسي لليسار الإسلامي اتباعه مبدأ "التقيّة". وإن المبدأ المفسّر لطريق مواجهته اليمين الإسلامي هو "التوفيقية" على مستوى الخطاب الفلسفي| الديني، فاتهم بالماركسية والعمالة من جانب النظام والمد الديني، واتهم بالتلفيقية والتبريرية من جانب قوى اليسار. ويرى الباحث أن "التوفيقية" جزء أصيل في بنية اليسار الإسلامي، وهي بوصفها نهجا فكريا تلتقي مع التقية بوصفها نهجا سياسيا، فيلجأ المفكر اليساري أحيانا إلى التقية على مستوى الفكر، ويمارس التوفيقية على مستوى الخطاب السياسي (ص 149 - 150). وحول الموقف من التراث فقد تحول لدى السلفيين إلى إطار مرجعي، بينما تحول عند العلمانيين إلى غطاء وسند. وفي كلتا الحالتين فقد التراث وجوده الموضوعي لحساب التلوين الأيديولوجي النفعي. وفشل كلا الاتجاهين في تأسيس معرفة علمية بالواقع أو بالتراث، وفشلا في إحداث أدنى تغيير كيفي في الوعي المعاصر (ص 154).

الماضي والحاضر، الأصل والفرع

ثم تطرق المؤلف إلى تصور الفكر الديني للعلاقة بين الماضي والحاضر. وبرأيه فإن الفكر الديني -اليميني بصفة خاصة- يهدر العلاقة الجدلية بينهما، ويجعل للماضي أولية وجودية ومعرفية بحيث يصبح هو الجوهر الثابت، وتتحول علاقة الحاضر به إلى علاقة تبعية وخضوع. ويسعى الخطاب الديني السلفي إلى إعادة صياغة الحاضر وفقا لصورة الماضي. أما اليسار الإسلامي فإنه يطرح تصورا يتوازى مع الطبيعة التوفيقية التي تمثل استراتيجية الخطاب اليساري (ص 156). فالماضي يتداخل في تشكيل الحاضر بعد أن يتحول إلى "مخزون نفسي" للجماهير، وهذا التراث المخزون من منظور اليسار الإسلامي هو الأساس النظري لبنية الواقع. لا يحلل اليسار الإسلامي علاقة

التشابه لقيم ومفاهيم التراث ماضيا وحاضرا بل يثب بطريقة ميكانيكية من الماضي إلى الحاضر.

مفهوم التراث في خطاب اليسار الإسلامي أنه نتاج الواقع الذي نشأ فيه وهو يقع خارج دائرة القداسة، لهذا يعمل فيه آليات تجديده توطئة لإعادة بناء المخزون النفسي للجماهير ومن ثم إحداث التغيير في بنية الواقع . يرى الباحث أن اليسار واليمين يتصوران كلاهما أن حل مشكلات الواقع الراهن يقبع في التراث. كلاهما يجعل الماضي أصلا والحاضر فرعا. إن قراءة الحاضر في الماضي تأسيسا على أن التراث "مخزون نفسي" تؤدي إلى إهدار الحاضر بسجنه في أسر الماضي. ويؤكد الباحث أن قراءة الحاضر في الماضي بالطريقة التي عالجها الخطاب اليساري هي قراءة مغرضة، وأن مقولة "التراث مخزون نفسي" غامضة تحتاج للمراجعة (ص 162).

التراث: بناء شعوري أم بناء تاريخي

ويستطرد الباحث في بيان رأيه بالحركة الصاعدة من الحاضر إلى الماضي، والتي تمر عبر وسيط "الشعور" المقابل لمخزون "الوسيط النفسي" في حركة الهبوط. في هذه الحركة ينكشف تصور اليسار الإسلامي للتراث بوصفه بناء شعوريا. إن البناء الشعوري على عكس البناء التاريخي يتعامل مع الفكر عموما والتراث خصوصا على أساس من استقلال الفكر عن الواقع، وهذا التصور لاستقلال الفكر عن التاريخ وعن حامليه يجعل الحركات والتيارات الفكرية التاريخية في التراث مجرد "ردود أفعال" واستجابات فكرية لأنماط من الفكر سابقة عليها. ومنهج الشعور في الخطاب اليساري مجاله الكشف عن الواقع الكلي بمستوياته العديدة والمتشابكة، وهي دعوة يراها الباحث مغرقة في المثالية (ص 167).

التراث: إعادة بناء أم إعادة طلاء

يرى الباحث أن الهدف النهائي لمشروع اليسار الإسلامي هو إعادة بناء العلوم التراثية. ويستشهد بقول حنفي الذي يرى أن التراث والتجديد كله ما هو إلا شروح على الماضي، وهذا ليس تحصيل حاصل وإنما هو إعادة بناء الموضوعات ذاتها على أساس من أبنيتها المعاصرة. ويردّ الباحث أن إعادة البناء تستلزم تفكيك البناء القديم أولا واختبار مكوناته. كما يرى أن التوحيد بين المنظومات الفكرية المختلفة في بنية علم الكلام يؤدي بمحاولة إعادة البناء إلى العكوف على الصورة الخارجية طلاء وتجديدا فقط. إن هذا البناء في حقيقته حسب رأي الباحث هو تفكيك للمنظومات الفكرية للفرق والاتجاهات وإعادة ترتيب جزئياتها لا يخلو من دلالة أيديولوجية تعطي الصدارة لبنية المنظومة الأشعرية، إخفاء للبنية المعتزلية. وإن إبقاء بنية العلم كما صاغتها العصور المتأخرة على غرار البنية الأشعرية أصاب مشروع اليسار في مقتل وجعل التجديد إعادة طلاء لا إعادة بناء (ص 168 - 169).

النصوص: تأويل أم تلوين

ونتيجة التسليم بمشروعية البنية المنطقية الصورية الأشعرية لعلم الكلام تمّ التعامل مع الأفكار والنصوص معزولة عن سياق منظوماتها الفكرية، وهذه النتيجة أدّت إلى نتائج سلبية كثيرة، أوّلها المسارعة إلى إصدار أحكام ذات طابع تلويني على بعض

النصوص والأفكار. إن التلوين على مستوى النصوص والأفكار يعتمد آلية التحويل الدلالي عن طريق توسط الشعور، لا عن طريق استثمار إمكانات الدلالة الأصلية (ص 178 - 179). وإن منهج الشعور في التعامل مع النصوص ينتهي إلى التعامل معها بوصفها صورا عامة فارغة قابلة للامتلاء بالمضمون الذي يفرضه المنهج، منهج الشعور الذاتي. وإن الأفكار الجزئية إذا فصلت عن سياق منظوماتها الفكرية فقدت دلالتها الجزئية، وبالمثل فإن فصل المنظومة عن سياقها التاريخي| الاجتماعي يفقدها دلالتها الكلية. وفي كلتا الحالتين لا بد أن يقع التأويل في وهدة التلوين (ص 184).

التوفيقية: النجاح والإخفاق

ويقيّم الباحث مشروع اليسار الإسلامي فيراه أقرب إلى الإخفاق منه إلى النجاح، فهو يسعى إلى التوفيق بين أطراف لم ترصد جوانب الخلاف أو الاتفاق بينها بدقة، ويجمد الحاضر في الماضي، ويتجاهل السياق التاريخي| الاجتماعي للتراث (علم الكلام) ويتعامل معه بوصفه بناء شعوريا مفارقا لزمانه ومكانه. علما حقق المشروع أيضا إنجازات في دراسة التراث، فهناك جهد واضح لمحاولة تأويل العقائد، وهي محاولة مشروعة لتحويل اللاهوت إلى انثروبولوجيا والإلهيات إلى إنسانيات، كذلك الإصرار على تاريخية واقعة الوحي. وينتقد الباحث هاجس ''التوفيق'' و ''التوحيد'' لدى اليسار في توحيد اتجاه التراث.

إن المشروع اليساري يدافع بحرارة عن منهج العقل ويهاجم بضراوة عبدة النصوص، يقوده تردده إلى نقد منهجه العقلي والدفاع عن منهج النص في سياق التردد النابع من الطبيعة التوفيقية للمشروع كله (ص 192-185).

قراءة النصوص الدينية. دراسة استكشافية لأنماط الدلالة

وضّح المؤلف في الفصل الثالث أن الفكر البشري بما في ذلك الفكر الديني نتاج طبيعي لمجمل الظروف التاريخية والحقائق الاجتماعية لعصره. والفكر الديني ليس بمعزل عن القوانين التي تحكم حركة الفكر البشري عموما، ولا بدّ من التمييز بين الدين والفكر الديني؛ فالدين هو مجموعة النصوص المقدسة الثابتة تاريخيا، أمّا الفكر الديني فهو الاجتهادات البشرية لفهم تلك النصوص وتأويلها واستخراج دلالتها (ص 197). ويرى الباحث أنه بسبب الطبيعة السجالية الأيدولوجية للعلاقة بين خطاب التنوير والخطاب السلفي، لم يستطع التنويريون أن ينقطعوا عن السلفيين بإنتاج وعي تاريخي علمي بالنصوص الدينية ذاتها، وظلت الرؤية اللاتاريخية للنصوص الدينية هي الرؤية المسيطرة عند كلا الفريقين على السواء. ويوضح الباحث ما المقصود بإنتاج وعي تاريخي علمي بالنصوص الدينية، إن ما يعنيه بالوعي التاريخي العلمي بالنصوص الدينية يتجاوز أطروحات الفكر الديني قديما وحديثا، ويعتمد على إنجازات العلوم اللغوية وخاصة في مجال دراسة النصوص (ص 200). ويدعو المؤلف إلى عدم الوقوف عند المعنى في دلالته التاريخية الجزئية، وضرورة اكتشاف ''المغزى'' الذي يمكن أن يؤسس عليه الوعي العلمي التاريخي. ويوضح قراءته في أربع فقرات:

1 - النصوص الدينية نصوص لغوية تنتمي

إلى بنية ثقافية محددة تمّ إنتاجها طبقا لقوانين تلك الثقافة التي تعد اللغة نظامها الدلالي المركزي. يوضح الباحث الفرق بين ''اللغة'' و ''الكلام''. فاللغة هي النظام الدلالي للجماعة في كليته وشموله، وهي المخزن الذي يلجأ إليه الأفراد في صناعة ''الكلام''. إن دلالة النصوص الدينية لا تنفك عن النظام اللغوي الثقافي الذي تعد جزءا منه، فاللغة ومحيطها الثقافي هي مرجع التفسير والتأويل، وتدخل في مرجعية التفسير والتأويل كل علوم القرآن. إن اللغة ليست ساكنة ثابتة، بل تتحرك وتتطور مع الثقافة والواقع. ويفرق الباحث بين الخاص والعام في دلالة النصوص، فالخاص هو الجانب الدلالي المشير مباشرة إلى الواقع الثقافي التاريخي لإنتاج النص، والعام هو الجانب الحي المستمر القابل للتجدد مع كل قراءة. و يرى أن هناك ثلاثة مستويات للدلالة في النصوص الدينية: الأول: مستوى الدلالات التي ليست إلّا شواهد تاريخية لا تقبل التأويل المجازي أو غيره. الثاني: مستوى الدلالات القابلة للتأويل المجازي. الثالث: مستوى الدلالات القابلة للاتساع على أساس ''المغزى'' الذي يمكن اكتشافه من السياق الثقافي| الاجتماعي الذي تتحرك فيه النصوص، ومن خلاله تعيد إنتاج دلالتها (ص 203 - 210).

2 - يعرض الباحث نمطا دلاليا أصبح شاهدا تاريخيا، فيستشهد بمثال تجارة العبيد التي كانت جزءا جوهريا من البناء الاقتصادي للمجتمع العربي قبل الإسلام، وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا الواقع في النص دلالة ولغة وأحكاما، مثل أحكام الزواج، الزنا، كفارات بعض الذنوب. وهذه الأحكام أسقطها الواقع التاريخي وألغاها، ومثلها مسألة الجزية وأهل الكتاب. ومن النصوص التي يجب أن تعتبر دلالاتها من قبيل الشواهد التاريخية النصوص الخاصة بالسحر والحسد والجن والشياطين. فهذه مفردات في بنية ذهنية ترتبط بمرحلة محددة من تطور الوعي الإنساني (ص 210 - 215).

3 - يرى الباحث أن الانطلاق من معطيات النص الحرفية والتمسك بالدلالات التي تجاوزتها الثقافة وتخطتها حركة الواقع يكشف عن بعده الأيديولوجي في إصرار الخطاب الديني على جعل العلاقة بين الله والإنسان محصورة في بعد ''العبودية''. ويوضح أن الدال اللغوي لمفهوم العبودية ما يزال مستعملا رغم أن النظام الاجتماعي الاقتصادي لم يعد له وجود. والخطاب الديني يحصر العلاقة بين الله والإنسان في بعد العبودية مصرا على تأكيد الدلالة الحرفية. ويرى المؤلف أن النص القرآني لا يصوغ العلاقة بين الله والإنسان على أساس ''العبودية'' بل على أساس ''العبادية'' المشربة بالحب والرحمة (ص 215 - 220).

4 - يهدف الباحث إلى اكتشاف دلالة بعض الأحكام التشريعية معتمدا على السياق الدلالي الداخلي للنصوص من جهة، وعلى السياق التاريخي الاجتماعي من جهة أخرى؛ فيفرّق بين ''المعنى'' و''المغزى'' فالمعنى يمثل المفهوم المباشر لمنطوق النصوص الناتج عن تحليل بنيتها اللغوية في سياقها الثقافي، فهو يمثل الدلالة التاريخية للنصوص في سياق تكوّنها وتشكلها. أمّا المغزى فهو محصّلة لقراءة عصر غير عصر النص. وإذا لم يكن المغزى ملامسا للمعنى ومنطلقا من آفاقه تدخل القراءة دائرة ''التلوين'' بقدر ما تتباعد عن دائرة ''التأويل'' كما أن المعنى يتمتع

بقدر ملحوظ من الثبات النسبي، والمغزى ذو طابع متحرك مع تغيّر آفاق القراءة (ص 220 - 221).

نلاحظ أنه رغم مرور ثلاثة عقود على ظهور الكتاب، فإن أفكاره تسجل حضورها واستمرارها في المعترك الثقافي الاجتماعي، وتشتد الحاجة بعد التغيرات العاصفة في المنطقة إلى مواجهة الخطاب الذي يسعى للهيمنة على حياة الناس باسم الدين. وقد اعتمد المؤلف في كتبه ودراساته على منهج نقدي منفتح على الفكر الإنساني مستخدما السيميولوجيا والهرمنيوطيقا. وأكّد أبو زيد في كتاب لاحق طروحاته، موضحا "سلطة الخطاب" بالقول: أن الخطابات تتبادل عناصر التأثير والتأثر مهما تباعدت منطلقاتها الفكرية وتناقضت آلياتها التعبيرية والأسلوبية. والخطابات من خلال تصارعها مع بعضها البعض تتبادل استعارة العناصر التي تساعدها على إعادة تكييف بنيتها وتنشيط خصائصها وتجديد بعض منطلقاتها لكي تستطيع مواجهة نقيضها.

والخطابات في سياق ثقافي حضاري تاريخي بعينه تتشارك نفس الإشكاليات وتواجه نفس التحديات.

وهي تستعير أدوات بعضها البعض، وتسمح لنفسها باستعارة مقولات الخطاب الخصم وتعيد تأويلها لتتمكن من توظيفها في سياقها الخاص[1].

الهوامش

1 - نصر حامد أبو زيد، الخطاب والتأويل، ط 1، الدار البيضاء،المركز الثقافي العربي، 2000، ص 6-5.

نصوص قديمة

عودة الى الطبقات الاجتماعية القديمة*

حنا بطاطو
ترجمة: فالح عبد الجبار

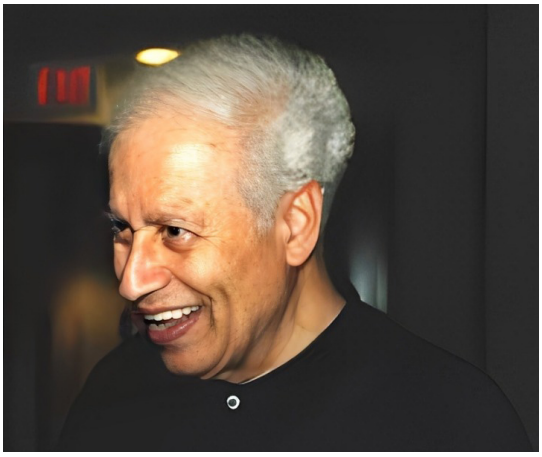

حين بدأتُ العمل على كتاب «الطبقات الاجتماعية القديمة» في أواخر الخمسينيات، كنتُ مأخوذاً بأدب الثورات على نحو لا يُقاوَم. لا أدري سبب ذلك على وجه التحديد، لكـن أصلي الفلسطيني قد يفسر ذلك. فالانقطاعات التي ألمّت بحياة الكثير من الفلسطينيين وعالمهم جعلتهم، إن جاز التعبير، متمردين بالفطرة. وفي العراق كانت الفترة فترة قلاقل واختمار ايديولوجي وعاطفي غير معهود، كان الجو مشحوناً بروح الثورة. والأكثر من ذلك أن ما حدث في العراق عام 1958 وعام 1959 ولاحقاً في عام 1963 - أحداث رهيبة ومريعة تابعتُ مجراها عن كثب وباهتمام شديد - أكد وجهة نظري القائلة بأن لحظات الغليان هي خير فترة لدراسة المجتمعات على أحسن وجه. وقد بدا بالفعل أن المجتمع العراقي لم يكشف نفسه أو يميط اللثام عن مزيد من أسراره كما فعل في تلك اللحظة.

باختصار، نشأت عندي لهفة على الكتب التي تتناول الثورات الروسية والفرنسية والإنكليزية بصفة خاصة. وحين انغمرتُ فيها لفت انتباهي كيف أن صوراً مختلفة انبثقت من تقارير مؤرخين مختلفين عن الثورة الواحدة نفسها، لا سيما الثورة البلشفية. كما كانت تجري في الدوريات البريطانية وقتذاك مناظرة احتدمت بحماسة منقطعة النظير حول الأصول الاجتماعية للحرب الأهلية الإنكليزية في أربعينيات القرن السابع عشر. فإن مؤرخين مرموقين – ار . ايـج. تاوني R.H.Tawney وايج.

ار. تريفور روبر H.R.Trevor-Troper وجي. ايج. هيكستر J.H.Hexter ولورنس ستون Lawrence stone من بين آخرين - إذ حشدوا حقائق مختلفة وأنواعاً شتى من الأدلة، لم يتمكنوا من الاتفاق على ما إذا كانت الثورة ضد الملك تشارلز الأول بقيادة طبقة ملاك صاعدة تبتغي الربح أو طبقة ملاك متحللة لا صلة تربطها بالبلاط الملكي ومحرومة من عطاياه، أو بقيادة قوة اجتماعية أخرى. هذه القضية لم تُحل بالمرة. كما قرأتُ كتاباً شيقاً عن ذلك الوليد الشهير الذي أنجبته الثورة الفرنسية – نابليون. ففي عمله «نابليون: ما له وما عليه : Napoleon Far and Against» بيّن المؤرخ الهولندي بيتر جيل Pieter Geyl كيف اختلف تفسير نابليون من جيل إلى آخر حسب أصل المؤرخ ومعتقداته السياسية والاجتماعية والشخصيات الأدبية آنذاك. وأرفق ملاحظاته بقول ظل طرياً في ذاكرتي. إذ قال: ''إن التاريخ جدال لا ينتهي'' [1].

هذا كله كان ماثلاً في ذهني حين كنتُ أكتب «الطبقات الاجتماعية القديمة». ولم يركبني في أي وقت من الأوقات الوهم بأن كتابي أكثر من «تفسير واحد ممكن» لـ «بعض» جوانب الواقع العراقي. ولهذا السبب شددت في البداية على «الطبيعة التجريبية» لدراستي [2].

كما كُنت واعياً لميولي الفكرية. وحذرتُ القارئ في المقدمة من أنه «في أي عمل تاريخي يقوم به المرء هناك تاريخ ولكن هناك على الدوام شيئاً من ذات المؤرخ أيضاً. وهذا أمر لا مناص منه. فالمرء يعرِّي، حتى ولو بصورة غير واعية، ضيق خبرته ونواقصه الفكرية والمزاجية». وأنا لم أخف انحيازي المزاجي لكني حاولتُ جاهداً ضبطه. وأنْ كانت عواطفي قد انحازت إلى جانب الفقراء والمستضعفين فإن بالإمكان تلمس ذلك دون عناء. لكني لم أعمد إلى تنضيد الحقائق بما يناسب عواطفي، ليس بصورة واعية على أقل تعديل.

لقد كان وما زال لدي هوى آخر. فأنا عاجز، كما يبدو، عن تحليل القضايا بمفردات «السياسة الواقعية - Realpolitik» ذلك بكل بساطة على الضد من طبيعتي. وفكرياً اجتذبتني دينامية الكثير من أفكار كارل ماركس التي يعود تاريخ البعض من عناصرها إلى أرسطو من حيث الأساس، وصلة هذه الأفكار بالواقع، لكني لم أقبل بكل مفاهيم ماركس وما قبلته منها لم أقبله دون نقد. كما إني لم أستخدمها استخداماً قبْلياً أو ميكانيكياً. وقد وجدتُ أن بعض مقولات ماكس فيبر الفكرية أيضاً تعين في قراءة الوضع التاريخي. وفي الحقيقة أن فيبر منهَجَ عناصر عدة تتعلق بظاهرة الطبقة مما كان ماركس قد فصله من قبله. ولكن عالماً كاملاً كان يفصل، بالطبع، بين المفكرين في العديد من الجوانب الأخرى. وفي حين أن فيبر، مثلاً، أضفى على مفاهيمه صفة خالية من القيم (طرحٌ فيه نظر) فإن مفاهيم ماركس ليست وصفية وتفسيرية جهاراً فحسب بل ونقدية مشحونة بالقيم وذات توجه نحو الفعل أيضاً.

على أية حال، لا يعكس كتابي التشديد على التاريخ البنيوي الذي أدين فيه لماركس فحسب بل ويعكس أيضا بعض عناصر النزعة التجريبية (الامبيريقية) البريطانية وخاصة مراعاتها الصارمة للحقائق وارتيابها من التعميمات الكبيرة، وأحسب أن هناك انعكاساً

في كتابي للتوتر بين هذين التقليدين الفكريين. فالكم الكبير من الحقائق التي جمعتها عن هذا الجانب أو ذاك من المجتمع العراقي كان يشير إلى اتجاهات مختلفة عديدة، وكان له تأثير شالّ فيَّ. ولهذا السبب كنت كثيرا ما أربط طروحاتي باشتراطاتي وتحديدات على نحو ما وكنتُ عموماً أجتنب التعميمات العريضة وأقصر تحليلي على مستوى واطئ أو متوسط من التعميم.

هناك نقطة أخرى تحتاج إلى توكيد. لقد اعتزمتُ في الأصل نشر كتاب عن الطبقات الاجتماعية القديمة والحركة الشيوعية في العراق فقط. ولهذا السبب جاء تشديد المناقشة في الجزء الثاني وفي فصول عديدة من الجزء الثالث على الشيوعيين. وفيما بعد وقعت على وثائق تتعلق بالضباط الأحرار وحزب البعث وأتيحت لي فرصة اللقاء بالعديد من قادتهم. وفي النهاية كُرس نصف الجزء الثالث تقريبا لهذه الحركات وللنظام السياسي الذي أقامته. لذا شعرتُ أن لدي ما يبرر تبديل عنوان كتابي على هذا الأساس. ونبهت قرائي، كما ينبغي، في المقدمة (ص21) إلى أن تاريخ الشيوعيين يشكل النواة الأصلية للجزءين الثاني والثالث وأنه ممثَّل على نطاق أوسع من تاريخ الضباط الأحرار والبعثيين، ولكن العديد من المراجعين حينذاك ولاحقاً فاتهم هذا التنبيه، وخرجوا بانطباع مؤداه مبالغتي بدور الشيوعيين. ولكني يجب أن أضيف أني كنتُ دائماً وما زلت حتى اليوم على اقتناع بأن الشيوعيين كانوا يتمتعون في الخمسينيات بنفوذ أعمق على الانتلجنسيا والكادحين من البعثيين أو الضباط الأحرار.

رغم أن مؤلفي الفصول المختلفة للكتاب الحالي يعالجون بصورة مباشرة أو غير مباشرة هذا الجانب أو ذاك من ثورة تموز 1958 في العراق فإنهم يثيرون قضايا مختلفة ومتباينة. لذا يحسن الوقوف عند كل واحد من تفسيراتهم على حدة، وأنا هنا أتبع تسلسل الفصول.

يعقد نورمان دانييل Norman Daniel مقارنات مثيرة للاهتمام بين الثورة العراقية وثورات قامت في سياقات تاريخية أخرى، لكنه يحدد لنفسه المهمة الرئيسية المتمثلة في إعادة الإمساك بـ «حالة العراقيين الذهنية» عشية 14 تموز وبعد الثورة مباشرة. وهو يكتب بأسلوب زاهٍ وأحياناً بأسلوب يشبه أسلوب الشعراء الذين يميلون إلى أن يكونوا أكثر إيحائية من أن يكونوا رائقين منطقياً، ولكنهم في أحيان كثيرة يرون ما تحت السطح.

لا أشاطر دانييل رأيه القائل إن إشارة السفير البريطاني السير جون تراوتبيك إلى أن «انحسار نفوذ الإسلام» كان «حكماً خاطئاً» أو «خطأ فادحاً». وأعتقد أن دانييل هنا يقرأ التاريخ بالمقلوب في ضوء انبعاث النزعة الإسلاموية بعد هزيمة العرب في عام 1967 وتعمق هذا الاتجاه في أعقاب الثورة الإيرانية. ففي منتصف الخمسينيات ندب الإمام النجفي الكبير آية الله محمد الحسين كاشف الغطاء نفسه ضعف الحس الديني عند الناس [3].

دبليو ام. روجر لويس Wm. Roger Louis يضيف الكثير إلى معرفتنا بالنظرة البريطانية إلى الساحة العراقية في العقد السابق على الثورة. وهو يناقش مناقشة عميقة آراء آخر سفيرين بريطانيين لدى النظام الملكي العراقي، السير جون تراوتبيك والسير مايكل رايت.

في ما يتعلق بأسباب الثورة يكتشف لويس وجود تصادم بيني من جهة وبين السير مايكل رايت ومايكل ايونيديس، وهو خبير اقتصادي بريطاني، من الجهة الأخرى، وهو يشخص وجود تعارض بين «التفسير السياسي القصدي» الذي يقدمه رايت وايونيديس و«التشديد العام» عندي على التغيرات والتخلعات البنيوية. فأنا أرى أن هناك في التاريخ عمليات خفية وأحداثاً سطحية وأن هذه مترابطة بين بعضها بعضاً. وتكون العمليات الخفية عمليات بلا ضوضاء، تكاد تكون عصية على تلمسها. وعلى النقيض من ذلك تكون الأحداث التي تجري على السطح رتيبة تارة ومثيرة وعاصفة تارة أخرى، لكنها دائماً واضحة بجلاء. وبحكم الوظيفة والانشغال فالأرجح أن يتحسر المبعوث الدبلوماسي أو الخبير الأجنبي على ما يجري من أحداث على السطح وليس ما يعتمل من عمليات خفية إلا إذا كان عميق الإلمام بتاريخ البلد الذي يخدم فيه. ونحن نعرف أي خلاصة خرج بها مايكل رايت من «تفسيره السياسي القصدي»: كتب في 22 نيسان 1958 - أقل من ثلاثة أشهر قبل الثورة - «فالمؤكد تماماً أن وضعاً ثورياً لا يوجد اليوم»[4]. ويكاد أن يكون هذا صدى لتباهي نوري السعيد في نهاية عام 1956 بأن «دار السيد مأمونة»، الذي رأى عبد السلام يوسف مناسبة لذكره في هذا الفصل [5]. هذا من جهة.

من الجهة الثانية، إذ كان التحليل في الخاتمة (1113 - 1116) وفي أجزاء أخرى من كتابي (465 - 482 و 807-805) بمفردات الأسباب البنيوية أو البعيدة المدى فإني في الفصل الذي كتبته عن الثورة (767-765) حددتُ بشيء من الإسهاب العوامل القصيرة المدى المختلفة التي كانت بالغة الأهمية في توليد مزاج الثورة في صفوف الجيش، والتي دفعت الضباط الأحرار إلى توجيه ضربتهم في 14 تموز. وكانت غالبية هذه العوامل ذات طبيعة سياسية أكثر منها اقتصادية. ومن الواضح أن العوامل القصيرة المدى والبعيدة المدى كانت تفعل فعلها وأن التفسير البنيوي والتفسير بمفردات العوامل قصيرة المدى لا يستبعدان أحدهما الآخر بل يتكاملان مع أحدهما الآخر.

يلقي نيكولاس جي. ثاتشر .Nicholas G Thatcher وفريدريك دبليو. اكسلغارد. Frederick W Axelgard ضوءاً ساطعاً على سياسة الحكومة الأمريكية تجاه العراق في الخمسينيات. ويبرز الاثنان الثقل غير المبرر الذي أعطته واشنطن للاهتمامات البريطانية، وما رافق ذلك من عواقب وخيمة. وما يثير الاهتمام أن دلاس ونوري (المقصود نوري السعيد –المحرر) وموظفي وزارة الخارجية الأمريكية على مستوى العمل كانوا، كما يشير ثاتشر، يدركون المخاطر والمنزلقات التي تواجه الملكية في العراق بسبب انخراطها في منظومة عسكرية برعاية غربية، ولكن هذا لم يمنع المسؤولين الأمريكيين من أن يمارسوا، بكلمات اكسلغارد، «ضغطاً متواصلاً» على نوري لـ «دفعه» دفعاً «حسب استعارة نوري البليغة» إلى منظمة من طراز أطلسي [6]. ويرى ثاتشر أن مصالح الحكومة الأمريكية كانت ستخدم على نحو أفضل بـ «منظومة من الضمانات الهادئة» على غرار المنظومة التي استخدمتها لدعم النظام الملكي السعودي [7]. ويعتقد اكسلغارد من ناحيته أن أحداث العراق كان من الجائز أن تتخذ منحى مغايراً

لو ابتعدت الولايات المتحدة عن البريطانيين، واتبعت نهجاً مستقلاً أكثر انسجاماً مع حقائق المنطقة.

على أية حال، من الواضح أن السياسة الأمريكية لم تبد تفهماً يُذكر للرأي الشعبي العربي أو لرغبة العراقيين العارمة في الابتعاد عن الارتباطات الخارجية ونزاعات الحرب الباردة. ويبدو أن الوثائق الأمريكية المصنفة التي اعتمد عليها اكسلغارد تشير أيضاً إلى غياب أي خطة طويلة الأمد لمقاربة الشرق الأوسط وتعكس ما سماه جورج .اف. كينان George F. Kennan «دبلوماسية بالهواية» [8].

تتبدى الطبيعة اللاأخلاقية لسياسة القوى الدولية بأسطع صورها في مساهمة جو ستورك Jo Stork الاستقصائية في فهم سلوك القوى الكبرى في المنطقة.

فالحكومة السوفييتية كانت تضحي بمصالح الشيوعيين العراقيين في الثورة كلما تعارضت مع مصالح الدولة السوفييتية. وإن توجه الاتحاد السوفييتي المؤيد لإسرائيل في 1947 – 1948 حين كانت القضية الفلسطينية في ذروة تأزمها، ونصيحته التحذيرية للشيوعيين العراقيين في عام 1959 حين كان مد التأييد الشعبي لحزبهم في أوجه، زاد انكشاف الحزب الشيوعي العراقي للضربات القاصمة التي أنزلت به في النهاية.

يجد ستورك تماثلاً في ردود فعل الحكومة الأمريكية على ثورة 1958 العراق وعلى ثورة 1979 في إيران. فقد نظرت إلى الثورتين على أنهما تعبران عن اتجاه معاد للمصالح الغربية يجنح إلى «الفوضى»، وتصدت لهما بطريقة متماثلة - بتدخل عسكري لاحقاً في المنطقة. وفي إطار سعيها إلى تأمين مصلحتها في «الوصول إلى نفط الشرق الأوسط بلا قيود» وبـ «أسعار مقبولة»، قامت بتأليب إيران ضد الموقف الوطني العراقي من قضية النفط في الستينيات والسبعينيات، كما حركت العراق ودولا عربية أخرى ضد الموقف الوطني الإيراني من قضية النفط في أوائل الخمسينيات. وفي الثمانينيات قادت دبلوماسية «موازين القوى» وضعف صدام حسين إلى تورطه الغريب مع القوى العظمى وإلى دوره كأداة لاحتواء الثورة الإيرانية.

لكن هذا التلخيص لا ينصف محاججات ستورك المعقدة بقدر ما هي متوازنة. فهو يحذر من العجالة في النظر إلى العراق بوصفه مجرد بيدق على رقعة الشطرنج الدولية ويذكرنا بأن دينامية القوى الداخلية كتلك التي كانت عاملة في العراق في 1958 - 1959 أو إيران في 1979 قد يكون لها دور في تشكيل منظومات القوى الإقليمية والدولية.

ويرى رشيد خالدي عن صواب في الثورة العراقية أكثر من ظاهرة عراقية. فهي كانت ذات ملامح عراقية متميزة ولكنها كانت أيضاً ذات معنى عربي أو إقليمي. فالأسرة العربية الكبرى لو قسمت إلى وحدات غيورة ومتناشزة تشكل منظومة صغرى محددة في النظام العالمي. وهناك في هذه المنظومة الصغرى «خطاب مشترك» ينبع أساساً من اللغة المشتركة التي تجمع بين وحداته. وحتى لو بمقتضى هذا الطرح وحده، وكذلك لأن العراق كان حلقة في سلسلة القوة الإمبراطورية البريطانية وأحد البلدان العربية الأكبر حجماً والأكثر ثراء، فقد كان

من المحتم أن تردد أصداء الثورة العراقية في المنطقة. ينظر خالدي إلى تأثير الثورة بالدرجة الرئيسية في ضوء المواجهة السافرة التي اندلعت لاحقاً بين الاتجاه الوطني الخصوصي والاتجاه العروبي. واكتسب الصدام أبعاداً إقليمية أضعف الشيوعيين والقوميين على السواء وسمم العلاقات بين العرب والاتحاد السوفييتي ومهد الأرض للانعطاف نحو اليمين الذي أصبح سمة السياسة العربية في السبعينيات. وفي اقتفاء نتائج الثورة اللاحقة هذه وتحليلها يمنحنا خالدي صورة وفية للحقائق بقدر ما فيها من دروس.

اما ماريون فاروق سلغلت وبيتر سلغلت فيسلطان الأضواء على الخلفية السياسية والسياق الاجتماعي - الاقتصادي لثورة 1958. وارى أن مساهماتهما الأكثر مدعاة للاهتمام هي الفرضيات التي يطرحانها كأساس للبحث التاريخي اللاحق.

تذهب فرضيتهما المرحلية الرئيسية إلى أن الرأسمالية في العراق تغلغلت ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر تغلغلاً متسارعاً في قطاعي التجارة والاتجار ولكنها وقت قيام الثورة أبقت على علاقات الإنتاج «ما قبل الرأسمالية» دون مساس بها من حيث الأساس. وإذا كان المقصود بـ«الرأسمالية» نظاماً اقتصادياً يقوم على تملك رأس المال الخاص واستخدامه لإنتاج البضائع وتبادلها أو نظام مجتمع يتسم بسيادة الرأسماليين، فلا يُنكر أن القسم الأعظم من الزراعة العراقية التي كان أكثرية السكان النشيطين يعملون فيها، لم يكن خاضعاً إلى هيمنة رأس المال «المباشرة»، رغم أنه في عام 1918 كان هناك العديد من الملكيات الزراعية الكبيرة التي يديرها تجار بأساليب رأسمالية حديثة مثل مزرعة اللطيفية ذات الـ 64396 ايكر التي كانت تملكها عائلة الجلبي.

وفي الوقت نفسه أرى أنه في الأراضي الزراعية لكبار الشيوخ والملاك الذين كانوا يسيطرون فيما بينهم على 55,1 في المائة من كل الأراضي ذات الملكية الخاصة في عام 1958، بقيت علاقات الإنتاج «ما قبل الرأسمالية» من حيث الشكل وليس بروحها الداخلية.

صحيح أنه في غالبية هذه الملكيات لم يكن الإنتاج قائماً على العمل المأجور: كما في السابق كان الزراع الأكثر شيوعاً هم المحاصصون الذين يزرعون الأرض في وحدات عائلية ويُدفع لهم بالطريقة التقليدية، أي عيناً لا نقداً، ولكن درجة استغلالهم ازدادت شدة. وعلى سبيل المثال إن «المربعجي» في منطقة الموصل الذي أطلقت عليه هذه التسمية لأنه كان يسمح له بالحصول على ربع المحصول، أصبح بعد الحرب العالمية الأولى يحصل على ثمنه فقط.

وصحيح أيضاً أن الشيوخ الكبار بصفة عامة لم يكونوا طبقة تجارية بالمعنى الدقيق بسبب أساليبهم التي تفتقر إلى الادخار أو اهتمامهم بالحفاظ على هيبتهم التقليدية، ولكنهم كانوا مدفوعين على نحو متزايد بفكرة تعظيم دخلهم.

ومما سهل معاملة الفلاحين معاملة ابتزازية أكثر تنامي ممارسة الشيوخ في استئجار محاصصين من القبائل التابعة والأضعف (radd). وعلى سبيل المثال إن العائلات الكبيرة في قبيلة شمر - الياور والفرحان والشلال - التي كانت في عام 1958 تملك 444,604 ايكر كانت تزرع الأرض لغرض

الربح لا بأيدي شمريين وإنما بأيدي عاملة مأجورة من قبائل خارجية.
ومن العوامل الأخرى التي كان لها تأثيرها في تقليل نصيب المحاصص من المحصول الزراعي، التوسع المتسارع في استخدام المضخات، كانت 5264 مضخة على الأقل تستخدم في العراق في عام 1957. وكان الاستثمار في المضخات العاملة بالضغط إحدى الطرق التي دخل بها الرأسماليون الحضريون مضمار الملكية الزراعية، كشركاء للشيوخ في بعض الأحيان. ولكن الكثير من الشيوخ كانوا أنفسهم يملكون مضخات.
زد على ذلك أن توسع التجارة الداخلية والخارجية قوض الطابع المعيشي للاقتصاد الزراعي: كانت أرض الشيخ تنتج الآن بصورة متزايدة للسوق وأخذ المحاصص يصبح منتجاً سلعياً بصورة متزايدة رغم أنه نفسه كان يعيش عيشة كفاف. وهذا ما يشير إليه من بين أشياء أخرى، ارتفاع قيمة صادرات العراق من القمح والشعير عن طريق ميناء البصرة من 16 ألف جنيه استرليني في عام 1868 إلى 612 ألف جنيه استرليني في عام 1908 وازدياد وزن المتوسط السنوي الإجمالي هذه الصادرات من 100،1191 طن في الفترة 1919 - 1925 إلى 900،354 طن في 1925- 1958.
وكانت الأرض نفسها تتحول تحولاً متسارعاً إلى سلعة. فمنذ تسعينيات القرن التاسع عشر كان الجريب أو هكتار النخيل الذي يضم مائة نخلة يباع في ضواحي بغداد بنحو ثلاثة أضعاف سعره في ثمانينيات القرن. وفي عهد الوالي مدحت باشا (1869 – 1871) كانت الأراضي الأميرية (أراضي الدولة) تسجل في الطابو - شكل من أشكال التملك المشروط ولكنه قابل للاستيراث والنقل - بأربع شلنات فقط للايكر الواحد. وبحلول عام 1958 كان الإيكر الديمي الجيد يباع في المتوسط بحوالي ثلاثة جنيهات استرلينية، والايكر المروي الجيد يباع بحوالي 16 جنيهاً استرلينياً، والايكر ذو الجودة الاستثنائية بحوالي 81 جنيهاً استرلينياً.
كما كان من المحتم أن يساعد انتشار الملكية الخاصة بالطابو واللزمة الشبيهة به وشمولها القسم الأعظم من الأراضي المزروعة والصالحة للزراعة، على تغلغل الرأسمالية في الزراعة بصورة مباشرة أو غير مباشرة. في الغرب ما كان بمقدور الرأسمالية أن تتطور تاريخيا من دون قيامها على أساس الملكية الخاصة.
يصعب أن تتخيل أن جميع العوامل المذكورة أعلاه لم تقوض جدياً علاقات الإنتاج الزراعية ما قبل الرأسمالية في العراق ولكن الموضوع يتحمل مزيداً من البحث والدرس.
اتفق بلا تحفظ مع ملاحظة الزوجين سلغلت الرئيسية الأخرى وهي الحاجة إلى دراسة عميقة للفئة الوسطى الحضرية أو صغار الصناعيين والكسبة ومتوسطي تجار الجملة وأصحاب المؤسسات الخدمية وأمثالهم.
سيكون من الخطأ إجراء تمييز حاد للغاية بين هذه العناصر والمكونات الأخرى للطبقة الوسطى أي المهنيين والبيروقراطيين وضباط الجيش (للاطلاع على قوتهم العددية انظر الجدول 59,7 ص 1126)، وكما أشرتُ في كتابي فإن إجراء مثل هذا التمييز سيكون بمثابة النظر إلى المكونات المختلفة للطبقة الوسطى بمعزل عن الشبكة الحية

من العلاقات الاجتماعية، أي إغفال أشياء مثل الأواصر غير الرسمية أو العلاقات بين البيروقراطيين والتجار أو الصلات التي كثيراً ما توجد بين المسؤولين الحكوميين وضباط الجيش والتجار أو المالكين الآخرين من خلال العائلة أو العشيرة.

والملموسة أكثر، غالباً ما يحدث أن أحد أفراد العائلة الواحدة يكون كاسباً وآخر ضابطاً أو بيروقراطياً وآخر معلماً وهكذا. بكلمات أخرى، إن ما يشكل الوحدة الإنسانية للطبقة هو العائلة وليس الفرد. ولهذا السبب عاملت «الشريحة التجارية من الطبقة الوسطى» على أنها جزء من كل أوسع وذي معنى أكبر سياسياً.

ليس من باب المصادفة أنه في العقد الأول بعد الثورة، حين كان الضباط الأحرار يمسكون مقاليد السلطة النهائية، تمتع صغار التجار بتسهيلات أكبر منها في العهد الملكي من حيث الضمانات والقروض المصرفية، وشهدوا تحسن وضعهم المادي نتيجة خفض إيجارات المتاجر بنسبة بلغت 37 في المائة. وإن عبد السلام عارف وهو ضابط من الضباط الأحرار تولى رئاسة الجمهورية من 1963 إلى 1966 وخلفه شقيقه عبد الرحمن، وهو أيضاً من الضباط الأحرار، كانا ابني بائع أقمشة. وعلى الغرار نفسه، كان الأبرز من بين رؤساء وزرائهما، طاهر يحيى، ابن «علوجي» أو تاجر حنطة. ويمكن القول إلى حد ما أن حركة الضباط الأحرار كانت تمثل بصورة غير مباشرة مصالح العناصر التجارية والمتوسطة وخاصة ذات الأصل الريفي حديث العهد.

قد يبدو من الوهلة الأولى أن فهمي للشيوخ وفهم فيرني متباعدان تباعداً لافتاً. وهذا نابع في جزء منه من استعمالاتنا المختلفة لمصطلح «الشيخ». فلقد كانت هناك في العراق في العهد الملكي نحو 200 قبيلة وحوالي 3500 فرع قبلي. وأنا استخدمتُ لقب «الشيخ» للإشارة حصراً إلى زعماء القبائل. واستُخدم اللقب بهذا المعنى أيضاً في السجلات الرسمية البريطانية والعراقية. وكان يُشار إلى زعماء الفروع القبلية بوصفهم «شيوخاً صغاراً» أو «سراكيل» لأن السراكيل أو المسؤولين مباشرة عن الزراعة في أرض الشيخ كثيراً ما كانوا زعماء فروع قبلية أيضاً. وأنا أدرك أن تسمية «الشيخ» في الريف كانت تُستخدم استخداماً واسعاً وأحياناً عشوائياً. فإن رئيس الفرع القبلي، لإعلاء شأنه، كثيراً ما كان يسمي نفسه «شيخ» وهكذا كان يخاطبه أتباعه. وما كان ليكون ذا معنى من الناحية السوسيولوجية أن أجمع مثل هذا الرجل وزعيم قبيلة تحت عنوان واحد وأعاملهما كأنهما ينتميان إلى طبقة اجتماعية واحدة أو إلى فئة واحدة من فئات المكانة.

يشير روجر أوين Roger Owen إلى ثغرة هامة في كتابي. فهو يؤكد أن الدولة كمنظومة مؤسسات متفاعلة فيما بينها ليست موجودة في دراستي وليست هناك مناقشة تُذكر - إلا بطريقة عابرة - للسياسة الطبقية اليومية أو لدور السفارة البريطانية أو المستشارين البريطانيين. وأنا أتفق معه اتفاقاً تاماً. وأقر أيضاً بأن مثل هذه المناقشة، كما ينبغي أن يكون واضحاً من مساهمة أوين، كانت ستزيد فهمنا للبنية الاجتماعية والنفوذ السياسي النسبي للفئات والطبقات المختلفة، وكانت ستلقي كثيرا من الضوء على الدوافع الكامنة وراء السياسات الرسمية.

في الوقت نفسه كانت الدولة حاضرة بالعديد

من نواحيها في كتابي. وعلى سبيل المثال إني بتحليل المكونات المختلفة لطبقة الملاك الكبار أو التركيب الاجتماعي للوزارات أو البرلمان، كنت بمعنى ما أحلل الطابع الاجتماعي للدولة أيضاً. ومرة أخرى، فإن سياسات الدولة في فترات مختلفة تُناقش بقدر من الاستفاضة ولكن في الغالب من حيث آثارها البنيوية فقط. كما ينبغي أن نتذكر أن همي واهتمامي الرئيسي كان منصباً على الطبقات الاجتماعية المحلية ولهذا السبب أضفيتُ على البريطانيين طابعاً لا شخصياً أو عاملتهم كتجريد.

لم أستطلع قضية «الدولة الكولونيالية» لأنه لم تكن لدي المعلومات اللازمة لمناقشتها مناقشة ذات معنى. وعلى سبيل المثال إن وثائق السفارة البريطانية لفترة الخمسينيات التي استخدمها روجر لويس، لم تكن نشرت بعد للرأي العام. كما لم أتمكن وقتذاك من السفر إلى الهند حين حفظت سجلات السفارة عن فترات أسبق.

بقدر تعلق الأمر بمؤسسات الدولة الملكية كان إحساسي حينذاك أنه رغم ما كان لهذه المؤسسات من ثقل فإن ثقل الأفراد والجماعات كان أكبر بكثير، فحتى في وقت متأخر هو عام 1953، كما يكتب لويس، كان السفير السير جون تراوتبيك يشير إلى «الطابع المفتعل» للدولة العراقية بطريقة ربما لم تكن تخلو من المبالغة [9]. كما أن البيروقراطية نفسها كانت ذات حجم متواضع، فإن جميع موظفي الحكومة المشمولين بالتقاعد، باستثناء العاملين في السكك وميناء البصرة، كان عددهم لا يزيد على 3134 موظفاً في عام 1920 و9740 في عام 1938 و20931 في عام 1958 . وعلى النقيض من ذلك يبلغ عدد البيروقراطيين المشمولين بالتقاعد اليوم مئات الألوف. والأكثر من ذلك، حين تسلم نوري السعيد رئاسة الوزارة في عام 1930 عمد إلى تسريح الموظفين «غير الأكفاء» وتعيين أزلامه في العديد من المناصب الهامة. وفعل الشيء نفسه حين عاد إلى السلطة في عام 1939 وحذا رؤساء وزراء آخرون حذوه، وكان البرلمان نفسه في أكثر الأحيان أقرب إلى الختم الذي تذيل به قرارات متخذة أصلا. لذا فإن مصدر السياسة الداخلية بعد عام 1930 ليس مشكلة حقيقية.

يركز عبد السلام يوسف على الجذور والسمات الثقافية للثورة العراقية. وهو يبين أن هذا الحدث العظيم مر بفترة اختمار مديدة ثقافيا، وينجح في نقل الإحساس بأهمية الماركسية في العمل المتواصل للنقد الثقافي الذي سبق قيام الثورة. فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية أشاعت الماركسية بصورة متزايدة أجواء أيديولوجية واسعة الانتشار تركت بصمتها حتى على خطابية خصومها وصورتهم وطريقة تفكيرهم، وبالتالي أسبغت على الثورة أهمية عاطفية بالغة. ويربط عبد السلام نفوذ الماركسية جزئيا بنجاح دعاتها في نسبها إلى تقاليد شعبية محلية. وإذ ينتقل إلى آثار الثورة الثقافية يشير إلى عملية «دمقرطة الثقافة» التي أطلقتها موسعة فرص التعليم وإمكانية التمتع بثمار الثقافة إلى جانب ما أوجدته من أشكال تعبير جديدة مثل كتابة الشعر أو النثر الراقي باللغة المحلية. كما يلفت الانتباه إلى استخدام الثورة رموزا ثقافية مثل شخصية «المفكر السجين» أو «نصب الحرية»، كان لها دور في تكوين التصورات الشعبية. ويرى عبد السلام أن الثقافة السياسية التي ارتبطت بالثورة لم تصمد أمام صعود

البعث إلى السلطة: حملة التنكيل التي شنت ضد المثقفين الماركسيين وحلفائهم وهروب أكثر من 700 مثقف عراقي للعيش منفيين ساهما في «إفقار الثقافة العراقية» [10].

في فصله المعلل تعليلا محكما يناقش سامي زبيدة الدور الذي قام به في السياسة العراقية - خاصة في الفترة التي سبقت ثورة 14 تموز وبعدها مباشرة - «نمط» الوعي والتضامن الذي رأى الشخصية بوصفها «جماعاتية» راسخة في الدين أو الطائفة أو الاثنية أو القبيلة أو المنطقة. كما يحاول أن يقتفي العلاقات بين هذه وأشكال أخرى من الولاء مثل تلك القائمة على الطبقة أو الانتماء العراقي أو العربي أو الكردي أو إلى الأمة الإسلامية الأوسع. وهو يميز تمييزاً مشروعاً بين العمل «الطائفي» التقليدي الذي كان موجها نحو مصالح «طائفية» محضة والعمل السياسي في سياق تاريخ العراق الأحدث عهدا، الذي لم يكن إلا عملا مشروطا بخبرات ومنظورات «طائفية». إن التعميمات التي يجريها والتي تنبثق بصورة طبيعية من هذا التمييز، تفرض الاتفاق معه وتؤكدها الحقائق التاريخية.

لدي ممانعة من الاتفاق التام مع تعميم زبيدة الذي يذهب إلى أن «الطائفية» أعيد بناؤها في ظل البعث ... على أسس مناسبة للوضع الحالي [11].

صحيح أن قمة هيكل السلطة الحالي تنهض بدرجة كبيرة على تضامنات أساسها المنطقة والقرابة. وصحيح أيضا أن المسافة بين الأكراد والنظام قد اتسعت. لكن صدام حسين ربط الشيعة ربطا أجدى بنظام حكمه وشمل مناطقهم بالمنافع الاقتصادية والأكثر من ذلك أنني ميال إلى الرأي القائل أن الحرب العراقية الإيرانية رغم كل سلبياتها قربت بين الشيعة والسنة كما قربتهم ثورة العشرين وثورة 1958 - وربما أزمة 1990 الحالية - ولو فقط بحكم معاناتهم المشتركة وأنها ساهمت في تقدم العراق نحو التلاحم الوطني.

Notes

1. Pieter Geyl, Napoleon: For and Against (London, 1949), pp. 15-18.
2. The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq (Princeton, 1978), p. 5. Hereafter Page references are given in the text.
3. See my articl “Iraq’s Underground Shi’s Movements Characteristics, Causes, and Prospects”, Middle East Jornal, vol. 35, 4 (autumn 1981), pp. 586-87.
4. See Wm. Roger Louis, “The British and the Origins of the Iraqi Revolution”, p. 52, n. 81 above.
5. See Abdul-Salaam Yousif, “The Struggle for Cultural Hegemony during the Iraqi Revolution”, p 181, n. 26 above.
6. See Frederick W. Axelgard, “US Support for the British Position in Pre-Revolutionary Iraq”, p. 87, n. 24 above.
7. See Nicholas G. Thacher, “Reflections on Us Foreign Policy towards Iraq in the 1950s. 74 above.
8. George F. Kennan, American Diplomacy, 1900-1950 (New York, 1952), p. 92.
9. See Louis, “The British and the Origins of the Iraqi State”, p. 36 above.
10. See Yousif, “The Struggle for Cultural Hegemony”, pp. 179 and 185 above.
11. Sami Zubaida, “Community, Class and Minorities in Iraqi Politics”, p. 209 above.

* (الثقافة الجديدة)، العدد 298/ تشرين الثاني 2001

نصوص مترجمة

العبودية الطوعية

رودولف غوين*
ترجمة وإعداد: نجاة تميم

تقدم نظرية العبودية الطوعية إجابة لسؤال سياسي: لماذا يطيع الأفراد حكامهم؟

لا يهمنا فقط طرح مشكلة قبول السلطة القامعة للحرية، بل تناول لغز المهيمِن والمهيمَن عليهم في كل الأنظمة"[1]. ما نحتاج إلى توضيحه هو آليات الطاعة الغامضة، من خلال تلك الأكثر غموضًا في الخضوع، طاعة الأفراد المتواطئين في حالة العبودية الخاصة بهم. وبالتالي فإن العبودية الطوعية ليست سوى نوع من الطاعة يصعب فهمها بشكل خاص، لأنها تعتبر تواطؤا مع حالتنا الخاصة من حرماننا من الحرية. لنكتشف معا أصول هذا الخضوع المقبول، ومن ثَمَّ إلقاء الضوء على آلية الطاعة بأكملها.

من خلال تجاوز بعض الجوانب لثيمة العبودية الطوعية التي تعتبر موضوع الساعة، فإن مستوى التحليل سيكشف بأن العبودية الطوعية لا تتعلق بالعلاقة بين الأفراد، بل بالسلطة السياسية داخل المجتمع. لقد تمت صياغة هذا المصطلح لأول مرة في القرن السادس عشر من قبل إتيان دو لا بويسي Étienne de La Boétie (1530-1563) في خطابه الشهير[2]. إذا كانت السنة المحددة لاكتمال هذا الخطاب غير معروفة، فمن المتفق عليه عمومًا أن تاريخه يعود إلى الأعوام 1552-1553، وذلك بسبب تلميحات رونزارد أو دو بلِاي أو بايف، كما ذكر ميغيل أبينصور ومارسيل غوشيه في مقدمتهما لهذا العمل [3]. أعطى Michel de Montaigne (1533-1592) وهو صديق مقرب للمؤلف، تاريخين مختلفين لكتابة هذا الخطاب؛ 1546 و1548. وقد قام بذلك، ربما حتى لا يُختزل الخطاب في عمل

ظرفي، (قمع وبشدة ثورة ضريبة الملح في منطقة غويان، عام 1549، من قبل الملك هنري الثاني)، حيث قام بتصحيح التأريخ الأول لعام 1548 لتقديمه لمدة عامين. بعد ذلك، تم تداول النص من قبل دائرة صغيرة من الإنسانيين. وبعد وفاة لا بويسي La Boétie ، أعد مونْتينْي عملاً كان ينوي إدراج الخطاب فيه. لكن أنصار الكلفانيين نشروا أول نسخة مقرصنة جزئية ومجهولة المصدر في عام 1574، ثم نسخة كاملة في عام 1576 تحت اسم لا بويسي La Boétie ، بعنوان "ضد الشخص الواحد Le Contr'Un". بعد ذلك، رأى النور إصدار طبعات أخرى في وقت لاحق، اعتمادًا على الأحداث التاريخية، لا سيما في عامي 1789 و1835، ثم بشكل أكثر انتظاما حتى اليوم.

لقد تناول العديد من الفلاسفة وباحثو العلوم الاجتماعية مسألة الهيمنة المقبولة تحت عبارات مختلفة. ومع ذلك، فمن المناسب التمييز بوضوح بين المؤلفين من بينهم التعاقديون les contractualistes، الذين سعوا للبحث عن أسس الطاعة وبعبارة أخرى عن مبرراتها (في نظام القانون أو العدالة)، وآخرين بحثوا في الأصل، أي أسباب هذا الخضوع (حسب ترتيب الوقائع)، من خلال إنتاجهم لنظرية العبودية الطوعية أو الهيمنة. ومن ثم فإن تحليلات حنة آرندت للنظام الشمولي كنظام قائم على دعم الجماهير[4]، أو نظرية ميشيل فوكو حول السلطة[5]، كان لهذه التحليلات، مكانها في العمل الذي يهدف إلى تأسيس نظرية عامة للعبودية الطوعية. هدفنا هنا أقل طموحا بكثير؛ فالأمر يتعلق فقط بتقديم النظرية الأصلية التي اقترحها لا بويسي La Boétie وفهم ما يميزها عن بعض النظريات الشهيرة الأحدث بشأن الهيمنة. ما الذي يميز العبودية الطوعية الأصلية عن السيطرة المشروعة التي نظر إليها ماكس فيبر، وعن الاستغلال عند كارل ماركس وفريدريك إنجلز، أو عن الخضوع عند لوي ألتوسير، أو عن العنف الرمزي عند بيير بورديو؟ تشترك كل هذه النظريات في فكرة أن المهيمَن عليهم متواطئون في هيمنتهم. ومن ثم فإن المنهج المقارن يمكننا من تسليط الضوء على الخطاب من خلال المواجهة مع مفاهيم ومقاربات تبدو متشابهة.

تفسيرات العبودية الطوعية عند La Boétie

يبدأ عمل لا بويسي La Boétie بهذا السؤال: "كيف يمكن أن يتحمل هذا العدد الكبير من الرجال، والعديد من المدن، والعديد من الأمم، في بعض الأحيان، كل شيء من طاغية واحد، ليس لديه قوة أخرى غير تلك التي نمنحه إياها، والذي لا يملك القدرة على إيذائنا إلا ما دمنا على استعداد لتحمله، والذي لا يستطيع أن يؤذينا إذا لم نفضل تحمل المعاناة منه، بدلاً من معارضته؟"[6].

أنْ يطيع الشعب شخصا واحدا فقط لأن الأخير يفعل خيرا، فهذا يبدو شيئا معقولا للكاتب، وهو ليس محل شك هنا. لكن عندما يكون هذا الشخص هو سبب مصائب الشعب، وبمعنى آخر، قامع للحريات، كيف يمكن أن نفسر استمرار هذه الطاعة؟ وكما كتبت سيمون. ويل : Weil "عندما ينتشر الموت تشرق معجزة الطاعة أمام العيون"[7] . بمعنى آخر، هذه المعجزة موجودة في أي موقف من مواقف السلطة، لكنها لا

تثير الاهتمام والتحليل إلا في إطار انتهاك الحريات. يستبعد لا بويسي La Boétie ، من البداية "الجبن" و"الخوف"[8]، وذلك لأن مليون رجل لا يمكن أن يهابوا رجلا واحدا. علاوة على ذلك، ففكرة مقاتلة الطاغية غير واردة، وذلك "لأنه مهزوم، في حال لم يوافق الشعب على هذه العبودية"[9]. هدف الكاتب إذن هو فهم "كيف كانت هذه الرغبة العنيدة في الخدمة متجذرة بعمق لدرجة تجعل المرء يعتقد أن حب الحرية في الواقع ليس أمرًا طبيعيًا"[10]. إن لا بويسي، أراد، بطريقة ما، أن يقدم لقرائه مقالا عن علم الاجتماع التاريخي أكثر بكثير من مجرد مقال أنثروبولوجيا. في الواقع، لم يكن الأمر دائمًا على هذا النحو؛ فالانتقال إلى حالة العبودية الطوعية، كما يقول الأنثروبولوجي الفرنسي (1934 - 1977) بيير كلاستر Clastres، هي "محنة، حادث مأساوي، بداية سوء حظ يستمر آثاره في التفاقم إلى درجة أنه يلغي ذاكرة الماضي، فيحل حب العبودية محل الرغبة في الحرية"[11]. ومع ذلك، فإن الخطاب لا يتناول لماذا جُرد الإنسان من طبيعته، بل "كيف يدوم سوء الحظ إلى درجة أنه يبدو أبديًا؟"[12].

التفسير الأول الذي يقدمه لا بويسي

La Boétie للعبودية الطوعية هو العادة. ويقول؛ إذا كانت الحرية طبيعية، وإذا "ولدنا أحرارا، ولدينا أيضًا الرغبة للدفاع عن هذه الحرية"(13)، فإنه يلاحظ أن التربية، مع ذلك، لها أهمية كبيرة جدا. هكذا فإن "العادة التي لها تأثير كبير، في كل شيء، على جميع أفعالنا، لديها أيضا وقبل كل شيء القدرة على تعليمنا الخدمة: "إنها هي التي، على المدى الطويل، تنجح في جعلنا نبتلع، دون اشمئزاز، سمَّ العبودية المرير"(14). إن لا بويسي La Boétie يُميّز الجيل الأول من الرجال، الذين تعرّضوا ضد إرادتهم وبالقوة للخضوع، عن الأجيال اللاحقة التي ولدت في حالة عبودية، والتي "تعتبر حالتها الطبيعية هي الحالة التي ولدت بها"[15]. فهذه الأجيال، بحسبه، لم تعرف الحرية أبدًا، وبهذا لا يمكن أن يكون لديها أي فكرة عما حُرمت منه. لذلك، فإن التفسير الأول للعبودية الطوعية، كما نقول اليوم، هو تفسير معرفي. والأكثر من ذلك، فهو تفسير بنائي، حيث أن الواقع الاجتماعي المتصوّر مَبنيٌ بشكل جيد من قبل الأفراد وليس مُعطى في حد ذاته. وكما سنرى لاحقاً، فإن هذه الخاصية مشتركة بين العديد من نظريات الهيمنة.

أما التفسير الثاني الذي انتقاه الكاتب من تاريخ البشرية فهو حيلة الطغاة. عند حرمان الرجال من الحرية، يفقدون شجاعتهم والطاقة اللازمة للنضال من أجل الهروب من العبودية. لكن الطغاة يعرفون جيدًا كيف يستغلون هذا الضعف ويسعون دائمًا إلى جعل الرجال أضعف وأكثر جبنًا. الخبز والألعاب والترفيه هي الوسائل الرئيسية المستخدمة "لإخضاع الرعية للعبودية"[16]. إن خطابات الطغاة أو التباهي بالرموز تعمل بنفس الطريقة على كسب الثقة وإثارة الإخلاص وضمان السلام الاجتماعي. لذلك يحافظون على عادة العبودية.

أما التفسير الثالث المقترح، والذي يعتبره الكاتب "سر الهيمنة وربيعها، وسند كل طغيان وأساسه"(17)، فهو ما يمكن أن نطلق عليه الانتهازية - التي يسميها لا بويسي La Boétie حجة سلسلة المكاسب. أربعة أو خمسة رجال يقدمون المشورة للطاغية

وذلك لإفساده وتوجيه أفعاله نحو المزيد من الأرباح التي يتقاسمونها معه. وهم بدورهم، يفسدون بالمثل، ما بين 500 إلى 600 رجل آخر تحت إمرتهم، وذلك من أجل كسب ولائهم، وهؤلاء يفعلون الشيء نفسه مع الآخرين، وهكذا حتى أدنى درجات المجتمع. ”ومن أراد أن يتتبع أثر هذه السلسلة، سيرى أن ليس ستة آلاف بل مائة ألف، ملايين يَنْظمون إلى الطاغية عبر هذه القناة ويشكلون بينهم سلسلة متصلة تعود إليه. باختصار، من خلال المكاسب وحصص الربح التي سيحققونه، نصل إلى نقطة مفادها أن هناك في النهاية عددًا من أولئك الذين يستفيدون من الطغيان، يوازي عدد الذين تهمُّهم الحرية“[18].

ولنؤكد أن المكاسب المذكورة هي مكاسب في السلطة والجاه أكثر منها في الثروة. ولذلك يفكر كل منهم في إجراء حسابات التكلفة/المنفعة لعبوديته وينتهي به الأمر إلى العثور على مكسب كافي. ”الكسب“ في السلطة هو في الحقيقة وهْم، لأنه مبني على جهلِ ثمنِه، هو الطاعة للتراتبية، أي لمن أعلى منه. حسب قول لا بويسي La Boétie ، إن استخدام الطاغية للقوة ليس تفسيرًا صالحًا: ”ليست العصابات الممتطية خيولا، أو جيشا من المشاة، باختصار، ليست الأسلحة هي التي تدافع عن الطاغية، ولكن دائمًا أربعة أو خمسة رجال يؤيدونه ويُخضعون له البلاد بأكملها“[19]. وبحسب الكاتب، فإن تفسيراته الثلاثة للعبودية الطوعية ليست بنفس القدر من الأهمية. يتم تقديم سلسلة المكاسب على أنها الأكثر جوهرية، ثم تأتي العادة وبعد ذلك حيلة الطاغية، المرتبطة بسابقتها. إذا كان هذا الاعتماد التفسيري بين الحجتين الثانية والثالثة لا يمكن التشكيك فيه، ”السبب الذي يجعل الناس يخدمون طوعًا هو أنهم ولدوا أقنانًا وأنهم نشأوا في العبودية [حجة العادة]. من هذا يتبع بطبيعة الحال شيء آخر؛ في ظل الطغاة، يصبح الرجال بالضرورة جبناء وخانعين [حجة حيلة الطاغية]“[20]، ومن ناحية أخرى، يبدو أن حجة سلسلة المكاسب ليست أساسية كما قدّمها الكاتب. فهي مبنية على وهم حساب عقلاني يقوم به الرعايا؛ فهم يعتقدون أنهم وجدوا مصلحة لعبوديتهم من خلال المكاسب التي يتلقونها جراء إخلاصهم لرؤسائهم ومن خلال الذين يخضعون لهم في جني الأرباح. بينما وكما يفسر الكاتب، كلما اتجهت تراتبية هذه السلسلة نحو الأسفل، كلما اقتربنا أكثر من الشعب وسيكون بذلك حجم الأرباح أقل أهمية. فهؤلاء وهم يمثلون الأكثرية، لن يكسبوا شيئا. فكيف يمكننا إذن أن نفسر مثل هذا الحساب غير العقلاني، وبأن خسارة ما هو أكثر قيمة، الحرية، لا يتم تعويضه بأي مكسب؟ ويبدو لنا أن الحل هو ما يلي؛ الحرية ليس لها ثمن بالنسبة لهم، وذلك لأنهم اعتادوا، على وجه التحديد، على العبودية ونسوا طبيعتهم الحقيقية. وبالتالي فإن التفسير العقلاني لسلسلة المكاسب سيعتمد في الحقيقة على تفسير أكثر جوهرية، هو تفسير العادة.يمكن إضافة عنصر أخير، على الرغم من أنه لم يتم تقديمه بشكل صريح من قبل الكاتب؛ وهو عنصر ”اسم الواحد“

le nom d UN‘، الذي أبرزه الفيلسوف الفرنسي كلود لُفور (1924 - 2010) في مقالته المنشورة عن دار بايو لعام 1976 وصممها ميغيل أبينصور[21]. والفكرة، هي أن العبودية الطوعية يُمكن تفسيرها، أكثر بكثير من خلال العادة، ”بالسحر أو الانبهار“

الذي يولده "اسم الواحد" (أي اسم الطاغية) في أذهان الناس، بمعنى آخر، أي الانجذاب إلى السلطة لأنها تجسد وحدة (خيالية) للجسم الاجتماعي:

"ما اثارته العبودية الطوعية يمكننا الآن التعرف عليه بشكل أفضل؛ هو حب الذات، والنرجسية الاجتماعية. مع العبودية، دمَّر سحر اسم "الواحد" صياغة اللغة السياسية. فالناس تريد أن تتم تسميتها باسم طاغية، الاسم الذي يُلغى به الفرق بين هذا وذاك ويُلغى به لغز الانقسام الاجتماعي، ويُؤجل به اختبار الاعتراف إلى أجل غير مُسمى، ويصبح اسمه المحبوب هو الاسم الذي يظل الجميع متمسكا به، لئلا يصبحوا لا شيء"[22].

إذا كان من الممكن قبول هذا التفسير للخطاب كونه يقدم تفسيرًا إضافيًا للعبودية الطوعية، فمن ناحية أخرى، فإننا نشكك في تطورات "لُفور" حول عدم أهمية حجة العادة[23] وأيضًا في فهمه تفسير حجة سلسلة المكاسب، التي يربطها مباشرة بالانبهار الذي يمارسه اسم الواحد –le Un :

"السر، لغز الهيمنة، يكمُن في رغبة كل شخص، مهما كان مستوى التسلسل الهرمي الذي يشغله، للتماهي مع الطاغية من خلال جعل نفسه سيدًا على شخص آخر. إذا كان صحيحًا أن هناك سيدًا واحدًا فقط يكون جميع الناس عبيدًا له، فإن هذه الحقيقة تُغطي أخرى؛ عبودية الجميع مرتبطة برغبة كل منهم في أن يحمل اسم الواحد قبل الآخر. إن تخيل الواحد لا يقتصر فقط على تخيل شعبا مُجتمعا، بل هو في الوقت نفسه تخيل كل رجل، طاغية (مُصغّرا)، في المجتمع"[24].

وكما أظهرنا أعلاه، فإن هذه الحجة تعتمد في الواقع، في رأينا، على الحجة الأكثر جوهرية وهي العادة.

الهيمنة الشرعية

ما هي قيمة تفسيرات لا بويسي La Boétie ، بعد مرور أربعة قرون ونصف؟ هل تم اقتراح نظريات منافسة أخرى حول العبودية الطوعية، وهل تتناغم مع تفسيرات لا بويسي La Boétie ؟ سنحتفظ هنا بأربعة أمثلة لنظرية الهيمنة؛ نظرية ماكس فيبر، والنظرية الماركسية بنسختيها الأصلية والألتوسيرية، ونظرية بيير بورديو. إن مواجهة هذه النظريات، التي تشترك على ما يبدو في فكرة تواطؤ المهيمَن عليهم في هيمنتِهم، ستسمح بتوضيح، على الجانب الآخر، ما سيلقي المزيد من الضوء على نظرية La Boétie.

أن تكون طوعًا في حالة من العبودية يعني، بعبارة أخرى، قبول الهيمنة التي تعاني منها حاليًا. أليس هذا بكل بساطة تعريف فيبر للشرعية؟ يُنظر إلى هذا، في الواقع، على أنه اعتراف بالسيد (Herr) وبالتالي طاعته. في هذا، يتم تمييز الهيمنة (Herrschaft) عن القوة البسيطة (Macht)، وهي مجرد فرصة أن يخضع الفرد لطاعة شخص آخر، دون الإشارة إلى الحقيقة الأساسية المتمثلة في أن الشخص الذي يطيع يعترف بعلاقة القوة هذه ويقبلها. ظاهريًا، يمكن مقارنة حالة الهيمنة بالعبودية الطوعية عند La Boétie.

فما هي الأسباب بالنسبة لفيبر؟

سيكون من الخطأ الرد على عجل بأن العبودية الطوعية تعمل بثلاث طرق، والتي من شأنها أن تتناول الأنواع الثلاثة الشهيرة للهيمنة؛ الطرق التقليدية، والكاريزمية،

والعقلانية القانونية. في الواقع، وفقًا لنظرية المعرفة الفيبرية، فإن هذه المفاهيم الثلاثة هي أنواع مثالية، وبعبارة أخرى مفاهيم تحليلية، وأشكال صافية لا توجد أبدًا في حالتها الخام في التاريخ. ولذلك يفسر عالم الاجتماع هذا الهيمنة الحقيقية على أنها مزيج من هذه الأنواع الثلاثة ضمن الدوافع النفسية للفاعلين، والتي يجب فهمها على وجه التحديد. هل نظرية الهيمنة الفيبرية مجرد إحياء للنظرية الأصلية للعبودية الطوعية؟ يبدو أن المظاهر خداعة؛ لأن العادة قد تتوافق للوهلة الأولى مع الهيمنة التقليدية، وخدعة الطاغية للجماهير مع تحقيق الهيمنة الكاريزمية، كما أن سلسلة المكاسب، كتفسير عقلاني للغاية، ستتوافق مع الهيمنة العقلانية. إن هذه الترابطات، هي في الواقع، عرضية. بالفعل، يفترض علم الاجتماع الشامل لفيبر أن الفاعلين يمكنهم، إذا كان لديهم وقت الفراغ والرغبة، أن يُقدموا بأنفسهم الأسباب التي دفعتهم إلى هذا الفعل. وبالتالي سيُظهرون، في الحالة الأولى، رغبتهم في اتباع التقاليد. وهذا ما يرفض لا بويسي La Boétie ، على وجه التحديد، التفكير فيه، وهو الذي يصر على حقيقة أن حالة الخنوع لا يمكن بأي حال من الأحوال التشكيك فيها من قبل الأفراد الذين ولدوا في هذه الحالة. لقد نسوا طبيعتهم ككائنات حرة. ولذلك يبدو أنه لا توجد عودة انعكاسية ممكنة في حالتهم. يمكننا أن نناقش إلى ما لا نهاية مسألة تشاؤم لا بويسي La Boétie أو تفاؤله فيما يتعلق بإمكانية استعادة الرجال لحريتهم، حيث أن هناك عناصر في النص تميل في اتجاه أو في آخر. مع P. Clastres وربما أيضا مع C. Lefort، سنفهم ذلك أكثر باعتباره يؤدي إلى ملاحظة تجريد الإنسان من طبيعته. على أية حال، ليس لنظرية العادة في خطاب لا بويسي La Boétie أي شيء مشترك مع احترام فيبر المتعمِّد للتقاليد.

أما تفسير الكاريزما فلا يتطابق أيضًا مع تفسيرات لا بويسي La Boétie، وذلك لأن الطاغية عمومًا هو "الأكثر جبنًا، وأشرس الناس، وأكثرهم خنوعا في الأمة، وهو الذي لم يشم رائحة بارود المعارك، لكنه بالكاد داس رمال البطولات"[25]. وبالتالي، يجب عليه أن يكون ماكرًا وأن يعمل بجد لخلق الإخلاص والتفاني لشخصه. أما بالنسبة إلى فيبر، فإن الكاريزما تعتبر شيئا مختلفا تماما: فهي "الميزة الاستثنائية لشخصية تتمتع، إذا جاز التعبير، بالقوة أو بالخصائص الخارقة للطبيعة، أو فوق طاقة البشر، أو على الأقل تتمتع بما هو خارج الحياة اليومية، أي غير متاح للناس العاديين، أو تُعد هذه الشخصية إما مرسلاً من الله أو قدوة وبالتالي تعتبر قائداً"[26].

أما التفسير الثالث، وهو سلسلة المكاسب والذي يرتكز عليه الحساب العقلاني لكل شخص، فلا علاقة له بالهيمنة القانونية العقلانية التي تجد أساسها في الاحترام الواعي والطوعي للقانون وقواعده. لذلك يسعى فيبر للإجابة على نفس السؤال الذي طرحه لا بويسي؛ ما هي الينابيع التفسيرية للطاعة وللهيمنة في بُعدها المتمثل في القبول؟ لكن ردود الأول لا تشكل بأي حال من الأحوال تكراراً لأطروحات الثاني.

الأيديولوجيا

لقد صاغ تيار الماركسية نظرية مختلفة تمامًا للهيمنة. يمكننا التمييز بين نسختين؛ نظرية

كارل ماركس وفريدريش إنجلز، وبعد أكثر من قرن من الزمان، نظرية لوي ألتوسير. والمفهوم المركزي لتحليلاتهم هو مفهوم الأيديولوجيا. بالنسبة إلى الآباء المؤسسين للمادية التاريخية، وهو العلم الذي يجب أن يكون قادرًا على اكتشاف الينابيع الأساسية للعلاقات الاجتماعية، من الضروري محاربة الوعي الزائف لدى الأفراد عن الواقع. هذا الوعي الزائف هو أيديولوجيا، جسّدها بشكل رئيسي هيغل وتلاميذه المثاليون وتبنّتها برجوازية القرن التاسع عشر. الأيديولوجيا هي عكس العلاقات بين الوعي والحياة. بالنسبة إلى هيغل، يتجلى الواقع في الوعي؛ وهي الأطروحة المركزية لمنظوره الظاهراتي (الفينومنولوجي). فالعقل l'esprit إذن هو القوة الدافعة للتاريخ، لأنه ينتج الواقع. ينوي ماركس وإنجلز عكس هذه العلاقة حرفيًا: "ليس الوعي هو الذي يحدد الحياة، بل الحياة هي التي تحدد الوعي"[27]. وهذا الأخير هو مُنتج اجتماعي، يُنتج عن علاقات الإنتاج التي تشكل العلاقات الاجتماعية. إن الأيديولوجيا تخفي الواقع من خلال قلب العلاقات الحقيقية؛ فهي تخفي مصالح الطبقة الحاكمة تحت شعار المصلحة المشتركة. ولهذا السبب يعلن واضعو "البيان الشيوعي" ما يلي:

"ما الذي يبينه تاريخ الأفكار، إذا لم يكن الإنتاج الفكري الذي يتحول مع الإنتاج المادي؟ إن الأفكار السائدة، في عصر ما، لم تكن سوى أفكار الطبقة الحاكمة"[28].

في الواقع، تفرض المثالية والبرجوازية هيمنتهما من خلال نشر أيديولوجيا (البنية الفوقية) والتي هي فكرة زائفة عن الواقع، زائفة لأنها منفصلة عن علاقات الإنتاج (البنية التحتية). وهنا نجد حدسًا قريبًا من نظرية العادة عند La Boétie؛ فالبروليتاريون لا يدركون أن حالتهم هي حالة المهيمَن عليهم، تمامًا كما لا يدرك الأفراد الخاضعون للطاغية مدى خنوعهم. الحالة التي تبدو طبيعية، وعادية بالنسبة لهم هي حالتهم الحالية؛ لذلك فإن التشكيك في ذلك أمر غير معقول بالمعنى الأساسي. ومع ذلك، على عكس مؤلف الخطاب، فإن ك. ماركس وف. إنجلز لا يستبعدان استخدام القوة للحفاظ على الهيمنة، بل على العكس تمامًا[29] . إن القمع والقيود والتهديد الجسدي هي أيضًا من أدوات البرجوازية.

ومع ذلك، فإن هذين المؤلفين أقل تشاؤما بشأن إمكانيات التغيير من La Boétie. يمكن للبروليتاريا أن تدرك وضعها الحقيقي إذا دفعتها الطليعة المستنيرة إلى القيام بذلك. وهذا هو دور الشيوعيين. تجدر الإشارة إلى فرق ثانٍ؛ إنهما لم يسعيا إلى شرح سبب هذه الهيمنة أو مصدرها بدقة. من الذي ينتج الأيديولوجيا، وكيف يعمل الوعي الزائف، كلها أسئلة لم تتم الإجابة عليها. ألتوسير هو من سيفعل ذلك[30].

الخضوع

إذا كانت نظرية العادة تفسِّر إلى حد كبير الهيمنة، يبقى علينا أن نوضح من أين تأتي هذه العادة. بالنسبة إلى La Boétie، فإن نسيان الحرية هو الذي يتم الحفاظ عليه في الأصل من خلال خدعة الطاغية. أما بالنسبة إلى ألتوسير، فإن خدعة الرأسمالي هي التي تخلق منذ البداية الظروف اللازمة لعادة الهيمنة. الأيديولوجيا ليست مجرد حجاب، أو مجموعة من التمثلات السلبية، إنها قوة

ملموسة وفعالة تشكل العقول والسلوكيات. إنها بالتأكيد وهمٌ بالمعنى الذي قصده ماركس وإنجلز، وهو تصور للعالم لا يتوافق مع الواقع، لكن ألتوسير يضيف أنها تلميح يشير إلى الواقع. إن ما يمثله الأفراد في الأيديولوجيا ليس الظروف الحقيقية لوجودهم، بل علاقتهم بهذه الظروف، علاقتهم بعلاقات الإنتاج. فالعملية كالتالي؛ الأيديولوجيا هي جزء من الممارسات، من الطقوس التي تحددها أجهزة الدولة الأيديولوجية (المدرسة، الكنائس، الأسرة، القانون، النظام السياسي، وسائل الإعلام، وما إلى ذلك):

"المدرسة (وكذلك مؤسسات الدولة الأخرى مثل الكنيسة، أو غيرها من الأجهزة كالمؤسسة العسكرية) تقوم بتلقين "المعرفة العملية"، ولكن بأشكال تضمن الخضوع للأيديولوجيا المهيمِنة، أو إتقان "ممارستها". فيكون بذلك جميع وكلاء الإنتاج والاستغلال والقمع، ناهيك عن "محترفي الأيديولوجيا" (ماركس)، "مخترقين" بطريقة أو بأخرى بهذه الأيديولوجيا، وذلك من أجل القيام بمهمتهم بوعي – سواء كمستَغلَّين (بروليتاريا)، أو كمستغِلين (الرأسماليين)، أو كوسطاء الاستغلال (الأطر) أو ككهنة كبار للإيديولوجيا السائدة ("موظفيها")"[31].

الهدف من هذه الأجهزة هو إنتاج رعايا، أي تشكيل الأفراد بالشكل المطلوب. وبهذا تؤدي الأيديولوجيا وظيفتين: وظيفة الاعتراف، التي من خلالها تتعرف الذات على العالم من حولها باعتباره أمرا بديهي، وتتعرف على نفسها كذات في هذا العالم (فهو أب، وعامل، ومؤمن، وما إلى ذلك) وباعتبارها انعكاسًا لذات Sujet متعالية خلقتها الأيديولوجيا (الله، الأمة، الإنسانية، البروليتاريا)، مما يضْمن هويتَها، بنفس طريقة تناولَ لُفور لاسم الواحد في تعليقه على الخطاب؛ وهي وظيفة سوء الفهم التي تخفي عن الذات الآلية العميقة التي ينطوي عليها هذا الاعتراف، والغرض منه هو الهيمنة. الاعتراف يُنتج الذات، والجهل يحجُب عن الذات خضوعَها. ما يضيفه ألتوسير إلى نظرية ماركس وإنجلز هو الدور النشط والمستقل تقريبًا للبنية الفوقية على البنية التحتية؛ الأيديولوجيا تضمن إعادة إنتاج علاقات الإنتاج، وتضمن الهيمنة الاجتماعية. بمعنى آخر، فهو يقترح نظرية أكثر اكتمالًا للهيمنة، تتماشى مع نظرية La Boétie.

في الواقع، تفسير العبودية الطوعية بنظرية العادة موجود تمامًا في الاعتراف والخضوع الألتوسيري. إن خدعة الطاغية التي تحافظ على وعي كاذب هنا تأخذ شكل أجهزة الدولة الأيديولوجية. فقط تفسير سلسلة المكاسب لا يجد نظيرًا واضحًا. من المحتمل أن يجيب ألتوسير بأن المكاسب المتصوّرة على هذا النحو هي تأثير الأيديولوجيا، وأن أهميتها السببية مشروطة بحجة الوعي الزائف (وهذا يرتبط بالنقد الذي تناولناه أعلاه بشأن التسلسل الهرمي للتفسيرات التي اقترحها La Boétie). ومع ذلك، مثلما فعل ماركس وإنجلز، فإنه يفسح المجال للقمع، لاستخدام القوة، وهي وظيفة أجهزة الدولة القمعية (الحكومة، الإدارة، المحاكم، الشرطة، الجيش، السجون، إلخ). الاختلاف الرئيسي الأخير مع لا بويسي هو أنه بالنسبة لألتوسير، إذا لم نترك وللأبد الأيديولوجيا، إذا لم نعيد اكتشاف وعي حالتنا الطبيعية (حالة الإنسان الحر)، فذلك لأن هذه الحالة لا وجود لها. إننا نترك، دائمًا، أيديولوجيا لتحل أخرى محلها

بمجرد سيطرة قوة اجتماعية جديدة على أجهزة الدولة الأيديولوجية. إن حيّل الطاغية هي بالفعل سبب للعبودية الطوعية، ولكن في عالم تسود فيه، بالضرورة، العادة.

في القرن العشرين، اقترح العديد من المؤلفين عناصر لتفسير العبودية الطوعية (من بين آخرين مدرسة فرانكفورت وميشيل فوكو) ولكن دون إنشاء نظرية كاملة للهيمنة. واحدة من أفضل الأفكار التي جعلت هذا السؤال محور بحثه هي بلا شك فكرة بورديو. إذا كانت العبودية الطوعية تأخذ اسم الهيمنة من قبل ماكس فيبر، أو الخضوع من قبل ألتوسير، فإن المفهوم المركزي هنا هو مفهوم "العنف الرمزي":

العنف الرمزي

إن العنف الرمزي، بكل بساطة، هو "ذلك الشكل من العنف الذي يُمارَس على الفاعل الاجتماعي بتواطؤه"[32].

تحدد هذه الصيغة بوضوح العلاقة مع مسألة العبودية الطوعية. سيكون ذلك، بالمصطلحات البورديوسية، عبودية متواطئة. لكن الكاتب يوضح مرارا وتكرارا كيف أن موافقة الشخص المهيمَن عليه ليست بأي حال من الأحوال عملا من أعمال إرادته: "العنف الرمزي هو ذاك الشكل الخاص من الإكراه الذي لا يمكن ممارسته إلا بالتواطؤ النشط – وهذا لا يعني الواعي والطوعي - لأولئك الذين يخضعون له ويكونوا محددين في إمكانية حرمانهم من حرية ترتكز بالأساس على الوعي"[33].

إنها إذن ليست مسألة عبودية طوعية بمعنى الهيمنة المقبولة بوعي كامل، كما قد يكون الحال مع تحليل فيبر. إن بورديو واضح جدًا في هذا الموضوع: "إن الاعتراف بالشرعية ليس، كما يعتقد ماكس فيبر، عملاً حرًا بضمير مرتاح" [34]. وبالتالي، فإن التواطؤ الذي يُظهره المهيمَن عليهم ليس حتمية مفروضة من الخارج، ما دام لهم دور فيه، ولا عملاً متعمدًا، بمعنى أنه سيكون ثمرة مداولات داخلية. "لا يمكننا أن نفكر في هذا الشكل من أشكال الهيمنة إلا إذا تجاوزنا البديل المتمثل في الإكراه بالقوة والموافقة على الأسباب..." [35]. إذن، على أي أساس يعمل تواطؤ المهيمَن عليهم؟

الفكرة الرئيسية هي أن التواطؤ يُمارس "في غموض أحكام Habitus الهابتوس، حيث تُنقش أنماط الإدراك والتقدير والفعل التي تؤسِّس، خارج قرارات الضمير وضوابط الإرادة، علاقة معرفة واعتراف عملي غامض للغاية بالنسبة لذاتها" [36].

يتم إدراك العالم وفهمه وفقًا للفئات والمفاهيم وقبل كل شيء الهياكل (على سبيل المثال، العلاقات فوق/ تحت، المذكر / المؤنث، الأبيض / الأسود) التي يفرضها النظام الاجتماعي ويدمجها الفاعلون الاجتماعيون. هذه الهياكل المعرفية هي انعكاس للهياكل الموضوعية للعالم، وبالتالي يتم قبول الهيمنة المتأصلة في العلاقات الاجتماعية على أنها طبيعية تمامًا، كحالة طبيعية للعالم. وتُسمى نتيجة عملية الاستيعاب هذه الهابتوس. توجه هذه المجموعة من التصرفات المُكتسبة، في لحظة الفعل، وتشكل في ظل ظروف معينة، معتقدات الفاعل وأفعاله. من وجهة نظر سياسية صارمة، فإن الخضوع، "الذي لا علاقة له ب"العبودية الطوعية" هو في حد ذاته تأثير سلطة، منقوشة بشكل دائم في جسد المهيمَن عليهم، على شكل هياكل الإدراك

والتصرفات (الاحترام، الإعجاب، الحب، إلخ)، أي المعتقدات التي تجعل المرء حساسًا لبعض المظاهر الرمزية، مثل التمثلات العامة للسلطة"[37].

نجد نفس الحدس البنائي، تقريبا، في تفسير العبودية الطوعية بنظرية العادة؛ لكن الهابتوس يُفسِّر ما تَصفه تقريبا العادة. مثل الفلاسفة الماركسيون، لم يكتف بورديو، بالتحليل الفينومينولوجي - الظاهراتي الذي يفترض أن إدراك العالم يتم إنتاجه بواسطة الوعي، وبالتالي يتم هيكلته من خلاله. فهو كما La Boétie، ينوي تقديم تفسير لهذه الهيكلة:

"إن "الموقف الطبيعي" للظاهراتيين، أي التجربة الأولية للعالم كأمر بديهي، هو علاقة مبنية اجتماعيًا: إذا كانوا على حق في التذكير، خلافا للرؤية الميكانيكية، أن الفاعلين الاجتماعيين هم الذين يبنون الواقع الاجتماعي"، فإنهم يغضون الطرف عن طرح مسألة البناء الاجتماعي لمبادئ بناء هذا الواقع الذي ينفذه الفاعلون في هذا العمل البناء، الفردي وأيضا الجماعي، وعن التساؤل حول مساهمة الدولة في هذا البناء"[38].

ولذلك يجب أن نوضح من أين تأتي العادة، التي لا تأتي فقط من النسيان. ومرة أخرى، فإن وجهة نظر المهيمِن هي التي تقدم نفسها وتفرضها كوجهة نظر عالمية. ومن خلال دمج الهياكل الموضوعية للهيمنة (والتي هي بهذا المعنى هيكلة الهياكل)، يقوم الفاعلون بإعادة إنتاج هذه الهيمنة. تماشيًا مع ألتوسير، يصر بورديو على دور الدولة في مجتمعاتنا. لكونها تُنظم وتضبط الممارسات، فهي التي تفرض تعلّم السلوكيات العملية والمعرفية التي تصبح تصرفات دائمة (هياكل منظمة)؛ مبادئ التصنيف (الجنس، العمر، المهارات، المهنة، مستوى الدخل، إلخ)، الفئات الاجتماعية (نشطة / غير نشطة ، مواطنين/ أجانب، وما إلى ذلك)، وإيقاعات الحياة (التقويم)، والأقسام التأديبية في الجامعة، وطقوس المؤسسة داخل الأسرة أو المدرسة، وما إلى ذلك. وهكذا، "تخلق الدولة الظروف الملائمة لتنسيق فوري للهابتوس الذي هو في حد ذاته أساسا لإجماع هذه المجموعة من الأدلة المشتركة"[39]. بالنسبة لبورديو، فإن خدعة الطاغية تخلق حقًا ظروف العادة. ومن أجل استكمال عرض نظريته، دعونا نتذكر أنه، مثل الماركسيين، وعلى عكس لا بويسي La Boétie ، يأخذ في الاعتبار حقيقة أن الهيمنة تعتمد في أغلب الأحيان على القوة والمال، لكنه يصر، مثل ألتوسير، على الحقيقة أن لها دائمًا بُعدًا رمزيًا.

ما هو الفرق إذن مع نظرية ألتوسير؟ سؤال من الصعب الإجابة عليه. وبالرغم مما يقوله الكاتب نفسه[40]، يبدو أن هناك تشابهًا قويًا بين الاثنين، لا يمكن التشكيك فيه إلا من خلال الاهتمام بالتفاصيل حول الآليات التي تلعبها صياغة الأحكام. لكن هذا القلق ليس في حد ذاته تفصيلاً. في الواقع، نجد عند بورديو، و بوضوح شديد، وظائف الاعتراف ووظائف التجاهل، على الرغم من تسميتها بشكل مختلف. لكنه يصر، بلا شك، أكثر من ألتوسير على العلاقة بين الهياكل الموضوعية (أجهزة الدولة الأيديولوجية، من بين أمور أخرى) والهياكل المعرفية (التصرفات، والهابتوس). ففي نهاية المطاف، ترجع الفجوة بين النظريتين أولاً إلى التركيز على آليات وشروط دمج الهياكل الموضوعية، ثم إلى الطبيعة الاستعدادية المحددة للهابتوس:

"في مفهوم "الوعي الزائف"، الذي يستشهد به بعض الماركسيين لتفسير آثار الهيمنة الرمزية، فإن "الوعي" هو زيادة عن اللزوم، والحديث عن "الأيديولوجيا"، هو وضع، ما نسميه "الوعي"، في نظام التمثلات القابلة للتحول من خلال هذا التحول الفكري، الموجود في المعتقدات، أي في أعمق الاستعدادات الجسدية"[41].

هكذا فإن الحدس البنائي لنظرية لا بويسي حول العبودية الطوعية يجد أصداء هائلة في النظريات الحديثة للهيمنة. سواء كان ذلك في شكل تمثلات للعالم، أو بشكل أكثر عمقًا، في التصرفات، فإن الهيمنة يتم تفسيرها أولاً وقبل كل شيء من خلال التواطؤ اللاواعي للمهيمَن عليهم. ثم أوضحنا أن الامتياز الذي منحه كاتب الخطاب للتفسير من خلال سلسلة المكاسب لم يكن له ما يبرره لأنه كان في الحقيقة مبنيا على التفسير بالعادة. لهاذين السببين، فإن العبودية الطوعية هي بلا شك أقرب إلى الخضوع الألتوسيري أو العنف الرمزي لبورديو أكثر من كونها أقرب إلى الهيمنة الفيبريية المشروعة.

*** دكتوراه في العلوم السياسية، باحث ومحاضر في علم النفس السياسي في قسم العلوم السياسية ـ جامعة بوردو (فرنسا) . يركّز في بحثه على نظرية المعرفة في العلوم الاجتماعية والعلاقة بين العلوم المعرفية والعلوم السياسية، والنهج المعرفي للسياسة العامة والعمل الجماعي.**

الترجمة عن:

Rodolphe Gouin. "Servitude volontaire". in V. Bourdeau and R. Merrill (éditions.) DicoPo. Dictionnaire de théorie politique, 2007, pp.[en ligne]. 7 Octobre 2022. https://shs.hal.science/halshs-00186763v1

الهوامش :

1) C. Lefort, “Le nom d’Un” , in É. De La Boétie . (DE), 1978, pp.258-259.
2) Étienne de LA Boétie, (DE), “Le discours de la servitude volontaire”, Paris, Payot, 1978- (1576).
3) M. Abensour et M. Gauchet, “Présentation. Les leçons de la servitude et leur destin”, in de La Boétie, 1978.
4) H. Arendt, “Le système totalitaire”, Paris, Seuil, 1978, p. 235.
5) M. Foucault,” Le sujet et le pouvoir”, Dits et écrits II, 1976-1988, Paris, Gallimard. 2001, p.155.
6) La Boétie, pp. 174-175.
7) Simone Weil, “Méditation sur l’obéissance et la liberté”, in LA Boétie (DE), 1978. Liens : Althusser - Bourdieu – Domination – Esclavage volontaire - La Boétie, E. – Idéologie(s), p. 88.
8) La Boétie, p.177.
9) Ibid., 179.
10) Ibid., 204.
11) Clastres, pp. 230-231.
12) Ibid., p. 235
13) La Boétie, p. 185.
14) Ibid., p.190.
15) Ibi.
16)Ibid., p. 203.
17) Ibid., p. 212.
18) Ibid., p. 203.
19) Ibid,. p. 212.
20) Ibid,. p.199.
21) Lefort, pp. 247-307.
22) Ibid., p. 274.
23) Ibid,. pp. 276-293.
24) Ibid., p.301.
25) La Boétie, p. 176.
26) Weber, “Economie et société”, Paris, Plon, réédition, Agora, 1995, p.320. M.-
27) K. Marx et F. Engels, “L’idéologie allemande”, Paris, Éditions Sociales, 1974, p.23.
28) Marx et Engels, “Manifeste du Parti communiste”, Collectif, “Le Manifeste communiste aujourd’hui”, Paris, Les Éditions de l’Atelier/Éd. Ouvrières., 1998, p.40.
29) K. Marx, “Le 18 brumaire de Louis Bonaparte”, Paris, Éd. Mille et une nuits, 1997.
30) Louis Althusser, “Idéologies et appareils idéologiques d’État”, Positions, Paris, Éditions Sociales. 1976.
31) Ibid,. p.73.
32) Bourdieu,” Réponses”, Paris, Seuil, 1992, p.141.
33) Bourdieu, “La Noblesse d’État, Grandes écoles et esprit de corps”, Paris, Minuit,1989, p.12.
34) Bourdieu, “Les méditations pascaliennes”, Paris, Seuil, 1997, p.211.
35) Ibid,. 204.
36) Ibid,.
37) Ibid., p.205.
38) Ibid,.pp.208-209
39) Ibid., p. 210.
40) Bourdieu, “La Noblesse d’État”, p.10.
41) Bourdieu, p.212.

حوارات

(الثقافة الجديدة)
تحاور الدكتور نبيل المرسومي

حاوره سوران قحطان

الدكتور نبيل المرسومي تولّد البصرة، 1954؛ حاصل على شهادتي الماجستير (1990) والدكتوراه (2002) بتخصص تنمية وتخطيط من كلية الإدارة والاقتصاد في جامعة البصرة. والتي عمل فيها، لاحقا، تدريسيا، ورئيس قسم، وعميد. وهو حاليا رئيس قسم تسويق النفط والغاز في جامعة المعقل في البصرة. أثرى المكتبة الاقتصادية العراقية بالعشرات من الكتب وكذلك البحوث العلمية والأكاديمية المنشورة في داخل العراق وخارجه. من بينها: البيئة الاستثمارية في البصرة، 2012؛ تاريخ الأزمات الاقتصادية في العالم، 2014؛ اقتصاد الطاقة، 2016.

على الرغم من انشغالاته البحثية والأكاديمية الكثيرة، خصّص الدكتور نبيل المرسومي ساعات من وقته لإجراء هذا الحوار مع (الثقافة الجديدة). وقد استهل الحوار بحديث عن الطبيعة الريعية للدولة والاقتصاد العراقي قائلا:

كما هو معروف تاريخيا، بدأت الإيرادات النفطية العراقية بالارتفاع المستمر، منذ عقد

الخمسينات. وذلك بعد توقيع اتفاقية مناصفة الأرباح. وكان هذا حافزا رئيسيا للحكومة العراقية آنذاك لتأسيس مجلس الإعمار عام 1953. حيث كان يخصص 70% من إيرادات النفط للاستثمار. ولهذا كانت هناك استثمارات كبيرة وعملاقة حصلت في الخمسينات. وقد استمر عمل المجلس الى العام 1961 وثم تلكأ. ان المهم من مجلس الإعمار، انه كان مبادرة حول كيفية توظيف عائدات النفط في تطوير البلاد.

مع مرور الوقت، ومع تطور إنتاج النفط وازدياد صادراته، تعمقت ظاهرة ريعية الدولة. والنفط اليوم يشكل جوهر الاقتصاد العراقي. سواء في هيمنته على الإنتاج، أم الناتج المحلي الإجمالي أم الصادرات أم الإيرادات.

إنّ إنتاجية العمل في الدولة الريعية منخفضة. وذلك بسبب سهولة الحصول على المال. فرب العمل هو الدولة وهي مالك المال. الدولة ستحاول من جهة إحاطة نفسها بالأجهزة الأمنية، للمحافظة على ذاتها ونفوذها، ومن جهة أخرى، تقوم بتوزيع قدر كبير من الريع النفطي على فئات المجتمع المختلفة. وبالتالي، أصبح الناس يعيشون في أحضان الدولة ويستمدون قوتهم من الدولة. وما عادت الضرائب الوسيلة الأساسية لتمويل الموازنة العامة، وإنما الإيرادات النفطية.

وهذا الواقع الذي افرزه وجود النفط، وبهذا المعنى فإن النفط نقمة وليس نعمة. لقد افرز هيكلا اقتصاديا مختلا، يعتمد بشكل رئيس على النفط مع إهمال واضح للقطاعات الأخرى خاصة القطاعات الزراعية والصناعية. العراق حاليا في تبعية تامة للإيرادات النفطية، بحيث ان درجة الانتعاش الاقتصادي في البلد تعتمد على حجم الإيرادات النفطية.

ان الإيرادات النفطية يتحكم بها متغيران: الأول هو حجم الإنتاج، والثاني هو أسعار النفط العالمية. ولأن حجم الإنتاج والصادرات في العراق تقريبا ثابت، أصبح المتغير الوحيد الذي يتحكم بالإيرادات النفطية هو سعر النفط. وسعر النفط هو عامل خارجي لا يتحكم به العراق وإنما إفرازات السوق النفطية العالمية، وتداعيات العرض والطلب، وعوامل جيوسياسية، وغيرها من العوامل. وقد أصبح العراق أسير هذه الأسعار. والعراق يبدو انه لم يتعلم من تجاربه الكثيرة، على الأقل نحن في السنوات الأخيرة شاهدنا ثلاث صدمات نفطية سالبة. الأولى، عام 2008 وهي أزمة الرهن العقاري؛ والثانية، في عام 2014؛ والثالثة، في عام 2020. ونحن الان في عام 2025 وهناك أزمة في سوق النفط. بمعنى ان هناك صدمة في سوق النفط كل ست سنوات وكل هذه الأمور لها تأثيرات وتداعيات على الاقتصاد العراقي.

الثقافة الجديدة: د. نبيل، ما هي قراءتك لواقع القطاع النفطي في العراق؟ خصوصا بعد إطلاق جولات التراخيص؟

د. المرسومي: من المعلوم ان كل الصناعة النفطية الموجودة اليوم هي نتيجة لأعمال التأميم وما تلاها. سواء استخراج النفط او صناعة التكرير والمصافي وقطاع النقل أيضا. بمعنى ان الإدارة الوطنية للنفط ساهمت في تطوير كبير في شتى القطاعات النفطية. وكل البنية التحتية الحالية أنشأت

في ظل الإدارة الوطنية للنفط فهو ثروة الشعب العراقي وملكيته التي ينبغي ان تكون وطنية. نعم، ربما هناك قصور في الكادر الوطني العامل في هذا المجال، وهو بدون شك يحتاج الى ان يستمر في تطوير قدراته وإمكانياته؛ لكن العيب ليس فيه وإنما في نمط الإدارة النفطية، اي بنمط الإدارة السياسية والاقتصادية للبلاد.

بالتأكيد ان نقطة الانعطاف الكبيرة في القطاع النفطي في العراق كانت الحرب ومن ثم الحصار. لكن الحرب لم يكن تأثيرها مدمرا كما كان الحصار. الحصار هو الذي دمر القطاع النفطي وهو الذي جعل هذا القطاع يمتلك تقنيات متأخرة جدا.

إن هذا الدمار والتقنية المتأخرة هي التي سهلت التوجه نحو موضوعة الاستثمارات الأجنبية في القطاع النفطي. لكن لو قيمنا الاستثمار الأجنبي في القطاع النفطي فهو لم يؤدي الى تطور كبير في الصناعة النفطية العراقية. فمثلا، إذا قارنا حجم الإنتاج النفطي قبل وبعد جولات التراخيص نجد ان التطور لا يزيد على مليون برميل يوميا وهو رقم قليل نسبيا إذا اخذنا بعين الاعتبار 120 مليار دولار أنفقت على الشركات الأجنبية. بينما كان من المفترض ان يكون انتاج الذروة حوالي 11 مليون برميل يوميا. فعلى سبيل المثال في الجولة الأولى من التراخيص أعطت الحكومة حقولا نفطية هي أساسا منتجة للنفط ولم يعط رقعاً استكشافية واستثمارية، مثل الرميلة والزبير وغرب القرنة وكلها منتجة للنفط. كان من المفترض بدلا من ذلك إعطاء رقع استكشافية. بل ان تطوير الإنتاج يكاد لا يذكر. فعلى سبيل المثال الزيادة في حقل الرميلة، الذي كان ينتج مليونا و66 ألف برميل يوميا، اليوم وبعد 16 عاما، هي فقط 350 ألف برميل.

بالتأكيد كانت هناك معارضة كبيرة من قبل شركات النفط الوطنية لان هذه الحقول منتجة والكوادر الوطنية قادرة على إدارتها فلماذا نأتي بالمستثمر الأجنبي ليشارك العراقيين في ثروتهم. وكان من المفترض ان نبدأ بالرقع الاستكشافية او على الأقل في الحقول المستكشفة وغير مطورة. بل حتى الحقول المستكشفة وغير مطورة هي حقول منتجة عل سبيل المثال حقل مجنون.

بتصوري ان جولات التراخيص رغم أنها لم تكن سخية مع الأجانب، بمعنى ان الأجانب لم يحصلوا على أجور ربحية كبيرة، لكن التأثيرات الإيجابية لم تكن كبيرة.

لقد قامت الدولة بإحالة كل الحقول في جولات التراخيص، ولا يوجد الآن حقل واحد لم تتم إحالته. والغريب ان الشركات الأجنبية بدأت تنسحب، فقد انسحبت شركة اكسدانتل الأمريكية من الزبير، وشركة شل من مجنون، واكسون موبيل من حقل القرنة رقم 1. اليوم هناك 17 حقلا في العراق بأيدي الشركات الصينية. وجولات التراخيص الخامسة نصفها للصينيين والسادسة معظمها كانت للصينيين، واليوم ثلث الاحتياطي النفطي بيد الشركات الصينية.

هناك مشكلة إضافية: فمن جهة، الشركات الأجنبية تأخذ أجورا مقطوعة عن كل برميل، زيادة عن خط الشروع إذا كان الحقل منتجا، وإذا كان حقلا غير منتج تأخذ عن كل برميل منتج. ومن جهة ثانية، العراق قادر اليوم على إنتاج 4 ملايين و650 (خط الأساس)، بينما حصته في أوبك بس هي

4 ملايين برميل، ومخطط وزارة النفط منذ 2022 ان تنتج 7 ملايين برميل خصوصا وان الجولتين الخامسة والسادسة ستبدآن الإنتاج خلال سنتين؛ بمعنى ان هناك مشكلة سوف نواجهها بعد سنتين او ثلاث سنوات، فعندما تصل الى هذا المستوى الذي تطمح اليه وزارة النفط، فعليك ان تدفع غرامات للشركات الأجنبية.

علما ان ذلك قد حصل ذلك عام 2020 عندما خفض العراق مليون برميل يوميا فقام بالدفع للشركات الأجنبية.

فهنا نحن في إشكالية: أما تبقى الأمور كما هي وتُدفع الغرامات للشركات الأجنبية بسبب الالتزام بحصة أوبك، او ان تفاوض لزيادة حصتك في أوبك او ان تنسحب من أوبك. وهذا الأخير أصبح خيارا قائما. خصوصا وان المفاوض العراقي ضعيف جدا في أوبك بحيث انه لم يطالب أبدا بتغيير حصته. بينما نجد ان الإمارات طالبت وهددت قبل سنتين بالانسحاب، وتمت الموافقة على زيادة حصتها الإنتاجية بمقدار 300 ألف برميل يوميا. بينما العراق في المقابل وافق على تخفيضات طوعية وهو في الأساس خطه الإنتاجي 4 مليون و650 ألفا، ووافق على تخفيض طوعي يقدر بـ 220 ألف برميل يوميا، وهذا امر غير مبرر.

لذلك يعاني العراق اليوم من مشكلة وهي ان حصته الإنتاجية غير قادر على الالتزام بها، ولذلك نرى (أوبك بلاس) دائما تضغط على العراق ودائما تطالبه بجداول من اجل تخفيض الإنتاج. وهذه هي واحدة من الإشكاليات الكبيرة التي سيقع فيها العراق مستقبلا، حيث سنكون في نقطة فراق: فأما ان نكون مع (أوبك بلاس) او ننسحب.

أنا أتصور ان العراق عليه ان ينسحب من أوبك، لأنه يحتاج لصادرات لا تقل أن 5 مليون برميل يوميا بسبب احتياجات الناس الكبيرة، وإذا لم يشأ العراق الانسحاب، فعليه ان يطرح مسألة تعديل حصته الإنتاجية وفق مؤشرات معروفة منها: الاحتياطي النفطي، وعدد السكان، والطاقة الإنتاجية. وينبغي ان يطالب من الآن بالحصص بحيث عندما نصل الى عام 2028 ستكون حصة العراق الإنتاجية ليست اقل من 6 ملايين برميل يوميا، واقل من هذا المعدل سيدخل العراق في مأزق. علما ان العراق إن خرج سيكون ذلك بمباركة أمريكية.

الثقافة الجديدة: دكتور نبيل، هل تعتقد ان بلدا هشا سياسيا اقتصاديا واجتماعيا، مثل العراق، قادر على الانسحاب من أوبك في هذه الظروف وهو غير قادر أساسا على مجابهتها بأن يكون مفاوضا قويا؟

د. المرسومي: نحن لا نطالب بالانسحاب فورا، وفي ظل الظروف الحالية. كما انه يجب ان يكون الانسحاب مبرمجا، وتُعلم به أوبك قبل مدة، كما فعلت قطر.

علما ان أوبك بإجراءاتها الحالية تخسر حصتها السوقية. على سبيل المثال أوبك في السبعينات كانت تنتج 30 مليون برميل يوميا واليوم 27 مليونا، حيث نجد اليوم دولا مثل البرازيل كانت في السابق تستورد النفط، أما اليوم فهي من الدول المصدرة، وأيضا الولايات المتحدة كانت تستورد النفط واليوم هي أكبر دولة منتجة في العالم، حيث تنتج 13 مليون برميل يوميا، وتخطط الى ان تصل الى 16 مليونا. وكل هذه التحولات

ليست في صالح أوبك.
من وجهة نظري، أوبك اليوم عبارة عن وسيلة تعتمدها السعودية كمركز قوة بالنسبة لها، فالسعودية هي القائد الإنتاجي وهي القائد السعري وتستخدم أوبك في مفاوضاتها مع الآخرين، أوبك مصدر قوة للسعودية لكنها ليست مصدر قوة للعراق. السعودية خط إنتاجها 11 مليون برميل يوميا، والعراق 4 مليون و650 الفا فقط. إلا ان العراق ينتج اليوم 4 مليون و150 الف برميل، بينما الحصة الإنتاجية 4 ملايين. واعتقد ان العراق غير قادر فعليا على الالتزام بضوابط أوبك للنهاية.
أنا أتحدث هنا عن المدى الاستراتيجي، لأن العراق لا يمكن ان يبقى ينتج 4 ملايين ونصف فقط. وانا اعتقد ان العراق بإمكانه ان يصل بإنتاجه الى 8 ملايين برميل يوميا. فالاحتياطي النفطي العراقي كبير، حوالي 145 مليار برميل، وهناك مناطق غير مستكشفة كبيرة جدا وبعض الدراسات تقول ان المنطقة الغربية من المحتمل ان يكون فيها ما يقارب 100 مليار برميل احتياط. وبالتالي فإن انتاج العراق اليوم لا يتناسب مع الاحتياطي، ولا يتناسب مع احتياجات الناس. أما الأحاديث التي نسمعها عن ان توزيع القرارات في مجال السوق النفطي، قد يؤدي الى إغراق السوق، فبالتأكيد ربما يحدث ذلك، الا انه ـ ان حدث ـ فلن يستمر طويلا. هناك ما يسمى التكلفة الحدية. فسوق النفط اليوم لا تحتمل نزول السعر تحت الـ 50 دولارا. نعم، قد يهبط الي 30 دولارا، لكن لن يبقى ذلك طويلا. علما ان أسعار النفط سوف تبقى منخفضة على الأقل طول فترة رئاسة ترامب. وعلى العراق ان يستعد لهذا.

الثقافة الجديدة: د. نبيل، يبدو أن هناك إشكالية، وهي ان وجهة صادرات النفط العراقية تكاد تكون آسيوية بحتة، خصوصا الصين والهند، المتواجدة في صناعة النفط الاستخراجية أساسا. ما هو رأيك بهذه الإشكالية؟

د. المرسومي: بالتأكيد هناك مشكلة هيكلية في صادرات العراق. فدولتان هما الصين والهند تستحوذان على ثلثي صادرات النفط العراقي. بينما من المفترض ان يكون هناك فكر استراتيجي وسياسات استراتيجية واضحة لتنويع الأسواق والصادرات؛ ففي النهاية معظم نفط العراق يصدر الى الخارج، ومهما تطورت صناعة التكرير يبقى ثلاثة أرباع النفط الخام يصدر الى الخارج.
لكن، من اجل تنويع الصادرات، من المهم أساسا ان يكون هناك تفكير استراتيجي بتنويع طرق التصدير. نحن الآن نصدر عن طريق البحر تقريبا، وذلك لأن الكلفة اقل من دولار قياسا بـ3 دولارات في خط الأنابيب.
من وجهة نظري، أن أحد اهم النقاط التي يجب التركيز عليها هو الخط الأردني. فهو من الممكن ان يكون ممرا دوليا. لأن هذا الخط عندما يذهب الى حديثة سوف يتفرع إلى ثلاثة فروع الأول يذهب إلى جيهان في تركيا، والثاني إلى بانياس في سوريا، والثالث للعقبة في الأردن. ومن تركيا يذهب الى أوروبا حتى يحل خام البصرة محل الخام الروسي، وسوف يفتح الأسواق الأوربية، ويفتح أسواقا في إفريقيا.
حتى ان إيران ـ وخوفا من التوترات الجيوسياسية لطريق مضيق هرمز ـ قامت

بتفعيل خط غوره- جاسك.
أما بخصوص تواجد الصين في العراق، وذلك لكونها أكبر دولة مستوردة للنفط في العالم، فالصينيون يعتقدون أن مضيق ملقا، الذي يستوردون من خلاله 80 % من النفط، من الممكن ان يغلق في يوم ما خلال الـ 100 سنة القادمة. وبالتالي يمكن ان تخنق الصين. طبعا، هناك تقديرات تتحدث عن أن الصين تمتلك مخزونا نفطيا يقدر بمليار برميل من أجل أن يتهيؤوا لهذا الإغلاق. ولذات السبب هم يهتمون بالعراق، واي شركة أجنبية تخرج من العراق يحل الصينيون محلها.
من جهة أخرى، يجب ان لا ننسى ان الصين دخلت في حرب تجارية مع أمريكا. وهذا سوف يؤدي الى تقليص الطلب على النفط الخام بدل ان تستورد الصين مليون برميل من العراق، يمكن لهذا الرقم ان يتقلص الى 600 او 700 ألف برميل فقط.
اما بالنسبة للهند فقد كانت تستورد مليونا و100 الف برميل. الآن انحسر الرقم الى 800 الف. وقد انخفضت استيراداتها لا من العراق فقط وإنما من السعودية أيضا. وروسيا اليوم، التي كانت تصدر اقل من 50 ألف برميل يوميا للهند، أصبحت هي المصدر الأكبر بأكثر من مليون برميل يوميا. وهذه الزيادة سببها الخصومات السعرية التي تعطيها روسيا. علما ان التصدير من روسيا غير مجدٍ وفق الأسعار العالمية. وبالتالي يقدمون خصومات كبيرة من اجل الولوج للسوق الهندية.
لذلك يجب علينا دائما ان نبحث عن أسواق بديلة، في إفريقيا وشمال إفريقيا وفي اوربا أيضا. فأوروبا سوق واعدة. خصوصا ان خام البصرة يشبه مواصفات الخام الروسي وهو مطلوب بشدة في الأسواق الأوربية، لكن المنفذ الوحيد اليوم عبر البحر، والمسافة طويلة عبر قناة السويس، بينما الطريق البري ممكن ان يصل الى كل دول وسط اوربا.
خلاصة الكلام، من اجل ان نقوم بتنويع الأسواق يجب ان تكون لدينا طرق نقل بديلة. نعم الطريق البحري القصير هو اسيا، لكن المهم هو كيف ننفذ الى أوربا وامريكا. فالتفكير الاستراتيجي بهذا الموضوع مهم جدا. نعم، هناك بالتأكيد معارضة قوية جدا، ذلك لان المتضرر من ذلك هو إيران. لكن حتى إيران غيّرت الان من رؤاها كثيرا بسبب سوريا والحكومة الجديدة.

قانونا النفط والغاز وشركة النفط الوطنية

الثقافة الجديدة: على الرغم من ان الصراع بين المركز والاقليم، وكذلك بين المركز والمحافظات غير المنتظمة بإقليم، هو صراع سياسي ومصالحي، الا انه دائما ما يتجلى بصورة صراع تشريعي. ما هي قراءتك لمكامن الخلل في المنظومة التشريعية النفطية؟
د. المرسومي: بالنسبة لقانون النفط والغاز لن يشرّع، لأن الموضوع يتعلق بكيفية قراءة المادة 112 الدستور، التي تتعلق بإدارة الحقول. هناك فهم متباين بين الطرفين، المركز يفهمه بأنه إدارة مركزية، في حين الإقليم يرى ان الإدارة محلية.
وبالتالي في العراق هناك سياستان نفطيتان مختلفتان. كما ان هناك نمطين من العقود،

عقود خدمة وعقود شراكة. وهذه القضية تحتاج الى اتفاق سياسي وليس اقتصاديا.
علما، ان هذه المشكلة أثرت على العراق بشكل كبير، فهو منذ سنتين يدفع مبلغ 800 ألف دولار الى تركيا بسبب عدم إيفائه بالتزاماته تجاهها، بناء على قرارات غرفة التجارة الدولية في باريس، على الرغم من انها كانت قد حكمت لصالح العراق بدعواه ضد تركيا وتصديرها النفط من إقليم كردستان. ومن اجل الوصول الى اتفاق بين الإقليم والمركز ينبغي ان نفهم ان عقود المشاركة، التي يتبعها الإقليم، فيها جنبة التحكيم الدولي. بمعنى ان أي خلاف بين الطرفين يذهب الى غرفة التجارة الدولية في باريس أيضا وقراراتها ملزمة. وهي في الغالب قرارات لصالح شركات النفط.
أكرر مرة أخرى، مسألة النفط ستبقى عالقة بين المركز والإقليم. فهي ليست مسألة فنية، كما انها ليست مسألة اقتصادية، وإنما هي مسألة سياسية بامتياز. وبرأيي، ينبغي إعادة كتابة الدستور مرة أخرى من اجل ان نحدد بشكل دقيق ما المقصود بإدارة الحقول الحالية والحقول المستقبلية. لأننا لا نعلم ما هي الحقول الحالية هل هي المنتجة للنفط ام المستكشفة وغير مطورة، فلا يوجد تحديد، لذلك إعادة كتابة الدستور هي الحل للإشكالية بين المركز والإقليم، وعكس ذلك سوف يبقى الحال كما هو عليه.
أما بخصوص قانون آخر مهم جدا، وهو قانون شركة النفط الوطنية، فلي رأيي الخاص بذلك. في كل العالم هناك شركة نفط واحدة. إذا أخذنا دول أوبك نجد أرامكو السعودية، مؤسسة النفط الليبية والكويتية وشركة قطر وشركة النفط الإيرانية.
لا توجد دولة فيها شركتان. ان صناعة النفط تتطلب الحجم الكبير. على صعيد العالم نرى ان اكسون اشترت موبيل وأصبحت اكسون موبيل، وهناك اندماجات كبيرة أخرى في شركات النفط الخاصة. لأنها تزيد من القدرات التكنولوجية والمالية، وكما تزيد من إمكانية الاستقرار.
أما في العراق فالعكس من ذلك، فبدلا من الدعوة لشركة نفط واحدة ذهبنا الى عدة شركات. وتمت تجزئة الصناعة النفطية، والتي هي مجزئة بالأساس كنفط الشمال ونفط الجنوب. وشركة نفط الجنوب أصبحت البصرة وميسان وذي قار وواسط. وهذا ليس في صالحنا. لان العراق بحاجة الى شركة نفط وطنية واحدة يقع على عاتقها عملية إدارة جميع الحلقات المرتبطة بالصناعة والعمليات النفطية بما فيها الغاز. سواء التي تتعلق بالتكرير والاستخراج وحتى التي تتعلق بالبتروكيماويات، بحيث تكون شركة متكاملة وعملاقة تقوم بكل العمليات، وتكون لها فروع، ان حدث ذلك ستكون القدرات التفاوضية أكبر. وتكون شركة مستقلة ولها نظام خاص بها. بينما يفترض بالوزارة رسم الاستراتيجيات فقط.
الصيغة المقدمة لقانون شركة النفط الوطنية، لم تقدمها كشركة متكاملة، وإنما شركة مجزئة، مستثنية حتى شركة المشاريع النفطية وشركات الغاز. بينما من جهة أخرى تحمّل هذه الصيغة أعباء ومهام أخرى لا تقع على عاتقها، خصوصا قضية توزيع الثروة النفطية على المواطنين.
وبالتالي هناك حاجة ماسة بالنسبة للعراق لتأسيس شركة نفط وطنية تشمل كل الصناعات النفطية في العراق، المنبع

والمصب، النفطية والغازية. من اجل ان تكون شركة عملاقة، من مهماتها حتى التسويق. وبالتالي هناك حاجة ماسة الى قانون اخر وبصياغة أخرى.

خلل هيكلي

الثقافة الجديدة: ما هو تقييمكم للواقع الاقتصادي العراقي الحالي غير النفطي، خصوصا الإنتاجي: الزراعي والصناعي؟

د. المرسومي: هناك خلل هيكلي واضح في تركيبة الناتج المحلي الإجمالي، الصناعة والزراعة تشكل مساهمتها في الناتج المحلي 1-2%، مقابل رقم يتراوح، بحسب أسعار النفط، ما بين 40 الى 60% للنفط. اما المتبقي من النسبة فأكثره يعود لقطاع الخدمات. وقطاع الخدمات هذا، بسبب طبيعته، هو مؤشر تخلف. فهنا نحن لا نتحدث عن قطاعات المصارف او الاتصالات او النقل او التوزيع وغيرها، بل عن باعة التجزئة والمفرد.

وإذا أخذنا الهيكل السلعي، سنجده مثل الهيكل الإنتاجي مختلا. حيث تصل مساهمة النفط الى 80% منه. أما اذا نظرنا الى الصادرات فنجد ان النفط يشكل 99% منها. بواقع 94% نفط خام و5% نفط اسود. أما المتبقي الـ1% فهي سلع بسيطة مثل الكبريت والحبوب. وينعكس ذلك في الإيرادات، حيث ان النفط هو المصدر الرئيسي في الإيرادات. بل ان الرسوم الكمركية على السلع المستوردة ممولة من عائدات النفط، وكذلك الضرائب على الدخل.

وبالتالي، فالنفط هو المتحكم والمحرك الأساس للاقتصاد العراقي. ثلاثة ارباع الناتج المحلي الاجمالي يأتي من القطاع العام، والقطاع العام يهيمن عليه النفط بصورة شبه كاملة. الدولة هي التي تقود العملية الاقتصادية مهما تغنى البعض بشعارات القطاع الخاص. الدولة هي المشغل الأكبر للأيدي العاملة. العراق يدفع اليوم رواتب الى ما يقارب 10 ملايين شخص. هؤلاء هم 7 ملايين و350 ألف موظف ومتقاعد، يضاف لهم مليونان و300 ألف رعاية اجتماعية. إذن الناس تعيش في أحضان الدولة، وهذه المسألة خطرة جدا.

الانفاق العام اليوم هو المحرك الأساس، فالطلب الكلي الفعال يحركه الانفاق الحكومي. لذلك كلما زاد الانفاق الحكومي كلما انتعش الاقتصاد وزاد الاستيراد ويزيد الضغط على الدولار ويزداد أيضا تسريب الدولار الى الخارج. وكلما يقل الإنفاق الحكومي، كلما يقل الطلب ويدخل البلد في أزمة.

والمشكلة الأخرى في الاقتصاد العراقي هي ان الصناعات النفطية فيه متخلفة، فنحن ليس لدينا صناعة تكرير متطورة. نحن ننتج مليون برميل يوميا، لكن نصفها نفط اسود. والنفط الأسود هو من مخلفات صناعة التكرير، ويسمى الوقود المتبقي بعد التكرير. وليس لدينا مصاف تستطيع إعادة تكريره، لان هذا النفط الأسود اذا تمت إعادة تكريره ينتج لنا بنزين كما هو موجود في مصافي الإمارات. نحن نصدر قسما من النفط الأسود للإمارات فتقوم بتكريره مرة أخرى فينتج البنزين، وتقوم ببيعه للعراق لان مصافينا متخلفة لا تنتج البنزين. قالوا ان العراق سيحقق اكتفاء ذاتيا عام 2024 ولكن في هذا العام استورد العراق مليونين

و400 ألف طن من البنزين والرقم قابل للزيادة، وحتى مصفى كربلاء الذي من المفترض ان ينتج 9 ملايين لتر من البنزين لم يفعل ذلك، لان فيه مشاكل واغلق لمدة شهر للصيانة برغم انه مصفى حديث لكن هناك مشاكل فنية.

الغاز أيضا، كان العراق قبل ثلاث سنوات يحرق نصفه واليوم يحرق 45% والأرقام الحكومية تقول ان العراق يستثمر 70%. لكن في الحقيقة العراق يستثمر 55%. فالعراق ينتج 3 مليارات و100 مليون قدم قياسي، ووكالة الطاقة الدولية تقول ان العراق حقق تطورا في استغلال الغاز لكنه تطور بطيء. نتحدث عن 5% فقط فهو رقم قليل جدا، والمعول حكوميا هو تصفير حرق الغاز عام 2028 وانا اعتقد ان هذا امر بعيد المنال ولا يمكن تصفيره وإنما يمكن تقليله.

بخصوص حقول الغاز، حقل السيبة أحيل الى شركة أوكرانية وتوقف، حقل المنصورية الى شركة صينية، وحقل الخشم الأحمر لشركة الهلال/ الشارقة. علما ان رئيس شركة الهلال ذكر ان انتاج الغاز في كردستان بدأ بعد سنة ونصف. اما في المركز وبعد مضي ثلاث سنوات فهم بحاجة الى سنتين لبدء الإنتاج. وذلك بسبب الطبيعة الروتينية وإطار التعاقد الصعب في المركز بعكس الإقليم.

وبالنتيجة العراق اليوم يستورد الغاز من إيران. وهناك مشكلة اليوم بعد عقوبات ترامب، وإلغاء إمكانية الاستيراد منها. العراق الآن يبحث عن استيراد من تركمانستان ايضا وعن بناء منصات عائمة في خور الزبير من اجل ان نستورد الغاز المسال. الا ان هذا الأخير يحتاج الى مدى زمني معين، ويحتاج ان نتفاوض مع دول أخرى. وذلك لان عقود الغاز عقود طويلة المدى وتحتاج الى مفاوضات. علما انه قد لا يكون هناك فائض في الغاز المتاح اليوم وهذه أيضا مشكلة لان الغاز لا يكفي.

إن الحديث عن القطاع الزراعي والصناعي سوف يعيدنا الى موضوع التنويع الاقتصادي، والأخير يعود بنا الى مسألة التنمية. والتنمية تحتاج الى طبقة سياسية محترفة تؤمن بها. لان التنمية مشروع ليس اقتصاديا فقط وإنما سياسي واجتماعي وثقافي، يتطلب "طبقة" سياسية تؤمن به. ويتطلب أيضا قوانين، والقوانين تشرّع من قبل البرلمان، وتصبح ملزمة للحكومات. والموازنة ينبغي ان تكون جزءا من خطة التنمية.

والتنمية فيها إجراءات مؤلمة لـ"الطبقة" السياسية ومؤلمة أيضا للناس. فهل الناس مستعدة ان تتحمل وزر الإصلاح بمثل هذه الظروف؟ اعتقد ان ذلك صعب، لأن درجة الثقة بين السياسيين وبين الناس تقريبا منعدمة.

الزراعة تأخرت كثيرا خصوصا بعد 2003. على سبيل المثال في البصرة كان هناك 7 الاف مزرعة، واليوم هناك ألفان فقط. الناس بدأت بيع مزارعها وتوجهت الى المركز بسبب تفاوت الخدمات بين الريف ومراكز المدن. كما ان هناك سياسة اسمها سياسة الإغراق واضحة جدا في الزراعة. منتجو الطماطم على سبيل المثال في صفوان والزبير يشكون من انه في وقت انتاجهم تأتي الطماطم الإيرانية وتباع بأقل من كلفة انتاجها، وبالتالي فان الكثير من المزارعين يخسرون. لا توجد حماية للمنتج، فهل من الضروري توفير الطماطم في العراق طيلة أيام السنة. فالطماطم ليس مثل الخبز، أي

يمكن ان يستغني عنها الإنسان وهناك بدائل. أما الصناعة فهناك معاناة أولها الطاقة الكهربائية ومشاكل تتعلق بالقروض، ومشاكل أخرى تتعلق بالأراضي وتسجيلها، ومشاكل تتعلق بتعاملهم مع السلطات. بالإضافة الى عدم توفير الدعم من اجل المنافسة، فالعراق لا ينافس السلعة الصينية لأنها تأتي بجودة اعلى ورخيصة الثمن، بالتالي تقتل الصناعة العراقية. لذلك نرى الصناعة العراقية اليوم بدأت بالتراجع وتحول رجال الاعمال الى تجار، على سبيل المثال سوق "حنا الشيخ" في البصرة كان سوقاً للخياطين واليوم هو سوق لباعة الملابس الجاهزة، حتى باعة الاقمشة بدأ اليوم دورهم بالانحسار. هذه المهن بدأت تندثر في العراق، وكان مهم جدا حمايتها.

من المفترض ان تكون هناك حماية للمنتج الوطني، ثم اين الرسم الكمركي؟ لا يوجد رسم كمركي. الرسم الكمركي مهم لأنه يحقق هدفين أولا هو إيرادات للدولة، وثانيا هو حماية، وكل دول العالم تحمي صناعاتها.

الكثير من السلع تدخل من منافذ غير شرعية وبدون رسوم كمركية وتزاحم المنتج المحلي، هذه سياسة عامة ينبغي إحداث تغيير بها.

طريق التنمية

الثقافة الجديدة: ونحن بصدد قضايا تنويع الاقتصاد، تثار تساؤلات متعددة حول (طريق التنمية)، خصوصا من ناحية إمكانية تنفيذ مشروع بهذه الضخامة في ظل أوضاع العراق غير المستقرة. ما هي رؤيتك لهذا الموضوع؟

المرسومي: كنت قد حضرت ندوة في أنقرة حول موضوع طريق التنمية. وهو حتى اللحظة، مجرد دراسات تصميمية. كلفة هذا الطريق 17 مليار دولار، مقسمة على ثلاث مراحل. وهو يبدأ من الفاو، ويمتد مسافة 1150 كيلومترا داخل الحدود العراقية، ثم يدخل تركيا ويمتد داخلها مسافة 700 كيلومتر ثم يدخل أوربا. وبذلك يصبح العراق مركز ترانزيت للتجارة العالمية.

إلا ان طريق التنمية لن يكون مجرد ممر للتجارة العالمية. بمعنى التجارة التي تربط شرق آسيا بأوروبا مرورا عبر العراق، لكون هذا الطريق من أقصر الطرق. فالمعول عليه ان يحدث هذا الطريق ثورة اقتصادية، لأنه من المفترض ان تكون فيه مدن اقتصادية، ومدن للطاقة. وبالتالي سيفعّل من الخدمات اللوجستية في البلد، وسيحدث ثورة في قطاعات أخرى، ويشغل أيدي عاملة. فالإيرادات المالية المباشرة، المتوقعة، قليلة بحدود 4 تريليون دينار سنويا. الا ان التعويل على الإيرادات والمنافع غير المباشرة، وعلى قدرته في تفعيل القطاعات الأخرى، كالسياحة والإسكان والطاقة وغيرها. كما ان ميناء الفاو الكبير، والذي أنجزت منه المرحلة الأولى المتكونة من أربعة ارصفة والمفترض ان يكون 99 رصيفا، تكمن أهميته أساسا في وجود التنقلات الجافة.

تركيا مهتمة بطريق التنمية لسببين: الأول، لان هذا الطريق ممكن ان يكون بديلا عن الخط الإيراني الذي ينقل البضاعة التركية الى الخليج. ومن الممكن ان يستخدمون هذا الخط البري ـ السكك الحديد والنقل بالسيارات، لنقل البضاعة التركية عن

طريق هذا الخط الى ميناء الفاو ومن ثم الى الخليج. وهذا الامر مهتمة به الامارات ايضا. بينما السبب الثاني لاهتمام الاتراك فهو أنهم يريدون ممرا للطاقة، أي ان هذا الخط ينبغي ان يصاحبه ممر للطاقة (النفط والغاز). وهذا يؤكد، انه من اجل ان يكون هذا المشروع ذا جدوى اقتصادية كبيرة ينبغي ان لا يقتصر على نقل البضائع فقط. لهذا نحن نؤكد ان الخط الاردني مهم جدا، لان هذا الخط فيه ممر يستخدم للنفط، وممكن ان يستخدم انبوب آخر للغاز، لأن أحد فروعه الرئيسة الى جيهان وعبر جيهان الى تركيا ومن هناك الى اوربا.

بالتالي، فإن لطريق التنمية أهمية استراتيجية كبرى بالنسبة للعراق. فهو ربما الأكبر في تاريخ العراق، وربما أيضا الأكثر أهمية في تاريخ العراق. فهو على قدر كبير من الأهمية في تنويع الاقتصاد العراقي، لأنه يخلق مصدر دخل جديد، ويوفر فرص عمل للمواطنين ويقود الى تنمية مكانية أيضا لأنه يمر بـ11 محافظة. وهذه التنمية المكانية ممكن ان تؤثر في نوعية الحياة والمستوى الحضاري والمستوى الاقتصادي للمحافظات التي يمر بها.

المشكلة هي أن العراق بلد غير جاذب للاستثمارات، وبلد غير آمن، وفيه محاصصة والسلاح منتشر، وليس هناك قدرة على توفير الامن لخط يمتد من الجنوب الى الشمال، لذلك يفترض ان تموله الموازنة العامة. وبالتالي، هناك خشية من ان يتم اهمال هذا المشروع من قبل الحكومات القادمة. خصوصا وان الوضع المالي الصعب في العراق قد لا يتيح إمكانية لتمويل هذا المشروع. وإن لم يكتمل هذا المشروع فلن تزيد أهمية بناء ميناء الفاو الكبير عن بناء ميناء ام قصر. لذلك من المفترض ان تكون هناك حملة وطنية، وجهد وطني مكثف لإنجاز هذا المشروع، حيث سيبقى التحدي هو كيف يمكن وضع التصاميم موضع التطبيق وتحويله الى مشروع على ارض الواقع، وهذه هي المهمة الوطنية الكبرى التي ينبغي ان تتصدى لها أي حكومة عراقية قادمة.

الأزمات الثلاثة

الثقافة الجديدة: هناك حراكات مطلبية كبيرة في العراق لعل اكثرها وضوحا: تعيينات ذوي المهن الطبية، حراك التربويين، الفلاحين. وكلها عبارة عن حقوق ومطالب ومستحقات ذات جنبة مالية تقع على كاهل الحكومة. من جهة أخرى هناك حديث عن ازمة اقتصادية. وأنتم دكتور نبيل تحدثتم عن ان العراق سيواجه ثلاث أزمات في قادم الأيام. ربما قبل نهاية عام 2025.

هل لكم ان تتوسعوا في عرض رؤيتكم بهذا الخصوص؟

د. المرسومي: في عام 2024 كان سعر برميل النفط 77 دولارا واقترضنا 13 تريليونا، وانخفض الاحتياطي النقدي 15 تريليون دينار. اليوم سعر البرميل يتراوح بين 60 و63 دولارا فماذا سنفعل؟ أتصور ان الازمة اليوم أكبر من ازمة 2020. لان حجم الرواتب اليوم ضعف حجم الرواتب في عام 2020، والدين الداخلي اليوم ضعف الدين الداخلي في عام 2020. بالتالي فان الموضوع شائك وصعب ومعقد، وانا اعتقد ان الازمة الان ليست ازمة أسابيع وشهور. فطالما ترامب موجود، فسعر النفط من

الصعب ان يصل الى 70 دولارا. اتوقع ان يستقر عند 64 او 65 دولارا. لكن هذا الوضع غير ملائم للمالية العامة، لان آلية العمل في العراق غير منضبطة وغير رشيدة وهذه الحكومة ارتكبت خطأين: الأول، عندما رفعت سعر صرف الدينار من 145 الى 133، وخسرت الموازنة بسببه 15 تريليون دينار. والخطأ الثاني، هو تعيين مليون موظف جديد فرفعت بذلك كتلة الرواتب، وأصبح على الحكومة ان تدفع 90 ترليون دينار سنويا، 7 ونصف ترليون فقط للرواتب. واليوم كل الإيرادات النفطية لا تصل الى هذا الرقم.

هناك مطالب كبيرة امام الحكومة: تعيينات المشمولين بقانون التدرج، ومطالب المعلمين والتمريضيين وغيرها. وانا أرى ان كلها مطالب حقة. ولكن كيف ممكن تلبيتها؟ مثلا، كان ينبغي على الحكومة والبرلمان ان يكونوا أكثر جرأة في احداث نوع من التوازن في رواتب الموظفين، لان هذه الرواتب فيها خلل كبير. فنحن اليوم في العراق نعاني من وضع شاذ. لان الفجوة بين اعلى الرواتب وادناها 30 ضعفا، وهذا رقم كبير جدا فكيف يمكن تقليصه؟ كما ان هناك من يستلم رواتب مزدوجة. ان تقليص الفجوة، وإلغاء الازدواج، قد يمكن الحكومة من استخدام الفرق لتحسين أحوال الموظفين مثل التربويين وموظفي الصحة او غيرهم، وأيضا في انصاف الفئات الهشة من الموظفين.

هذه الامور تحتاج الى قرار سياسي، بالتالي هل القوى السياسية المسيطرة مستعدة ان تضحي بمصالحها الخاصة من اجل الشعب؟ هذا هو السؤال الذي ينبغي الإجابة عليه. والغريب اليوم ان البرلمان قام بزيادة رواتب نوابه!

اما بخصوص الازمات الثلاث التي أتوقع ان يجابهها العراق قريبا، فهي ازمة السيولة، وأزمة الطاقة، وأزمة التوظيف.

بالنسبة لازمة السيولة فأنا اتحدث عن ازمة السيولة الحكومية وأزمة الدينار الحكومي، فالبنك المركزي ليس لديه مشكلة بالدينار المصرفي وانما المشكلة في الدينار الحكومي. وهذه تأتي من كيفية حصول الحكومة على الدينار، فهي تحصل عليه بطريقتين: اما من إيراداتها غير النفطية من الداخل او من مبيعاتها من الدولار من البنك المركزي العراقي. إيرادات النفط عندما تأتيها بالدولار تحولها الى الدينار من خلال البنك المركزي العراقي. واليوم أصبحت هذه العملية غير كافية، ذلك لان معدل الانفاق العام في العراق في عام 2024 هو 13 تريليون دينار، وهذا الانفاق الشهري في العام الماضي. الآن أصبح ما تتحصل عليه الحكومة من 9 الى 10 تريليون. بالتالي فأصحبت لدينا ازمة بالدينار العراقي بسبب الفرق بين الواردات والانفاق. وهذه الازمة تشتد كلما انخفضت الإيرادات النفطية وستصبح أزمة متفاقمة. في الشهر القادم على سبيل المثال عندما تأتينا إيرادات نفطية شحيحة مقابل التزامات كبيرة بالدينار العراقي فسوف تزداد الازمة. فهذه الازمة تعالجها الحكومة الآن بطرح سندات تنمية، ولجأت الى خصم الحوالات؛ بحيث أصبح حجم الخصم اليوم 42 ترليون دينار، بالإضافة الى انها لجأت الى الاقتراض الداخلي والخارجي.

الاقتراض الداخلي اليوم زاد 13 ترليون

دينار، بمعنى 15% في سنة واحدة من 70 الى 83 ترليونا، وهذه مشكلة كبيرة لان هذه الازمة ستتفاقم في الأيام القادمة مع انخفاض سعر النفط.

في شباط 2025 طرحت الدولة سندات تنمية بـ2 ترليون دينار، والناس اشترت نصف ترليون فقط بسبب ضعف الثقة. في اذار تم طرح سندات بـ3 ترليون بفائدة 8% و10% خصصت فقط للمصارف. وكأنما السندات بدل ان تسحب سيولة الجمهور تريد ان تسحب سيولة المصارف! وهذا الامر له آثار سلبية، لأنه يجفف مصادر تمويل المصارف للقطاع الخاص ويؤثر عليها سلبيا، اذن أصبحت لدينا مخاطر كبيرة والدينار العراقي أصبح الحصول عليه صعباً.

السحب أيضا من خصم الحوالات. وخصم الحوالات، لا تستطيع الدولة ان تسير به الى ما لا نهاية، أولا الاحتياطي بدأ بالتراجع كان 15 تريليونا في العام الماضي، وهذه السنة مبيعات البنك المركزي في شهر شباط أكثر من مشترياته من وزارة المالية بمقدار 800 مليون دولار، بمعنى ترليون دينار خلال شهر واحد وهذه الفجوة سوف تكبر.

والموضوع الآخر ان هناك نسبة معينة بالإصدار النقدي. بمعنى اذا كانت الدولة الريعية عندما تصدر 100 ترليون نقد، فمن المفترض ان يكون لديك 40 تريليونا نقد اجنبي. وعندما تزيد من اصدارك النقدي فان هذه النسبة يصبح فيها اختلال، وسوف تقل النسبة، بالتالي تتعرض للخطر وهذه المخاطر برمتها من الممكن ان تأخذنا الى موضوع ثان وهو سعر صرف الدينار. الاحتياطي له وظيفتان أساسيتان: أولا، يمول الاستيرادات. وثانيا، يحافظ على سعر تعادل الدولار. فعندما تقلل من الاحتياطي سيكون هناك خلل في هذين العاملين. وبالتالي سيتم اللجوء الى خيار مرير وهو تعديل سعر الصرف بسبب شح السيولة بدل ان يكون 132 الفا، ربما يكون 170 من اجل ان تسحب الدولة دينار لسد المتطلبات.

وأزمة السيولة الموجودة اليوم في العراق هي نتيجة للسياسة المالية المعتمدة في العراق وهي السياسة التوسعية وهذا موضوع خطر، سنعاني منه في الأشهر القادمة وقد نصل الى خيارات مريرة، وهذه السنة ممكن تجاوزها لسبب بسيط، وهو ليس سببا اقتصاديا وانما سبب انتخابي. بالتالي الدولة ستجفف المصارف من اجل ان لا تؤثر على البنك المركزي وتقترض خارجيا من اجل ان تدفع الرواتب. لكن في العام القادم إذا استمرت الازمة - واعتقد انها مرشحة للاستمرار- فالوضع سيأخذنا الى خيارات أخرى. ان مشكلة السيولة هي اهم من المشاكل التي نعاني منها.

بالنسبة لازمة الطاقة، ممكن ان نعتبر ازمة أسعار النفط جزءا من ازمة الطاقة لان مبيعاتنا للنفط الخام أصبحت متدنية، وبالتالي اصبح هناك عجز حقيقي. ولا أتصور ان تكون هناك موازنة هذه السنة لسببين: أولا، لأن الموازنة الثلاثية بنيت على 70 دولارا للبرميل وهذا السعر أصبح من الماضي. اما السبب الثاني، فهو ان الموازنة لا يمكن ان تقر بدون تلبية احتياجات التربويين وغيرهم. وهذا سيضع الحكومة في مأزق. خصوصا بعد قرار البرلمان الأخير بالاستجابة لسلم الرواتب الجديد للتربويين وموظفي المهن الصحية. ربما أيضا تكون لدينا ازمة غاز. وترامب عندما منع الغاز فهو لم يقصد

الغاز وانما يقصد تحويلات الدولار. بالتالي الإيرانيون مستمرون بضخ الغاز، لكن حسب الفائض المتاح. بالتالي قد تكون لدينا مشكلة كهرباء لان الإيرانيين أصبحت لديهم الحرية في التصدير لكن العراق ليس قادرا على الدفع، وأزمة الطاقة إذا حدثت في العراق فلن تؤثر على الناس فقط. هذه الازمة احدى طرق معالجاتها هي تحويل المحطات من الغاز الى الكاز. لكن هذا يعني زيادة الطلب على الكاز، وازدياد استيراداتنا منه.

في النهاية، لا يوجد بلد اليوم جاذب للاستثمار وهو ليس لديه امدادات كهربائية منتظمة ومستمرة فأزمة الكهرباء، كجزء من ازمة الطاقة، سوف تضرب القطاعات الاقتصادية وتزيد من تكلفة انتاج السلع في العراق، وتقلل من القدرة التنافسية للسلع المنتجة بالداخل، على قلتها. لذلك هناك مصانع كثيرة تفضل ان تنتج في دول الجوار وتصدر للعراق.

بالنسبة لأزمة الوظيفة، ان المشكلة في العراق هي ان الاقتصاد ريعي وغير منتج للسلع والخدمات وغير موفر لفرص العمل. لذلك نرى ان الوسيلة الوحيدة اليوم لدى الحكومة هي أما ان تعيين الناس او تعطيهم رواتب الحماية الاجتماعية، ولا توجد وسيلة أخرى. فعندما تقول الحكومة انها حاربت الفقر وخفضت نسبة البطالة، فذلك الامر تم من خلال الرعاية الاجتماعية وهذه الرواتب ممولة من إيرادات النفط. ونحن نتحدث عن 6 او 7 تريليونات دينار ممولة من إيرادات النفط. فعندما تجف إيرادات النفط سوف يقل التوظيف وتقل الرواتب المدفوعة. كما ان التعيينات من المتوقع ان تتوقف خلال الفترة القادمة.

سيؤثر الركود الاقتصادي في العراق سلبيا على كل الأنشطة الاقتصادية، بما فيها أنشطة القطاع العام ومستحقات المقاولين. وبالتالي، ستتوقف المشاريع وسوف يتم تسريح العمال. فعندما يتقلص الانفاق الحكومي، فان دورة الحياة الاقتصادية كلها ستصاب بالركود، والقطاع الخاص سيتأثر سلبيا. وبالتالي، حجم التوظيف سوف يقل. وسيواجه العراق المشكلة الأخطر بشكل أكثر صراحة، وهي البطالة. ان البطالة التي تضرب الشباب قنبلة موقوتة.

في العراق لا توجد حلول استراتيجية، ولم يتم تنويع الاقتصاد.

حتى في قطاعات مثل قطاع الإسكان اعطينا كل امكانياتنا ومواردنا لبضعة مستثمرين استغلوا الوضع الحالي، وحصلوا على أرباح طائلة. ومعظمهم واجهات لأحزاب سياسية. بينما كان المفترض ان ننشط قطاع الإسكان ويكون هو القاطرة التي تستقطب الايدي العاملة وتشغل مئات الالاف من الناس، لكننا لم ننجح في ذلك. كما لم ننجح في قطاع الصناعة الوطنية او القطاع الزراعي ليوفرا فرص عمل.

التنمية والإرادة السياسة

الثقافة الجديدة: كون تخصصكم الدقيق هو قضايا التنمية، كيف تنظرون لإمكانيات التنمية في العراق في المستقبل القريب؟ وهل الحكومة التي ستنبثق عن الانتخابات القادمة قادرة على الشروع بعملية اصلاح تمهيدا لإطلاق تنمية حقيقة؟

د. المرسومي: من وجهة نظري الإصلاح السياسي هو النقطة الأهم. إذا لم يكن هناك اصلاح سياسي فلا يمكن ان تكون

هناك تنمية في العراق. المسألة ليست مسألة شخوص وانما بنية النظام السياسي. لكن الامر ممكن، لان العراق يمتلك كل المقومات لبناء تجربة رائدة في التنويع الاقتصادي والتنمية والتطور. وهناك موارد كبيرة، موارد مالية وموارد طبيعية وقوة بشرية. وهناك ايضا تنوع وامكانيات كبيرة مثل السياحة والزراعة والصناعة.

لكن المشكلة سياسية إذا لم يتغير النظام السياسي لن يتغير شيء، أي حكومة ستأتي ستستجيب لإرادة السياسيين والأحزاب الحاكمة. فالحكومة نتاجهم، وهم لديهم شروط، والشروط هي المحاصصة. والمحاصصة اليوم موجودة في كل مكان من اجهزة الدولة.

هذا النظام يجب ان ينتهي، ويأتي نظام سياسي آخر يؤمن بمشروع نهضوي تنموي. وإذا حدث ذلك فمن الممكن ان يبنى العراق، بحيث يمكن ان تظهر الاثار الإيجابية خلال خمس سنوات. فالتنمية تحتاج الى إرادة سياسية، بحيث تكون هناك إدارة رشيدة لمحاربة الفساد. الامر سياسي بحت. ان لم تتواجد هذه الأمور فالحديث عن التنمية حديث فضفاض، بل نوع من العبث. أعتقد ان الحكومة التي ستنبثق بعد الانتخابات القادمة ستظل على ذات السياسات الاقتصادية الريعية. وستعتمد، أيضا، على حجم الإيرادات المتاح من النفط. وستصل الى نفس المسار في محاولة تبذير الأموال وشراء صوت الناس وشراء الوقت أيضا. الا ان الحكومة القادمة ستواجه إشكالية النفط والتعامل مع الواقع الجديد. فالمشاكل الاقتصادية التي بدأت تتفاقم بفعل الاحتياجات الكبيرة للناس والزيادة الكبيرة في السكان. والحكومات في الدول الريعية، وبغض النظر عن الشعارات، سوف تبقى حكومات قاصرة غير قادرة على تصحيح الوضع الاقتصادي. اليوم نحن لسنا بحاجة الى إصلاحات ترقيعية، ولا نحتاج الى اعمال إنشائية متفرقة مثل بناء جسر هنا ومستشفى هناك ومدرسة هنالك، فهذه ليست تنمية هذا ترقيع.

وعندما اتحدث عن التنمية أعنيها بكل اطرها: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. من الذي يقوم بالتغيير؟ القوى السياسية والإرادة السياسية الجديدة، "الطبقة" السياسية الجديدة، بمواصفات جديدة وتوجهات جديدة. لان "الطبقة" السياسية اليوم مشتتة يهمها مصالحها، بالتالي تحاول ان تفضل المصلحة السياسية للأحزاب على مصلحة البلد، فكل حزب مسيطر على وزارة او مؤسسة ويجيرها لمصلحته الخاصة، وهذه العملية لن تنتهي، وبالتالي الحكومة القادمة لن تختلف عن السابقة سوى في الاسم والمسميات والوعود، لكن بالنتيجة هي دولة ريعية تتبع متغيرات السوق النفطية العالمية. سيبقى الفقر في العراق لأن الموضوع سياسي. عندما نحدث اصلاح سياسي فان كل الأمور الأخرى ستحل.

طبعا، عملية التغيير هذه لن تكون سهلة. بالتأكيد ستكون هناك معارضة سياسية ومعارضة جماهيرية. وستواجه بكل تأكيد بمقاومة ومنها مقاومة شعبية. لكن الدولة القوية هي التي توفر شروط التنمية. لان التنمية، كما ذكرت سابقا، فيها إجراءات مؤلمة، وعلى الناس ان تتحملها. لكن يجب ان تكون الدولة على قدر من الحزم خصوصا

في المراحل الأولى. يجب ان تكون السلطة قوية من اجل فرض إجراءاتها على الناس، يجب على السلطة أولا ان تمتلك ادواتها، فاذا امتلكت أدوات السلطة فبناء الاقتصاد في العراق ليس صعبا، لان اهم شيء متوفر فيه وهو تمويل التنمية، أيضا إدارة المال وكيف تستخدم هذا المال وبأي طريقة تستخدمه.

ترامب!

الثقافة الجديدة: ما هو تقييمك للصراع التجاري العالمي الحالي الذي شرع به الرئيس الامريكي دونالد ترامب؟

د. المرسومي: من وجهة نظري، ما كان للصين منذ الإصلاح الاقتصادي 1978 – 1979، ان تحظى بهذه المكانة المرموقة في العالم لولا السوق الامريكية. والولايات المتحدة الامريكية هي التي فتحت السوق الامريكية أمام السلع الصينية وتغاضت عن ممارسات تجارية "غير مشروعة" للصين. منها على سبيل أمثال لا الحصر التجاوز على حقوق الملكية الفكرية. وما قام به ترامب هو، بتصوري، مجرد كشف عورة النظام التجاري العالمي. حيث يبدو ان الكثير مما كنا نسمعه عن العولمة وتحرير التجارة لم يكن صحيحا. قبل ترامب كانت الصين تفرض ضرائب ورسوما كمركية بنسبة 67%؛ اما الاتحاد الأوربي فكان يفرض 39%، بينما فيتنام واليابان 49% و46% على التوالي. بمعنى ان العالم كان يعيش في ظل رسوم كمركية كبيرة. العجز بالميزان التجاري الأمريكي ترليون و200 مليار دولار، والدين الداخلي 32 ترليون دولار. وبالتالي فان ترامب يعتقد ان هذه مشكلة عميقة في كيفية تحويل هذا العجز الى فائض في موازين المدفوعات، وميزان الحساب الجاري. انا أرى ان رد فعل الصين مبالغ. انا اعتقد ان ترامب يطالب بتحرير متبادل للرسوم من قبل الطرفين. والدليل انه أوقف فرض الرسوم الكمركية على الكثير من دول العالم عندما بدأت عملية التفاوض بمعنى ان يكون هناك تحرير متبادل وهذا ما ترفضه الصين.

ترامب، من خلال سياسته هذه، يبدو انه يريد من ورائها قضيتين اساسيتين. أولا، زيادة إيرادات الحكومة؛ وثانيا، مبدأ الحماية. لكن، انا أتصور ان الهدف النهائي لترامب هو تحرير التجارة فعليا. وهذا الهدف، ان تحقق على المستوى العالمي، فسيكون مضرا في الدولة غير المتطورة والنامية. الا انه بالتأكيد في صالح الدول المتطورة، فتحرير التجارة والاقتصاد، وكذلك السياسات الحمائية التي فرضت بعد حملة ترامب، هي دائما في صالح الدول المتطورة.

الصين تعتقد ان لديها مصدر قوة، وهو امكانيتهم التصديرية الكبيرة. وهم قادرون على الصمود وعلى تغيير نمط التجارة. لكن الى أي مدى ممكن ان تستمر الصين؟ هل ستستجيب لضغوط ترامب؟ هذه المسألة من الصعب تحديدها!

بالتأكيد هذه الحرب التجارية لها انعكاسات سلبية، حتى لو كانت بين الصين والولايات المتحدة الامريكية فقط، أي بين أكبر اقتصادين في العالم. حوالي 30% من التجارة العالمية سوف تتعرض الى هزة. وهذا سوف يؤدي الى ركود وتضخم. بمعنى انكماش في الإنتاج وتضخم في أسعار

السلع. التداعيات ستكون على مستوى النمو الاقتصادي العالمي، كما ان حجم التجارة العالمية سوف يتدهور. وستتضرر الكثير من الدول، خصوصا غير المتطورة والنامية، ومنها العراق. حيث ان كلف السلع سترتفع لأن اليوم لا توجد سلعة تنتج في بلد واحد وانما عدة بلدان.

في العراق ما يهمنا هو الطلب على النفط، فاذا بدأ النمو الاقتصادي العالمي بالتراجع، فإن الطلب على النفط سوف يتراجع أيضا. خصوصا ان هناك بوادر تراجع الطلب الصيني على النفط منذ 6 أشهر. نعم، هم اليوم بعد هذه الازمة قطعوا وارداتهم من النفط الأمريكي ولجأوا الى الشرق الأوسط، لكن هناك مشاكل اقتصادية في الصين أدت الى انخفاض في النمو الاقتصادي الصيني، وهذا سوف ينعكس على الطلب على النفط، وبالتالي ينعكس على الأوضاع الاقتصادية في البلدان المنتجة والمصدرة للنفط وعلى كل العالم. دون ان ننسى طبعا، كما وقد سبق ان حذرنا، بأن الصين بدأت اساسا التحول نحو الطاقة المتجددة، وهذا جعلها تقلل الطلب على النفط. العالم كله سوف يتضرر، ونلاحظ اليوم التداعيات: حركة الأسهم؛ الذهب بدأ بالارتفاع؛ والدولار بدأ بالانخفاض. وعندما ينخفض الدولار يؤثر على القدرة الشرائية في البلدان المستوردة ويؤثر أيضا على حجم مديونيتها.

في النهاية، اعتقد ان الموضوع اقتصادي بحت. والولايات المتحدة الامريكية لديها مشاكل اقتصادية كبيرة، وعجز كبير في ميزانيتها، وحجم مديونية مهول. بالتالي، هذه خطوة استباقية، الا انها ليست جديدة على ترامب. فقد بدأ بها عام 2018. لكنه لم يستكملها واليوم عاد ليستكملها. والغرض منها تصحيح الميزان التجاري مع الصين خاصة، لان أكبر عجز هو مع الصين. قد نرى في المستقبل صيغة معينة بين الطرفين.

من جهة أخرى يدور حديث هذه الأيام عن ان عرش الولايات المتحدة، وسيطرتها عالميا، بدأ يهتز. بحسب وجهة نظري فهذا امر صعب. فهيمنة الدولار الأميركي، الناتجة من كونه يمثل 60% من الاحتياطات النقدية في البنوك المركزية يعد من اهم مصادر قوة الولايات المتحدة الامريكية. بالإضافة الى هيمنة الولايات المتحدة على خطوط نقل الطاقة بالعالم، الغاز والنفط. وكذلك، التكنولوجيا العسكرية خاصة والقواعد العسكرية المنتشرة في العالم. الصين من الممكن ان تنافس اقتصاديا، وهي بدأت بالفعل بالمنافسة الاقتصادية، لكن في المسائل الأخرى، تحتاج قدراتها التنافسية الى مدى زمني طويل وبعيد. وحتى مشاريعها الاستراتيجية لم تنجح كما كان يراد لها. على سبيل المثال أصبح الممر الهندي، وربما لاحقا سيصبح طريق التنمية، طريقا بديلا عن طريق الحرير الذي تطرحه الصين.

أدب وفن

ثقافة التجهيل!
لولا الجهل لجاع الكهنة وسقط الطغاة/ ماركس

حسب الله يحيى

نعم.. ثقافة التجهيل؟ وهل يحتاج الجهل إلى ثقافة؟ إن ما فعلته السياسية الثقافية بعد 2003 لا يخرج عن هذا الإطار وهذا التوجه. إن انتشار الأمية وغياب التعليم الإلزامي، وهيمنة المدارس والكليات الأهلية، وانهيار منظومة التعليم والتربية، وسيادة الرشا واستسهال النجاح، والاعتماد على التلقين في كل المراحل الدراسية ونشر الكرامات والانتماء إلى الماضي بكل صفحاته المختلفة، من دون حتى الإشارة إلى الجوانب النيرة في حقول المعرفة التي أكدت عليها الكثير من الجذور الفلسفية والعلمية الإبداعية في تراثنا النير؛ هو الذي أشاع الجهل ونشر الأمية بين الناس . وبات الاتكاء على الأدعية والرؤى الظلامية.. يأخذ قسطا وافرا من الأهمية، حتى وجدنا أنفسنا أمام (معالجات طبية) بالأعشاب و(الطب النبوي)، بعيداً عن الطب ومنجزاته العلمية، وصولاً الى الذكاء الاصطناعي وآفاقه. ولم تعد الشهادات العليا موضوع ثقة علمية، بدليل ان هناك عددا غير قليل من الخريجين، يُخطئون في ابسط القضايا المطلوب توضيحها ونشرها. وبات (الاستاذ الجامعي) مهمشا، لان السلطة السياسية باتت تهيمن على ارادته وخطابه المعرفي.

اما التعليم الابتدائي والثانوي، فقد وقع فيه المعلم تحت ضغوط عديدة وراتب ضئيل، ما جعل هذه الشريحة تعلّي صوتها في تظاهرات عارمة.. فيما تعمل الحكومة على توسيع رقعة المدارس الأهلية لأهداف ربحية وليست علمية ولا تربوية، ما أدى الى تدهور العملية التربوية.. فلا مدارس تمارس دوراً يليق بالمعلم والطالب، ولا مناهج مستقرة يعتمدها المعلم، ولا وجود لاحترام الدرجة التي يمنحها المعلم لطلبته باستحقاقاتهم.. ذلك ان وزارة التربية، تأمر بين فترة واخرى باعتبار السنة الدراسية "سنة عدم رسوب"، ومن ثم فتح أكثر من فرصة للغشاشين!

وبات فشل العراق على مستوى التربية والتعليم والدراسات الجامعية، من الدول (المتقدمة) في تدهورها وفشلها. هذا الحال، انعكس على ظروف المواطن والمواطنة، وكان من جراء ذلك انتشار الجريمة والمخدرات وانهيار قيم المجتمع.. حتى أصبح الجهل هو السائد، تقريبا، في كل قطاعات الحياة. وعندما ننتقل الى وزارة تحمل اسماً جامعاً لثلاث وزارات (الثقافة، السياحة، الآثار) نتبين ان هناك تهميشا واضحا لها وكان من المفترض ان تكون من الاهمية بحيث توازي وزارتي الدفاع والداخلية، بوصفها وزارة تعنى بوعي الانسان، ونظم الحياة، والارتقاء بوعي الانسان.

ما يحدث في الواقع، مثير للاستياء وللقرف، فلا قانون يلزم بمنظومة امنية وتربوية ومعرفية على الاصعدة كافة، ولا ثمة مؤسسات تؤسس لتثقيف الناس عن طريق السينما والمسرح والتشكيل والموسيقا والندوات والملتقيات الثقافية.

نعم.. هناك مهرجانات للتباهي والمتعة والتسلية وهدر الاموال، وهناك دوائر لا يشغلها من (الثقافة) سوى حصر الدوام الرسمي والالتزام به، من دون ان يحاسبها أحد على منجز حققته او مال سرقته!

إنّ الثقافة والتعليم والتربية.. كلها هوامش في (العملية السياسية الراهنة) وستظل عملية مكللة بالفشل، مصادرة للرأي، قمعية لكل فكر نيّر ولكل موقف سديد، مادام هناك من يروج ثقافة الجهل!

رواية " فهرس" وملحمة الوجع العراقي

فاضل ثامر

هذه الرواية، كما أزعم، رواية مختلفة عما نقرأ في السرد العراقي والعربي، هذه الأيام، فهي رواية محتشدة بالرموز والمرئيات والتأملات، تلامس الجرح العراقي وتحلق بجناحين: جناح نمير بطل الرواية وراويها المركزي الذي يحاول إنجاز اطروحة الدكتوراه في امريكا، وجناح ودود عبد الكريم، بائع الكتب في شارع المتنبي الذي التقاه نمير، وانشغل بحياته وهمومه، وخاصة بعد أن علم بأنه منصرف لانجاز مشروع كبير يوثق فيه وقائع الدقيقة الأولى من الحرب الأخيرة التي احتل فيها الامريكان العراق، وأسماه بالفهرس، وهو كما يتضح لاحقاً تناص مع اسم كتاب "الفهرس" لأبن النديم، والذي كان قد ترك فيه بياضات كثيرة أتمها الوزير المغربي، الا أنها لم تصلنا، وكان الروائي سنان أنطوان يرغب في أن يملأ هذه البياضات بمرويات معاصرة من تاريخ الخراب والموت والمعاناة والوجع في العراق الحديث. وكما قال الكتبي ودود عبد الكريم صاحب مشروع الفهرس أنه "فهرس لكل دقيقة، لكل شيء مات بذيج الدقيقة." (ص 48) وأعلن ودود أنه يريد أن يكتب "كتاباً مفتوحاً" (ص 25) وهو كما يبدو هدف المؤلف من كتابة الرواية هذه. الراوي المركزي نمير، أصيب كما يقول بعدوى مشروع "الفهرس" الذي شرع به بائع الكتب ودود بتدوينه، وبشكل خاص بعد أن ترك له ودود، رفق رسالته، الباب الأول، وهو تاريخ الدقيقة الأولى التي لم تكتمل نهائياً بعد" (ص11)، حيث راح نمير يجمع قصاصات وصوراً من الصحف، يؤرشفها لتضاف الى فهرس ودود. وكان نمير مستغرباً من سلوك ودود وتساءل "ليس مهتماً بالترجمة ولا النشر، فلماذا إذاً يشاركني في مخطوطته وبهذه السرعة" (ص 12).

في هذه الرواية ثمة أكثر من سارد فضلاً عن السارد المركزي نمير. هناك مرويات بائع الكتب ودود، التي هي جزء من مدونة " الفهرس" ومرويات نسائية، ورواة الحبكات الفرعية الثانوية التي تشكل معظم المتن

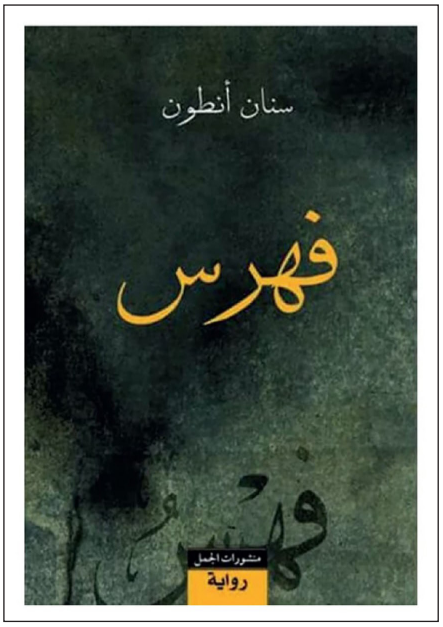

السردي للرواية، مما يجعل من الرواية نصاً بوليفونياً، زاخراً بالاصوات السردية والحوارية المتنوعة. ونظراً لانشغال الراوي المركزي نمير بالكتابة تتحول الرواية تدريجياً الى رواية ميتا سردية، وهو ما صرح به الروائي في الكلمات الختامية للرواية عندما أعلن عن قراره هذا ".. وقررت أن أبدأ بكتابة هذه الرواية. " (ص 283) ويؤدلج الروائي مرويات الكتبي (ودود) تحت عتبة عنوان مركزي هو "منطق" مثل منطق الكاشان، منطق المنضب، منطق الخليفة، منطق الزوراء، منطق السدرة، منطق الألبوم، منطق أبو جنيّه، منطق الجدار، منطق العود، منطق الأسير، منطق الجنين، وغيرها كثير. وقد عمد الراوي في هذه المدونات أن يستنطق هذه الأشياء ويؤنسنها ويدخلها ضمن العتبة السردية الميتاسردية. فسجادة الكاشان، مثلاً، تتحدث عن تاريخ صناعتها وتنقلاتها، وموتها. والعود يتحدث عن كيفية صناعته، ومنطق السدرة تتحدث فيه شجرة السدر عن علاقتها بالإنسان، وحياتها واقتلاعها من جذورها.

وبذا يمكن أن نقول إن الرواية تنطوي على خطين سرديين وعدد كبير من الخطوط والحبكات الثانوية الصغيرة، لكن الراوية يظل يتحكم فيها سردان رئيسان، سرد الراوي المركزي نمير ومشروعه الأكاديمي لانجاز أطروحة الدكتوراه في احدى الجامعات الامريكية، وعلاقته بصديقته الامريكية "مرايا"، وهموم الغربة والنوستالجيا والحنين الى الوطن من جهة، ومن جهة ثانية هموم السرد الثاني الذي هو سرد بائع الكتب ودود والذي سيتحول تدريجياً من شتلة الى بستان كما قال ودود: " الفهرست كان شتلة، وأصبح اليوم بستاناً." (ص 185) وتنمو الرواية سردياً، كما هو واضح بين عامي 2006، 2007، ويتضح ذلك من خلال متابعة حياة، بائع الكتب ودود ومأساته، والتي بدأت مع "الاحتلال" الأمريكي عندما عاد من شارع المتنبي الى بيته، فوجد أن صاروخاً أمريكياً كان قد مسح بيته وعائلته من على وجه الأرض. وقد سببت له هذه الفاجعة صدمة نفسية لا زمته لفترة طويلة، وربما لم يسلم من عقابيلها أبداً، مما تطلب ارساله الى مصحة نفسية تلقى فيها العلاج لفترة طويلة، لكنه ظل يحس بالرعب والوحشة والضياع والإحباط. ولأن ودود ظل بلا بيت يأويه، فقد أضطر الى السكن مع الكتب التي يبيعها، حيث وجد له مكاناً ينام فيه، فأصبحت هذه المكتبة هي مصدر رزقه وبيته الوحيد الذي

يأوي إليه. وبسبب هذه التداعيات المؤلمة، بدأ (ودود) يشعر بالتشوش، وبدأت أفكاره تختلط بصور ومرئيات فنطازية ومتخيلة أحياناً، كما تسرب الهذيان والاضطراب الى تفكيره ولغته، والى علاقاته مع الآخرين من الباعة والقراء الذين يبحثون عن عنوانات معينة. ويبدو أن هذه اللحظة الحرجة كانت نقطة فاصلة في رسم مسار حياته اللاحق الذي كرسه لإنجاز موسوعته المفتوحة "الفهرس"، حيث كان يجمع الصور والمقالات والمرويات الشفاهية ويؤرشفها في "فهرست"، يدون فيه تاريخ الدقيقة الأولى من الحرب كما يقول. وتعتمد البنية السردية في الرواية على التناوب بين سردين، سرد (نمير) وسرد (ودود)، وغالباً ما يشتبك السردان، وتذوب الفواصل بينهما ليشكلا في النهاية بنية سردية واحدة هي بنية "الفهرس" المركزية المتحكمة في أطراف الحبكة وتمفصلاتها. فالراوي المركزي نمير، يضيف من خلال مدوناته في دفتره الصغير وذاكرته الكثير من المرويات والحبكات والحكايات حتى يتحول " الفهرس" الى تأليف مشترك بين (نمير) وبائع الكتب (ودود)، ويصبح "الفهرس" هو البنية الاطارية والمكانية المتحكمة في الحدث. و " الفهرس"، بوضعه النهائي، شهادة موجعة عن معاناة الفرد العراقي بعد الاحتلال الامريكي عام 2003، والمآسي التي سببها الاحتلال للحياة الاجتماعية وللقيم الانسانية، وللأمن الاجتماعي بصورة أساسية . لقد قدم ودود من خلال شهادته سلسلة من المرويات والحبكات الفرعية التي كانت تتخذ من مفردة " منطق" عنواناً فرعياً لها مثل: " منطق الكاشان و "منطق شجرة السدرة" و " منطق النباش" و " منطق المنضب" و " منطق الطير" و " منطق الخليفة" و " منطق الالبوم" و " منطق الجدار" و " منطق العود" وغيرها. في هذه الفقرات السردية يؤنسن humanize الروائي الاشياء غير الحية، ويستنطقها، فيتحول كل واحدٍ فيها الى سارد حي، يروي سيرة حياته وسيرورته، وأحياناً موته. وتعتمد هذه التقنية على مبدأ التشخيص. personifi-cation حيث تكتسب الاشياء غير الحية، من خلال عملية الانسنة والتشخيص ملامح كائنات ناطقة وساردة ، تروي جانباً دقيقاً من جوانب الوجع العراقي. وعلى الرغم من انشغال بطل الرواية وراويها المركزي (نمير) بالعمل على إنجاز أطروحته في الدكتوراه من احدى الجامعات الأمريكية، الا أنه لم ينقطع عن مراسلة بائع الكتب (ودود)، وأنصرف الى تحرير القسم الاول من مخطوطة "الفهرس" التي سلمها له (ودود) ، في لحظة أريحية، حيث اصبحت في حوزة (نمير) الذي ظل موزعاً بين مهمة تحريرها واستكمالها وبين إنجاز متطلبات شهادة الدكتوراه، والرغبة العارمة التي تدفعه لكتابة رواية عن تجربة ودود وفهرسه والمحنة العراقية المتصاعدة. إذْ يعلن نمير في نهاية الرواية عن عزمه على كتابة رواية عن هذه الوقائع: " مسحت دموعي وطبعت المقالة..

وقررت أن أبدأ بكتابة هذه الرواية؟ (ص 283) وهذا التصريح يؤكد الطبيعة الميتا سردية للرواية، بوصفها تعبر عن رغبة قوية لكتابة هذه الرواية، وربما تحقيق الروائي بعمله هذا رغبة (ودود) في أن

يكتب كتاباً مفتوحاً.'' (25) وتكشف الرواية عن طبيعة حوارية واضحة بين خطابي بطل الرواية (نمير) وبائع الكتب، ما يجعلها رواية بوليفونية محتشدة بالأصوات السردية الغيرية الرئيسة والفرعية.

ففضلاً عن الصوتين السرديين المهمين للبطل (نمير) وبائع الكتب (ودود) تعلو أصوات أبطال الحبكات والمرويات الثانوية التي انطوى عليها متن ''الفهرس''. وعلى الرغم من انشغال بطل الرواية (نمير) بإنجاز متطلبات أطروحة الدكتوراه، الا أنه بقي على اتصال دائم ببائع الكتب (ودود) بصورة مباشرة، من خلال ملاحقة لتطور الأحداث الداخلية في العراق وتداعيات الاحتلال الامريكي بعد عام 2003 . وبينما كان ودود يستمع الى احدى الإذاعات المحلية، ذهل عندما سمع نبأ عن حدوث تفجير إرهابي في شارع المتنبي، حيث التهمت النيران العديد من المحال والسيارات، وكان قلق نمير على مصير ودود كبيراً '' وكنت أردد وأنا اقرأ، ودود، ودود، لا ودود.. كأنها تعويذة ستحميه أو صلاة يمكن أن تنقذه '' (ص 280). وبادر (نمير) فوراً للاتصال بصديقه مدحت في بغداد للاطمئنان على سلامة ودود والذي أجابه بعد ساعتين '' البقية بحياتك'' (ص 281) لقد كان الخبر صادماً مؤلماً على (نمير) بسبب وفاة (ودود) وعشرات الأبرياء من أصحاب المكتبات ومرتادي شارع المتنبي صباح ذلك اليوم من شهر آذار عام 2007، حيث كان تسلسل ودود هو السابع والعشرين على قائمة شهداء شارع المتنبي الثلاثين'' (ص 281). وصادف أن نمير بعد أربعة أيام من الانفجار الإرهابي عثر على مقالة قصيرة ترثي الكتبي ودود على موقع الحوار المتمدن، تحدث فيها الكاتب عن علاقته به، وكشف فيها عن تفاصيل دقيقة عن حياته ودراسته في كلية الآداب، ونجاته خلال الحروب الكثيرة، من قصف بينما كان مختبئاً في أحد الخنادق. وبعد أن مسح (نمير) دموعه طبع المقالة وكتب عليها بخط يده '' منطق ودود'' وأضافها الى الفهرس '' (ص 283) وكأن عدوى الفهرس قد انتقلت الى (نمير) نفسه. وهكذا يكتمل '' الفهرس'' بمدونات ودود ونمير معاً، حيث تختلط الفواصل بين هذه المدونات وتضيع الحدود، لكنها تظل تنتمي الى روح ''الفهرس'' ، ''وأقلب الدفتر، واكتشف ان كلماتي صارت تشبه كلمات (ودود) في كثير من المواضع.

هل حدث هذا لأنني نسخت مناطقه ورسائله بخط يدي . '' ويختلط الأمر علي.. هذه ليست كلماتي، إنها كلماته، كلماتي التي تسللت الى دقيقته الاولى، وفهرسه.'' (ص265) لقد كان (ودود) يطمح أن يكتب مدونة دائرية في فهرسه ، ولذا وجدناه يستهل سرده بفصل يحمل عنوان ''منطق الطير'' (ص9) ويختتم الروائي الرواية بفصل ختامي يحمل عنوان ''منطق الطير الأخير ايضاً'' (ص 270)، وفيه تهويمات فنطازية تربط بين المرة الأولى التي طار فيها، بتشجيع من أبيه الذي قال له بحزم أن يحلق بعيداً (ص9) وبين تحليق الطير الأخير في سماء بغداد، وهو يشعر بالرعب من منظر الطائرات الحربية المخيف'' أنا أخاف اسراب الطيور الحديدية الضخمة.'' (ص 279) ويتذكر (ودود) في تلك اللحظة المصير الفاجع لأسرته التي دمرها صاروخ

من احدى الطيور الحديدية الأمريكية: " أين ذهب أبي؟ أين أمي؟ أين أخوتي ما زلت اطير " (ص 279) هذه الرواية مدونة من مدونات الوجع العراقي الدائم، وهي تكشف عن معاناة الشعب العراقي في ظل الحكومات الدكتاتورية المتعاقبة، مع تركيز خاص على الاحتلال الامريكي للعراق عام 2003 والجرائم والانتهاكات الفظيعة التي ارتكبتها قوات الاحتلال ، ولتسجيل شهادة شجاعة وأمينة عن موقف المثقف العراقي تجاه جرائم الاحتلال الأمريكي. وتكشف الرواية من جهة أخرى، عن منحى بيئي يجعلها رواية بيئية، نظراً لانشغالها بمكونات الطبيعة، ومحاولة أنسنتها وتشخيصها. فقد أبدى الروائي شغفاً خاصاً بالطبيعة والبيئة، والطيور ويمكن أن نلتقط إنموذجاً دالاً متمثلاً في مشاعر التعاطف التي ابداها الراوي تجاه شجرة السدر، التي تابع بشغف حياتها وعطاءها وعلاقتها بالانسان، وحزنه الكبير عندما تعرضت للإقتلاع من جذورها عندما توهم الفلاح، أن الأرضة تبني مملكتها تحت جذور شجرة السدر مما يتطلب اقتلاعها من الجذور. (ص61) رواية الفهرس هي رواية عن الانسان والكتاب والطبيعة والحرية ومعاناة الشعب العراقي، عبر رؤية حداثية وفنية، يجعلها تقف في الصف الاول من منجزات السرد الروائي العراقي الحديث.

الثقافة الجديدة تهنئ الفنان فيصل لعيبي

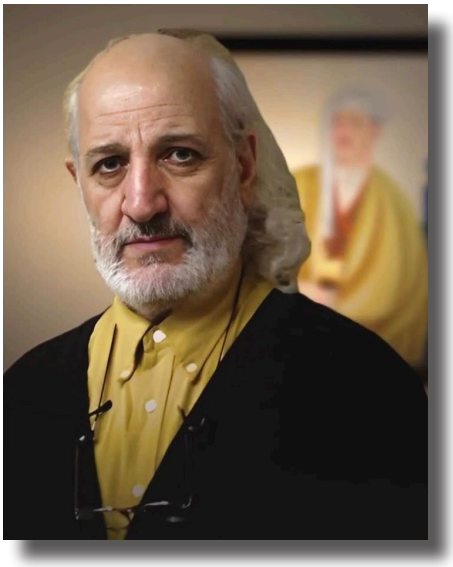

الرفيق العزيز الفنان القدير فيصل لعيبي

يسرنا، نحن رفاقك في مجلة «الثقافة الجديدة»، أن نحتفل وإياك بمناسبة الذكرى الثمانين لميلادك، وننظر الى هذا الحدث الهام في سيرتك الغنية باعتباره محطة جديدة من محطات حياتك.

لقد عرفنا فيك إنسانا مكافحا وفنانا مبدعا منذ مطلع شبابك. وكانت المسيرة التي تواصل خطواتها الواثقة بعزيمة وأمل مسيرة مفعمة بالقيم الجمالية والأمثلة الملهمة في الانجاز الفني والكفاح السياسي والفكري.

إننا إذ نتوجه اليك بأحر التهاني وأصدق الأماني بهذه المناسبة السعيدة، فاننا نثق بأنك ستواصل الطريق الذي اخترته، محققا المزيد من الانجازات المتميزة في ميادين الابداع الجمالي والكفاح المتفاني من أجل قضية العدالة التي وهبتها الكثير مما تحول الى مثال مضيء لأجيال من الفنانين والمثقفين.

دمت للابداع والنضال فناننا القدير ..

هيئة تحرير مجلة «الثقافة الجديدة»
11 آيار 2025

د. محمد عطوان:
العراقيون يرفضون التوزيع الاثني للسلطة بسبب تكريسه منظور ما بعد الاستعمار

أجرى المقابلة: خالد السلطان

منذ أن برز محمد عطوان كاتباً في تسعينيات القرن الماضي كانت له لمسة خاصة في دراساته التي اهتمت بالمجتمع العراقي وقراءة بنياته الخاصة، والعلاقات بين مكوناته ثقافياً ومعرفياً وعرقياً، فقد حاول عطوان أن يفهم هذا المجتمع من خلال الدراسات الحديثة التي حاولت تحليل فكرة الوطن والمواطنة والعلائقية التي تنبع بينهما. عطوان عمل في أكثر من منظمة مجتمع مدني تدافع عن المرأة وتنبذ العنف، كما انه اهتم بمحاولات إعادة قراءة العقل السياسي العراقي والعربي في رسالة الماجستير ومن ثم أطروحة الدكتوراه اللتين حصل عليهما بدرجة امتياز من جامعة بغداد (كلية العلوم السياسية).. الدراسة الاكاديمية أعطته دفعاً جديداً للبحث والتقصّي، وإيجاد بدائل للمناهج التي يقرأ في ضوئها طبيعة المواطنة، والمفاهيم الثقافية التي تؤثر فيها، وتتأثر بها في الوقت نفسه..

في هذه المناسبة نود محاورة الدكتور محمد عطوان حول بعض القضايا المتعلقة بالعنف المادي والرمزي الذي تمارسه كانت تمارسه أجهزة الدولة ومن بعد عصبويات متمددة في إطار الدولة نفسها (التكوينات الأقل

من الدولة)، وكذلك نحاوره حول حضور الهويات الفرعية مقابل غياب التصور الوطني الجامع لها، وعلاقة الفضاء المديني بفكرة التعدد، وأسباب غياب التعدد أيضا.. وطبيعة الطقوس ذات الطابع الاجتماعي الهيجاني وعلاقتها بما هو ديني وروحي صرف.. هذه الموضوعات سيجيب عنها الدكتور محمد عطوان في هذا الحوار الحصري لمجلة الثقافة الجديدة.

السلطان: في مقولته عن العنف الفيزيائي والرمزي – المُمارَس من قبل الدولة – يؤكد (بيار بورديو) بأن العنف الفيزيائي

للدولة منّوط بما يوّصف بالعنف الشرعي الذي تطبقه المؤسسات الشرطية والأمنية والعسكرية. لكن في بلدان ما يُسمى بالربيع العربي، من ضمنها العراق طبعاً، صارت الجماعات العصبوية المُهيمنة والمُسلّحة وحدها المُمارِس لذلك العنف. وعليه هل تعتقد ــ من الناحية البحثية الموضوعية ــ بأن المُجتمع العراقي الراهن، بكُل مكوناته وأطيافه، هو مُجتمع ما قبل الدولة؟

عطوان: ابتداءً نقول إنه مهما كانت طبيعة المُجتمع، حداثية أو ما قبل حداثية فإن البُنى الطبقية والثقافية لهذا المُجتمع - على تنوعها - لا بد لها من التدافع والحركة فيه، مقابل ذلك تُمارس مؤسسات الإكراه ــ التي ذكرتها في سؤالك ــ احتكار مهمة تمثيل الكل داخل هذا المُجتمع، عبر صُنع "المشروعية" التي يقترحها جهازها الأيديولوجي الأدبي، ليعيد بناء نسخة مُمكنة عن الواقع عبر مذهبته بإحكام. فيجري هُنا ضبط المُمارسات المادية، والأعراف، والعادات، وأساليب الحياة المُتداخلة التي في ضمنها المُمارسات السياسية والاقتصادية المُتحكمة في توصيف المِلكية والتملُّك وتقسيم العمل الاجتماعي داخل علاقات الإنتاج.

وحتى لو عوينت مؤسسات أو أجهزة الضبط والرقابة الأدبية بوصفها مؤسسات حديثة، فأنها لم ترق لتكون جزءاً من الدولة الحديثة في بلداننا، لأن مستوى أداءها لم يكن ليعطي النتائج التي تنسجم مع مرام الدولة الحديثة؛ لذلك كانت هذه الأجهزة تستجيب لفاعلية ونمو الانقسامات الاجتماعية كما هي، بصورها الفرعية العصبوية الاثنوطائفية.. ما يعني أن الجهاز الأدبي - الذي من مهامه رعاية التنوع العام - مُنقسم على نفسه طائفياً وعِرقياً.. والعقلُ الحاكم الذي يُدير هذا الجهاز (فرداً كان أو حزباً)، يُديم حضوره في السُلطة باستلاب جوهر العقل الجمعي عبر تمثيله بصيغ بدائية، ليصبح هذا الأخير منسوخاً طائفياً، ومشدوداً إلى خطاب مُتخارج على ما هو وطني.. فلا غرابة في أن يكون العقل الجمعي متحفزاً للصِدام في الأزمات لمضارعة عدو متوقع.. وهكذا ينقسم مبنى العقل الكُلي الحاكم نفسه إلى مباني هوية فرعية؛ فالقيم التي يصدرها [هذا العقل] تتوجه صوب بُنى مُجتمعية منشطرة هي الأخرى إلى هُويات فرعية لا يزدهي حضور أفرادها إلا بالتماثل فيما بينهم.

ولأن طبيعة المُجتمع العراقي محكومة بمواريث انشقاقية تاريخية فإن العنف الدولاني المُمارس منذ النصف الأول من ثلاثينيات القرن العشرين لم يفلح بغير اللجوء إلى القوة لتحقيق فرضية الإدماج.. فلم تلجأ الدولة سوى إلى الإدماج، ما يعني أن مطلب الاندماج الذي كان قد تعسَّر بلوغه فيما مضى بقي يبحث عن سبل إمكان تحققه. وبالنتيجة غاب المعيار الفلسفي والسياسي الضروري لإدارة التنوع الاجتماعي في ذلك الحين، وظل غائباً حتى إلى ما بعد العام 2003. على ذلك يقول أدورنو: تُثار الأسئلة في الأحايين التي تكفُ فيها المعاييرُ عن أن تكون بيّنة. لذلك يصبح ضرورياً بحسب فوكو: البحث عما هو مُضمر ضمن علاقات السُلطة، وتَقصّي ذلك إلى حدود البنيات التحتية/الاقتصادية التي أفرزت مثل هذا العَرض الثقافي، ثم تتبع هذه العلاقات لا في أشكالها المُتعلقة بجهاز الدولة فحسب، إنما في واقعها المادي؛ أي، فيما هو كامن تحت جهاز الدولة.

السلطان: هل تتفق مع من يقول إن تفتيت المُجتمع الوطني إلى مكوناتٍ أثنية وطائفية، وبحجة اختلاف الهُويات الإنسانية وضرورة دمجها في هُوية جامعة، سيؤدي بالضرورة ليس إلى محو الهُوية الوطنية، بل إلى محو الجغرافيا الوطنية. وفي ضوء مشروع (سايكس بيكو 2)، إلا تعتقد بأن معظم الحكومات في البلدان العربية، جمهورية أو ملكية أو أميرية مجرد إدارات محلية للإدارات المركزية الغربية؟

عطوان: اسمح لي أن أبدأ معك من حيث ما انتهيت إليه في سؤالك.. شخصياً أرى أن الباعث الرئيس على رفض العراقيين لما جرى معهم في غضون العام 2003، هو تطبيق الأمريكان تقنيات التوزيع الإثني للسُلطة في العراق، أي اعتمادهم على منظور ما بعد استعماري، أو ما بعد استشراقي لرسم خريطة البلاد.. هذا المنظور يعمل على تأليب الطائفية باستثمار قاعدة الأغلبية في الحُكم، وتمكين حضور ما هو هامشي بإعادة ترتيب مواقع الهُويات الفرعية على قاعدة من التوافقية المُتضمنة في طياتها نسباً واستحقاقات أو محاصصات قائمة على معايير طائفية.

هكذا تشكل العراق في ضوء المعمار التمثيلي الأمريكي الجديد على صورة يقوم فيها نظام التمثيل السياسي على معيار الاستئثار الطائفي بالسُلطة من منظور أغلبوي طائفي، لا من منظور الأغلبية السياسية، الأمر الذي جعل من الطائفية أساساً لترتيب خطوط التعارض والتضاد ما بين الهُويات بعيداً عن أية أسس إيديولوجية أو برنامجية سياسية، لينتقل العراق نتيجة لذلك من مشروع نظام حكم يُراد له أن يكون نظاماً مدنياً عَلمانياً إلى نظام يقوم على توافقية طائفية مُغلَّفة بتعددية تمثيلية "زائفة"، قائمة على مرتكزات فئوية تستبطن تذرُّر الجسد السياسي العراقي ـ جغرافياً ـ إلى أجزاء انثروبولوجية بدائية؛ مذهبية وعرقية ودينية. من ذلك كان العامل الأبرز ما بعد العام 2003 هو رفض المشروع الأمريكي وصوره في بناء المصائر السياسية والاجتماعية ما بعد الاستعمارية.

السلطان: في أغلب المُجتمعات كان للمدينة تأثيرها التغييري في البُنى المُجتمعية الريفية والقروية وبالتزامن طبعاً مع التطورات التقنية والعمرانية... الخ. أي أن المُدن ساهمت في تمدّين الأرياف وتحويل مُجتمعاتها الراكدة إلى فاعلة. في حين نجد العكس في الدولة العراقية، التي تم ترييف مدنها قيمياً ومُجتمعياً، بدلالة تنامي المُهيمنات العشائرية والعرفية وتغليب ثقافة "المضّيف/الديوان المشايخي" على المأسسة الدينية والحقوقية. وعليه هل يُمكن الحديث اليوم عن مدينة أو مدن عراقية خاضعة لمنظومة القيم التي تشد المُجتمع بسهم نازل باتجاه هوة الرجوعية والتخلف؟

عطوان: إن الحديث عن إشكالية بناء المدينة العراقية دائماً ما يكونُ موصولاً بالحديث عن إشكالية فرضية بناء الدولة؛ وإذا ما أردنا معيارياً تحديد سمات هذه المدينة، فأن صعوبة ما ستكتنف إمكان تحديد فضاءها. فما يُميّز المدينة بصيغتها المعيارية: اشتمالها على تراتب قيمي يحدد شكل العلاقات الإنتاجية بإطار طبقي مؤهل ذاتياً للتحول

البنيوي وتثوير القوى المُنتِجة فيه.. ومثل هذا التوصيف يسعى بصورة دائمة لبلوغ ذروته في التدافع والتمايز، ما يصنع تفاوتاً بين الطبقات، وشكلاً مُمكناً من بنيان المدينة القائمة على التنوع.

واقعياً الدولة العراقية التي أُنشِئت في العشرينيات لم تنشأ على التراكم التاريخي السليم، الأمر الذي بقيت فيه إلى اليوم غير مُتشيدة على بنية اجتماعية معيارية تطورية.. وأن أي توصيف طبقي معياري لتراكيبها الداخلية ينطوي على عسف منهجي ــ إذا ما أردنا مقارنته بالمُجتمعات الطبقية المتقدمة اقتصادياً واجتماعياً. فالطبقية تغيب داخل هذه المدينة بسبب غياب التعارض الطبقي بالمعنى الحرفي المميَّز للطبقات والفئات، لأن حدة الاغتراب التي تترافق مع الاقتصاد الحِرفي تنشأ بصيغ واهنة، وتنشط بقوة في المُجتمعات الاقتصادية الصناعية.. هذا يعني غياباً للقطائع في مسار تطور المدينة العراقية، وبسبب هذا الغياب تختفي حدود الصراع التي تسبِغ على العلاقات ما بين الجماعات طابعاً عدائياً صارماً.

وهكذا غياب القطائع يُمهد لغياب نمط مديني عياني واضح داخل المدينة العراقية، فالصراع الذي دارت رحاه تاريخاً بين الريف والحضر لم يُشكِّل لدى الأطراف المتعارضة وعياً بمصالحهم، ولم يُظهِر تفوق طبقة اجتماعية على غيرها، إنما أظهرَ عصبويات للهيمنة الاجتماعية حسب.. إن ما حصل هو مجرد تحول قبيلة أو إثنية إلى طبقة في إطار أمة جديدة، والواقع ألا أصل للطبقة في ظل وجود القبيلة والعشيرة والإثنية.. فلا معنى لصراع تدور رحاه ما بين قبيلة وأخرى ليكون مصدراً للصراع الطبقي.

وهذا معناه أن المدينة العراقية التي نتحدث عنها ما كانت لتكون إلا مركزاً إدارياً وسوقاً لتبادل المنتجات الزراعية والحرفية فقط، وإنها إضافة إلى ذلك لم تكن مركزاً اقتصادياً بالمعنى القياسي الذي يمتح من الريف ويعطيه، بل إنها نفسها معتاشة على الريف، ولا تملك نمط إنتاج يميزها.

السلطان: من البديهي إن وضع الدساتير الدائمة يستدعي بدءاً استقراراً قاراً بين مكونات مُجتمع هذه الدولة أو تلك، واتفاقاً صميمي بين تلك المكونات على إنجاز عقدها الاجتماعي أو قانونها الأساس، في ضوء مديات تاريخية أو زمنية يحددها الإجماع أو الاتفاق. في حين نجد أن وضع الدستور العراقي الدائم في العام (2005) تم في ضوء وجود المحتل الأمريكي وبإشرافه وفي ظل صراعات عنيفة وخلافية بين مكونات الشعب العراقي. وعليه إلا تعتقد بضرورة إنتاج دستور دائم جديد، بعيداً عن الطروحات البرلمانية الشعاراتية الهادفة إلى إجراء ترقيعات على نص الدستور الراهن، وبالتالي أين دور النخب المثقفة في هذا الإشكال؟

عطوان: الحقيقة ما يُشجع في هذا السؤال هو الحديث عن دور المثقف بدرجة كبيرة، أكثر من الحديث عن إمكانية تغيير دستور أو تعديل قانون ما في العراق.. ربما كان القانون الأساسي العراقي في العام 1925 يتسم بالمدنية والليبرالية والنضج أكثر من الدستور الحالي، من ثم فأن الأخير، وفي ضوء النتائج المأساوية، جاء مستعجلاً، ولم تحظ المصادقة عليه ــ ابتداءً ــ برضا وقبول شرائح عريضة وكبيرة من العراقيين.. وسؤالك حول إمكانية

تغييره! أقول لك رأيي صراحة؛ أنني أذهب إلى التغيير المُمكن وليس إلى التغيير الجذري له، خاصة نحن نتعاطى مع موضوع تشريعي ووظيفي، العملُ فيه يشبه السير في حقل ألغام.

إذن دعني أتحدث عن حضور المثقف العراقي، وسأتبنى قراءة ذاتية قي هذا الشأن: إذ أرى أن أغلب المثقفين يعتقد بأن برامج السُلطة السياسية (بما فيها التشريعية) هي موضوعات العالم الاجتماعي بكُلياته، تلك التي تُلامس أبعد نقطة مُمكنة من كتاب الحياة. على حين يتغافل أغلبهم عن حجم الشِقة بين هذه الموضوعات. فَهُم يُوسِعون من دائرة السياسي ويُضيقون من دائرة المدني الفسيحة. فيجعلون عنوان السياسة طاغياً في الخطاب الحياتي العام مقارنة بالعنوانات الأخرى.. لكننا نرى أن الموضوعات العابرة من الكثرة الكاثرة ما يُمكنها من أن تبتلع شواغل السياسة برمتها، لذلك ما يزال مثقفنا يعتقد بأن معاركه حامية الوطيس ـ حول وظائف المثقف ـ هي المعارك ذاتها التي كانت تدور رحاها في أوروبا في الثلاثينيات من القرن الماضي، وتشغل اهتمامات جوليان بيندا وغرامشي.

بديهي أن يعنى المثقف بنشدان المعنى الإنساني الأوسع ـ بما هو معنى جوهري طبيعي ـ ما وجِد منه وما لم يوجَد، ما حُد منه وما لم يُحَد، لكن نشدانه، بلا شك، ليس يتم من زاوية سياسية هي الأضيق بالقياس إلى المدى الوظيفي الثقافي الأوسع المفترض تصوره عن تفصيلات المشهد الاجتماعي العام. انهمام المثقف الحالي بـ"تصويب" أو لعن برنامج سياسي حكومي عابر يعميه عن معاينة المُشكِل الحقيقي داخل المَشغَل الحياتي الفسيح. ومثل هذا الانهمام هو ما يجعل رجل السياسة ذاته يتحايل ـ ضمن استراتيجياته ـ على تسفيه وإيهام أو إرضاء المثقفين رسمياً بكرنفالات كاريكاتورية (المربد، كلاويز، الجواهري، الحبوبي، المتنبي... الخ) باحتسابها مجالات فارهة. والواقع أنها لا تعدو أن تكون سوى واجهات ثقافية يجري عبرها تصريف أحوال الانفعال والتأزم. وإذا سوغ لها أن تُملأ بما هو فعّال، فهي ـ بلا شك ـ ليست القنوات المُقترحة الفريدة وحدها.

لذلك علينا أن نتنبه إلى معنى تساؤلاتنا البائسة؛ عن السبب الذي يجعل من حال ثقافتنا كارثياً حين يعيد المثقفون إنتاج ضروب من التابعية للحكومة؛ فيطالبونها بمزيد من الدعم "المعنوي" للثقافة (وهو في حقيقته دعم مشفوع بغطاء سياسي)، ويُطلِعونها في الوقت ذاته على تفاصيل ما ينوون تنفيذه، أو يُلمِحون من بعيد إلى حدود ما يطمحون إليه معها، كأنهم يكشفون ـ من خلال الطريقة التي يتحركون فيها ـ عن سر دفين أو متاهة، وبالنتيجة يجري بلامبالاة هدر المعنى المُدَّخر للصراع الاجتماعي.

قد يجعل مثل هذا الطرح مثقفين يقولون: ما الذي يُمكن أن يكون مُهما في وظائفنا الصراعية القائمة على التضاد غير مصيرنا المرتبط بتوجيه برامج الحكومة وبنقدها؟ أقول ببساطة: ليست الغاية فيما أذهب إليه وضع مفترق بين ما كان سائداً من القيم النقدية للمثقف وما أصبحت [القيم] عليه الآن، ولست أدعو إلى مهادنة السُلطة أو تبرير نفعية مؤسساتية، ما اعتقد به هو أن مهمة المثقف الصراعية تجاوزت المعنى التثويري في المُجتمع الآن، والذي غالباً ما كان يتشح بعناوين سياسية. ما أعنيه هو محاولة نقل وظائف المثقف إلى مستوى تكتيكي مقاوم

آخر أكثر صعوبة وتعرجاً وامتداداً، والغرض من وراء ذلك تُفوّيت الفرص المُتعددة على رجل السياسة لمَّا يحاول تأدية أدوار يعتقد بأن المثقف عاجز عن تأديتها.

السلطان: عَدّ المستشرق (بندلي جوزي) الفكر الشيعي بأنه يسار الإسلام [كذا] وبحث المفكر الإيراني (علي شريعتي) إشكالية اختزال الفكر الشيعي إلى مجرد طقوس شعبوية، في بحثه عن التشيع العلوي والتشيع الصفوي؛ إلام تعزو تغليب هيمنة المقدس على الفكر؟ من ثم كيف يُمكن - ومن أرضية علم الاجتماع السياسي - قراءة الفقهيات والمذاهب الدينية تاريخياً وسياسياً وبالتقاطع مع سطوة المقدس؟

عطوان: في إطار التشيع والطقوسية والمقدس؛ اعتقد بأن ما يعنيه التحضير الجماعاتي للمرموز الديني موسمياً، والتحشيد لوقائع حادثة في الماضي لا صلة له ـ في الجوهر ـ بتحضير ديني خالص، ونحن نُعايش هنا كيفية ترميم فكرة المقدس من خلال إعمال تداخل الشعبي الطقوسي بالديني. وبحسب ما توحي به مراسيم التحضير الديني للمرموز من روحانية؛ فإن طبيعته تتجه إلى ما هو غرضي، لذلك، تتسرب القداسة المزعومة من بين الأصابع فيصعب إخفاء ذلك. فلا يعد الطقس ـ بما يحمله من صور القداسة ـ إلا طقساً شعبوياً بمسحة درامية محلية، ولا يتعدى غرضه شؤون السُلطة المادية وصورها، ولا يقف عند حدودها بقدر ما يتمحور فيها. هكذا فالتحشيد للطقس يفسح المجال لادعاء جهة ما حقها في امتلاك استعماله على ما سواها، فيكون طبعتها الحصرية في الفعاليات الشعبية، أي امتلاك شرعية توظيفه في الواقع، بدعوى إحياء شعيرة مقدسة.

ويتصاعد إحياء مثل هذا الطقس وسواه ضمن مُجتمع مُتعدد، يساعد العمل العفوي على تنشيطه ضمن مجال اجتماعي يتشكل، وفي الغضون تتحفز الجماعات إلى إثبات أحقيتها في إدامة نظامها الرمزي عبر تعمد استحضاره وتكراره، أسوة بأحقية جماعات أخرى تمارس طقوسها المُتنوعة. والواقع إن ما يجري ـ عَملياً ـ أقرب ما يكون إلى نشاطٍ عابر ينفتح بحكم الواقع على تصورات ليس مُستبعداً من بينها تأكيد حضور "أنا" الجماعة الناظمة للطقس حيال جماعات لا تعبأ بإحيائه أو تسيده، أو لا يتصدر جدول أولوياتها، ليتسنى للأولى احتكاره بمجرد أسبقيتها الإجرائية في الاستعمال.

يستبطن توظيف المرموز رغبة مُضمرة تمارسها جماعة تصنع إشهاراً تعبوياً يجري بمقتضاه استنفار الموالين، وإعادة صوغ أيديولوجيتهم، لتتبدى في مستوى عمل عصبوي، فيصبح الحديث عن منقبة مرموز ما، والتذكير بوقائع تاريخية: بياناً حزبوياً حصرياً يعمل على اجتذاب جمهور واسع وعريض، وتجسيد واقعة توصف بالمادية عبر إذكاء عامل السيطرة الرمزي الناظم لسلوك ذلك الجمهور، و"يبارك" ذلك كُله عمل من ينضوي تحت ظلاله، ويوعد بمراتب الرضوان ويمنح مسوح الإهاب؛ ويُفهَم من خلاله مناط الدين والجماعة المؤمنة والدولة المتُخيّلة.

السلطان: تعنى بعض المؤسسات العربية والإقليمية بإقامة مؤتمرات وندوات حول

موضوعة الحوار أو التقارب بين الأديان، بخاصة التوحيدية. إلا تعتقد بأن الضرورة تقتضي بدءاً التقارب والحوار بين مذاهب الدين الواحد. من ثم ما الذي يعّوق إنجاز الحوار بين طوائف الدين الإسلامي ومذاهبه اليوم، هل موانع أو محرمات فقهية أم سياسية؟

عطوان: أرى أن استعمال فكرة الحوار الديني نفسها في السياسة الدولية فيها شيء من التضليل أو تغييب لعنصر الدقة في النظر إلى الأشياء.. لذلك يُمكن أن يكون الحوار واقعياً لما ينحصر بين شخصين أو أكثر حول مسألة محددة، أو يدور النقاش بشأنه بين مدرستين فقهيتين فلسفيتين يروم كُل منها التوصل إلى مقاربة وفهم للعالم.. أما العلاقة القائمة بين الحضارات أو الثقافات، أو بين الدول المتعارضة في المصالح فهي ليست تقوم على الحوار (بالمعنى الذي أخذ تعبيرات ثقافية مع برنارد لويس وهنتنغتون)، إنما تقوم على نوع من إدارة المصالح، وهذا النوع اقل من أن يرتقي إلى مستوى الحوار.. وعلى العكس من ذلك في الصراع أيضاً؛ فليس هناك صراع حضاري بين أميركا والعراق أو بين أميركا وإيران أو بينهما وبين أي بلد آخر، إن جوهر الصراع السائد والمتفاقم في عصرنا، صراع مصالح وامتيازات اقتصادية بين البلاد الرأسمالية نفسها بعضها مع بعض، ومن أجل تحقيق مزيد من التوسع والربح والهيمنة وإدارة التعارضات داخل النظام الرأسمالي، التعارضات المتصاعدة اقتصادياً واجتماعياً وقيمياً.
وينسحب الأمر على الهُويات الفرعية أو المذاهب والبُنى الفقهية داخل الثقافة الواحدة أو الدين الواحد أيضاً، فهذه الهُويات على تنوعها من السعة لا يُمكن اختزال محتواها إلى مجرد كتل بشرية متعارضة، ومكونات يفيد توصيفها أغراض السياسة فحسب، إنما هي أوسع من كونها موضوعات للصراع، وأسمى من حسم حدود الصدام بينها داخل قاعات للمباحثة وكتابة بيانات وعظ.. الذي يضمن سوية العلاقة ما بين هذه الهُويات هو إطار دولاني مدني جامع توفره الدول القائمة على التنوع.. لذلك دفعت مشاريع الأمم والدول مُتعددة الثقافات باتجاه تفعيل مقولة الاعتراف، وأظنها أكثر واقعية من مقولة الحوار التي صارت مع الوقت مقولة أدبية ليست إلا.

السلطان: إلاّم تعزو انتشار ظاهرة الإلحاد بين شرائح الشباب في عدة دول عربية؟ وللتدليل تشير الميديا المصرية والمواقع الالكترونية بأن عدد أفراد الشرائح المُلحدة في القاهرة فقط ومن الجنسين تجاوز أكثر من مليوني ملحد.

عطوان: سأرشح سببين أراهما ضروريين لفهم بواعث الإلحاد لدى الشباب العربي، السبب الأول ثقافي/انثروبولوجي؛ لمّا يذهب الشباب إلى أن مسار تطور العقل البشري قد مر بحقبتين تاريخيتين متعاقبتين أسهمتا في تحديد طبيعة العقل نفسه؛ ففي الحقبة الأولى هيمن العقل الديني (بزمنيته الدينية المفارقة) على مواقف الإنسان وفهمه للأشياء.. وسُميت هذه الحقبة ــ وهي حقبة طويلة ــ بـ (طفولة العقل البشري)، والتي كان يُسلّم فيها قياد الفهم إلى الخيال وليس إلى الحس والتجربة والمعاينة.. والحقبة الثانية التي برزت فيها

الحاجة إلى إعمال العقل وإعادة الاعتبار إلى مركزية الإنسان، فأصبحت التصورات من صنائع الإنسان نفسه، وأنه هو من يجعلها واقعاً، وأصلاً قبل أي أصل، من ثم، الانسان هو من يعبر عن علاقاته بالعالم الذي يصنعه لنفسه، فيُقال إن نتاج ذهنه خرج عن يده. عليه فقبول مثل هذا الباراديغم أخذ يسيطر على أفهام الشباب العربي المنفتح على مستجدات علوم البيولوجيا والإناسة والسنتولوجيا (أو العِلمولوجيا).. الخ.

أما السبب الثاني وهو السبب الأدبي التراثي: والذي يرى إلى أن النسخة النبوية للإسلام هي نسخة السُلطة التي تثبتت دعائمها مع الوقت واكتسبت قداستها بوساطة جهازها الإيديولوجي، ودفاعها عن نص النبوة حيال نصوص أخرى محايثة ناهزت النسخة النبوية وحملت الهدف ذاته.. هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى فإن تاريخ الخلفاء والسلاطين لم يكن سوى تاريخ الصراع على السُلطة بصبغة دينية أيضاً، وما الديني المُستعمَل فيه إلا التعبير الإيديولوجي عن صراع المصالح المتعارضة.. امتد هذا الأمر ليشمل اللحظة الراهنة؛ أيضاً، حيث سُلطة رجال الدين المُعظِمين لمصالح وامتيازات من طبيعة مادية في الأصل.. لذلك فإن هذا المُعطى جعل كثيراً من الشباب يتخذ موقفاً تاريخانياً في النظر إلى القوى المحركة للتاريخ، وفي حقيقة ما ينطوي عليه جوهر الدين ومقاربة معنى الإله مفاهيمياً..

السلطان: بوصفك أستاذاً جامعياً، وعلى الرغم من انتفاء التواشج والتضافر بين الجامعات العراقية ومُجتمعاتها المحلية، كيف يُمكن تحرير الدرس الأكاديمي من المنهجيات والمعرفيات التقليدية، ذات الطابع التعلّمي لا البحثي، التي تم تجاوزها بمتواليات هندسية، بل واكسترا هندسية في جامعات البلدان الأخرى، لا أقول الغربية حسب، إنما في سنغافورا وماليزيا ... الخ؟

عطوان: في الحقيقة الجامعة العراقية غافلة الآن عن إدراك حاجات المُجتمع وظيفياً، وأنها داخلة ظلمة يطول أمد انقشاعها، ولن تبصر النور في القريب ما لم تعيد صوغ صلتها بحاجات المُجتمع جدياً، وتدرك أصل مشكلاته، وتضع منظوراً معرفياً عنه بدلاً من الاكتفاء بعلاجات ترقيعية مستعجلة.. إن بلوغ هذا المستوى سيكسبها المنعة من طوارئ الانتهاك السياسي التي تطالها، ويمنحها الاستقلالية حيال تدخُّل غيرها من البُنى الطارئة على ما هو معرفي.. إن ما يميز الجامعة عن غيرها ـ كبنية نعيد بناء تساؤلاتنا بشأنها ـ هو في إجازتها قول ما لا يجاز قوله في غيرها.. وما يميزها؛ هو بنيتها المعرفية لا الإيديولوجية.

للأسف الواقع يشير إلى أن الجامعة بوصفها بنية رمزية ومعنوية مثلَت وتمثل خطاب السُلطة منذ سبعينات القرن الماضي في الأقل.. فكانت الجامعة الجزء المؤسسي المُبتَلع من قبل السُلطة.. وحين يُبتلع الجامعيون بفعل الهيمنة الإيديولوجية، يصبح من الصعب علينا ـ عراقياً ـ تصور ظهور جامعات نقدية من مثل جامعات ماربورغ وفرانكفورت التي أظهرت للعالم نماذجَ عقليةٍ أسهمت في تغيير مسار الفكر السياسي والاجتماعي في حينه. ولهذا السبب تكون جامعاتنا مستهلِكة لا منتِجة يقتصر عملها على ترديد خطاب السُلطة.

السلطان: من المعروف أنك من المُتابعين الجادين للنتاجات الأدبية والفنية، بخاصة في محافظة البصرة. وعليه إلام تعزو غياب الحاضنة الجماهيرية لتلك النتاجات التي لا يعنى بتلقيها سوى المختص بها. فالمعرض التشكيلي لا يرتاده، في الغالب، سوى عدد من التشكيليين، والعرض المسرحي لا يستقطب سوى أقلية من المسرحيين وعدد من طلاب الدراسات المسرحية، والمنجز الأدبي يكاد يكون بضاعةً شبه كاسدة في المكتبات التجارية. وعليه أين يكمن الإشكال أو الخلل، في المنتج أم في المستهلك، أم في المعنى الثقافي للإنتاج والاستهلاك؟

عطوان: إن للتنشئة الاجتماعية (الأسرية والمدرسية) دور كبير وأساس في تهيئة الأفراد لاستيعاب وقبول قيم الفن والجمال، لذلك يصبح التمرن على قبول هذه القيم مدخلاً لتجربة حياتية مادية معيشة، وهو ما أطلقتم عليه مجازاً إمكان بلوغ المعنى الثقافي للإنتاج والاستهلاك.. وهو أمر ناظم للعلاقة ما بين السلع الجمالية المُنتَجة وإمكانية استهلاكها..
الجوهري في مسائل الثقافة؛ إدامة الصلة ما بين البشر ومنتوجاتهم الثقافية.. وبما أن الفني والجمالي من نتاج البشرية عبر التاريخ، فإن تنشئة الأفراد على التواصل ـ اجتماعياً ـ مع هذه القيم يُمكنهم من معاينة وتمثل قطوف ما استنبتته البشرية.. المرير في الأمر أن مُجتمعات العالم الإسلامي ـ مع استثناء بعض منها ـ لا تحتفي بالفني والجمالي احتفاءً وضعياً يساعدها على إعادة تعريف علاقتها بالواقع.. لذلك نلاحظها، وبفعل تأثير أيديولوجيا الدين عليها، تقف موقفاً عدمياً من الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها الفن.. تتنكر له لأنه يتعسر عليها مواجهة سؤاله، أي مواجهة خياراتها في أن تكون حرة..
ولأن الآباء غالباً ما كانوا يخشون في ذلك من الدخول في مواجهة أنفسهم، فإنهم يجعلون مواجهاتنا [نحن الأبناء] للمُشكلات استمراراً لمواجهاتهم المؤجلَة هم، فيمتد العجز إلينا.. وتغدو ثمار الفن مُستفزة لمبانينا، وتتعاظم أكثر فتغدو مستفزة لوجودنا التاريخي في فهم ما هو فني وجمالي.. من هنا نفهم لماذا كانت علاقتنا بالفن والجمال علاقة مثاقفة وليست علاقة حياة معاشة.. اللوحة الفنية والعرض المسرحي والموسيقى السيمفونية لم تكن لتصنف ضمن معايير النخبوي والجماهيري إلا لاحقاً، وأظن أن للأيدولوجيا نصيب مُغرِض في هذا الشأن وهي ترسم حداً فاصلاً حيالَ ما هو معرفي، ولأن الأيديولوجيا هي أيديولوجيا الطبقة السائدة، فالأخيرة هي من تصنع تمثيلاتها في الواقع لتجعلها عقائد الواقع الشائعة.. بذلك يتحدد الموقف من الفن، وبحسب ما تقرره السُلطة المعرفية للطبقة السائدة.. والواقع لم تكن مجازات الديني والطقوس المرتبطة بالديني وأسئلة الوجود المطروحة في الماضي لتمُثَّل إلا من خلال عروض المسرح وفرق الإنشاد، ولم تكن الفنون التشكيلية إلا تمثيلات لوقائع دينية لحقب طويلة.. باختصار: الأيديولوجيا جعلت من الفن سلعة بغيضة، فما يصنع خارج معاييرها السائدة يعد خروجاً ومعارضة..

السلطان: يقول (أنطونيو غرامشي)، ما معناه، بأن إرهاصات عالم جديد أهم بكثير من حشرجات عالم يحتضر. وعليه إلا تعتقد بأن السياقات والأنساق الثقافية التي كانت سائدة

في حقبة النظام السابق ما زالت هي المُهيمنة، حتى بشخوصها، في الساحة الثقافية الراهنة، وأزعم المتشوفة؟

عطوان: أستطيع أن أتخيل حدوث الانتقال من منظور معرفي إلى منظور معرفي آخر بافتراض توفر الآليات الكفيلة بإحداث الانتقال، وتنوجد مثل هذه الآليات من تعارضات البنية الاجتماعية نفسها.. إذ لكُل بنية قانون، ولكُل قانون ما يناقضه في الجوهر.
الحقيقة إن التحول الاجتماعي والسياسي الذي أوهم العراقيين بحقيقة حصوله في العام 2003 كان صورياً، وأنه لم يُلامس جواهر الأشياء، بل أسبغ على سطح الواقعة الاجتماعية ملامح تغيير كاذبة.. والمواقف الحياتية التي كانت تحفظ الامتيازات الاجتماعية والسياسية للناس في الماضي، وتجعلهم متوازنين، بقيت ذاتها الفاعلة والمشتغلة اليوم.. والجسد الثقافي الذي كنا نعتقد باحتضاره لم يتحلل أو يفنى مقابل ولادة متحققة، بل بقي عليلاً ومشدوداً إلى السرير بطريقة إكلينيكية ثقيلة..

إن الانتقال إلى عالم جديد مؤشر تلقائي على الانتقال إلى منظومة قيمية جديدة أيضاً، والتصورات التي اختبرت في الماضي تستدعي بالضرورة بدائل جديدة عنها.. والأشخاص الذين كانوا قد أسهموا في تشكيل خطاب السُلطة في الماضي عليهم أن يخلوا المكان لمجيء من ينيب عنهم في اللحظة الحاضرة.. وأزعم أن هذا يندرج في سياق التأمل النظري للواقعة الاجتماعية والسياسية حسب، أما الجانب العملي فيشير إلى أن كذبة التحول الكبرى والانتقال الناجز أوجدت في الواقع حداً وهمياً فاصلاً ما بين حقبتين تاريخيتين، وفي الحقيقة لا وجود لمثل هذا الحد ولا وجود لمثل هاتين الحقبتين في الأصل.. والماضوي الساكن لا يزال مُمتداً في الزمن ويمارس سطوته في الاستمرار، فيصبح مسوغاً لمن كان يحكم في الماضي الحكم الآن بكُل طبيعية لانتفاء فكرة الانتقال أو حصول الباراديغم نفسه.. إن ما نراه على السطح ليس سوى ظلال وصور عن أصول وأسلاف ثقافية لا تفتأ تعيد إنتاج حضورها في المتن مراراً وتكراراً..

وداعا .. شاعر الشعب موفق محمد

فقدت الاوساط الثقافية العراقية والعربية مؤخرا شاعر الشعب موفق محمد (1948 - 2025) شاعر كبير حظي باهتمام الأوساط المعرفية والابداعية والشعبية على حد سواء. انشغل بهموم الناس وبإدانة السلطات القمعية والظلامية، متعاطيا أسلوب الكوميديا السوداء. متخذا من اللهجة العامية البغدادية الى جانب العربية الفصحى وسيلة لإيصال شعره الى الناس بشكل فاعل و مؤثر .
لروحه العطرة السلام والطمأنينة، ولأهله وأصدقائه ومحبيه مواساتنا المخلصة

هيئة تحرير مجلة الثقافة الجديدة
2025/5/16

فتنة الجسد
حياتنا جسد متألم للغاية

عبد الغفار العطوي

ما المقصود بمفهوم (فتنة الجسد) هنا.. وكيف نفرق بينه وبين مفهوم آخر، هو عشق ام حب الجسد؟ الثاني يهتم به علم جمال الجسد[1] متناولاً قيمه الجمالية وآثاره الجانبية على الجسد، ففي ظاهره تبدو سمات العشق و الوله وعلل الهيمان، ويعد علم جمال الجسد مصنفاً حسب الجنس، جسد الانثى وجسد الذكر وجسد الحيوان وجسد النبات، إلى الجماد، ويمكننا ان ندرك العشق او علامات الحب و شدته ووطأته في ما يصيب الجسد من أسقام ونزعة قنوط وسرحان، وعشق الجسد مرض قديم أشار إليه جميع الكتاب والفلاسفة منذ عرف الإنسان الكتابة، فأول الكتابة كان نصاً في عشق الجسد كما في (ملحمة جلجامش)[2] الشهيرة التي ذكرت بأن عشق الجسد له عواقب وخيمة على من يقع في عشقه، لكن ثمة درجة أشد من هذا اللون من العشق، يطلق عليه بـ (فتنة الجسد). بمعنى إن الفتنة هي الأشد إيلاماً والأعمق ضراوة بما يتعرض له الجسد في العشق، للتمييز الدقيق بين مغزى المفهومين، وما يشكله كل منهما على حدة على الجسد تقول الملحمة بما ملخصه: فلما برمت الآلهة السومرية القديمة من عبث و طيش جلجامش، وما ظل يعبث فيه من نزق وتخريب في البلاد، بعثت إليه نداً قوياً يكسر من شوكته يخرج من رحم الطبيعة، ونقاوة الفطرة، في عيش رغيد مع الحيوانات البرية الضارية، عبر تلوثه بدنس الرذيلة، والوقوع في (فتنة الجسد) المدنس، لامرأة غانية، فكانت تلك الفتنة هي التي عادلت بطش وشراسة جلجامش ونزوته وبطشه، واستبداده، وتهوره أمام قوى الجسد المدنس سقط غريمه (انكيدو) ونشب الصراع بين عشق الجسد و فتنة الجسد، ووقع العالم الإنساني بين العشق المترفع عن الشهوة المدنسة ، وبين الفتنة المتهاوية في احبولة الرذيلة، واشتهرت ملحمة جلجامش منذ ما يقارب من ثلاثة

آلاف عام قبل الميلاد بوصفها اقدم نص بشري سجل مشاهد الحياة المحملة على جسد معذب جراء العشق المدنس له. هذه الفكرة كانت تمثل ما يجري على حياتنا في طريق الآلام تظهر في الجسد، لهذا تجاذب علم الاجتماع مع علم الجمال إشكال الجسد عبر منفذ الفتنة، فاستغل مفهوم الجسد أبشع استغلال منذ تاريخه القديم الحافل بالجمال والقسوة.

كرس شلنج في كتابه (الجسد و النظرية الاجتماعية)[3] أقر بأهمية الجسد في مختلف طبائعه، وعرف شلنج الجسد الطبائعي "حيث تقر الرؤى الطبائعية إن قدرات الأجساد البشرية وحدودها تعرف الافراد وتنتج العلاقات الاجتماعية والسياسية، لهذا بدت تلك الأجساد قادرة على صنع العالم وتفكيكه"[4] بما يمكننا ادراك عمق الفرق بين الفتنة والعشق من خلال الجسد المتألم في لحظة فارقة، لحظة الانتقال من الاستغراق في الجسد المدنس كما وقع (انكيدو) مع الغانية، وجلجامش حين ادرك موت انكيدو لما فارق جسد الغانية، هنا الجسد يصيبه المرض ثم الفناء والموت إذا ما لامس الجسد المدنس او نهل من مفاتنه المحرمة، وفي المظهر الجسدي المدنس تبدو الفتنة إثماً عظيماً يهز كيان عاشق الجمال الجسدي وتجعله هلعاً باحثاً عن كنه الدنس وباعث تحريمه، وإن كان سفاحاً، لأن الإثم الذي ينجم عن ارتكاب الخطيئة بواسطة فتنة الجسد تعكس بشاعة انحراف الفتنة نحو مجرى غير مسبوق، ولا مراد له، لأن (الآلهة) عزمت على كبح جماح (جلجامش) وكان عليها توظيف الفتنة لمخلوق صنعته بيديها كي ينافس نزق جلجامش في غلوائه في العبث في الفطرة السليمة لمجتمعه الصادح بآثامه، خلقت (انكيدو) من إيروس الحب، وزرعته في لوغوس البرية، يصاحب الحيوانات في حياتها على الفطرة، بيد إن تلك الآلهة زعمت أن تمادي جلجامش في غيه العبثي لا بد أن يقابله جسد متألم، منزوع الفطرة، مدنس بجسد الفتنة التي تحملها الغانية في عطف جسدها، بمعنى إن الآلهة تعي معنى الصراع بين مفهومي المقدس والمدنس اللذين يقلقان الإنسان، فعمدت إلى إضرام القتال والحرب بينهما، يقول روجيه كايوا في كتابه (الإنسان و المقدس)[5] إن أي تصور ديني للعالم يفترض التمييز بين المقدس الدنيوي على قاعدة التعارض القائم بين عالم يتفرغ فيه المؤمن لأعماله بحرية ويمارس نشاطاً لا تأثير له على خلاصه الأبدي لهذا لما عرف جلجامش إن موت صاحبه وخله انكيدو، وقد فارق الحياة جراء تطهره من وباء فتنة جسد الغانية كان مقصوداً من قبل الآلهة، تفهم أن غضبها أدى إلى خلق ند له، كي يكسر شوكته، ويفل من عضده، بوصف جلجامش مفسداً في الأرض، وإنها قد خلقت الفضيلة للبشر، فعاش جلجامش صدمة الفقد وتأسى في اللواذ في المقدس، وراح يبحث عن مقصد الآلهة من ضريبة الموت، عندما نظر نحو انكيدو وقد تحول إلى جسد متألم وهامد، أهكذا هو الموت؟ جسد فتن بجسد، ثم انطرح على آلامه المبرحة، فأفزعه هول الموت في جسد صاحبه، فهرع إلى المقدس الخلاص الذي اختصت به الآلهة، واحتكرته لنفسها، فكان لها الخلود السرمدي، تقول (ألين سكاري) في كتابها الضخم[6] (جسد متألم) ناقشت بإفاضة تامة ما وظيفة الجسد

الحي، كيف يتلقى ضربات العيش وسط الآلام التي يتكبدها، لأن ما نفهمه من وظائف الجسد تتمركز في أن الحياة هي عبارة عن جسد مثخن بالجراحات، ويفتن في صنع عالم يهبه الألم كذا مرة، لذا قد فهم الإنسان مذ القدم الفرق بين الفتنة والعشق، مثلما في ملحمة جلجامش، حيث وضع الجسد بين الفتنة التي تؤدي إلى عواقب لا تحمد عقباها، في آخر يهبها الهلاك المحتم، والحب والعشق الذي لا يأخذ المرء نحو حافة الهاوية، والشواهد كثيرة في تاريخ البشر، في قصص الحب والغرام، وهي تتحدث عن عالم مجنون، عالم الفتنة التي يستذوقها أغلب العشاق، ويستطعونها، بل يحاول البعض منهم بتحريض إيروس شديد ولوج عالم المحرمات في أبواب فتنة الجسد، ووصول أولئك العشاق إلى حدود غابة المحرمات التي تفتن بلذتها المحرمة أضعفهم شهوة وفتنة للجسد، لهذا يجب أن نميز في ثقافتنا بين العشق والفتنة، وأن لا نرهق أجسادنا، ففتنة الجسد تعمل على إرهاق الجسد، وأما عشق الجسد فيعني تأمله استطيقياً، لأن العشق يتغلغل إلى ثنايا الروح ويتسامي بالكائن في نشوة القداسة الروحية، بينما يثبت فعل الفتنة في تضاعيف الجسد، لأن غايته إنهاك الجسد بالدنس والمحرمات من فعل الامتلاك المادي له، فالأجساد تشقى بالفتنة، وفي واقع الأمر يتحمل الجسد وزر الدنس، وآثار الخطيئة، ليصبح طريق الفتنة الجسد المنهك الشقي، وكانت ملحمة جلجامش قد عرضت مبكراً في أوائل الثقافة الإنسانية تلك الظاهرة المتحصلة في التفريق بين المفهومين السابقين الفتنة والعشق، ما جعلها، أي الملحمة تعطي مقداراً ناضجاً في تحليل صورة البناء القيمي للجسد، وتظل الفتنة مفهوماً شاملاً لكل الأجساد البشرية، سواء أكانت أنثوية أم ذكرية، فالفتنة واحدة، تسري على كلا الجنسين، لكن المتعارف عليه أن الفتنة تهتم بالجسد الأنثوي، وفي ملحمة جلجامش، الفتنة هو مفهوم إغوائي، فلولا الغانية، بما تمتلكه من قدرة على إثارة الرغبة عند النظر لجسدها ما كان بمقدور انكيدو ان يتخلى عن فطرته، وينفصل عن معاشرة الحيوانات في البرية، فجسد الغانية يمتلك جنسانية مثلية تدعو للفتنة، وجنسانية غيرية تهم بالإغواء، لكن الملحمة لم تعرفنا على حيلة الإغواء التي نصبتها مكيدة الآلهة لجذب انكيدو نحو الخطيئة، إلا لما حسبت إن الإثم هو معادل دنيوي للجسد الماليخولي الذي يراهن الجنس في إشعال الرغبة في جوانح جسد الغانية كي تغرز ازاحات الاثم على إيقاعات فرضية التخلي عن فطرة البرية، بمعنى إن الجنس باعتقاد الآلهة في الثقافة الملحمية هو المدخل لخلق معادل العنف الذي يركب في جسد انكيدو، وهي فكرة متقدمة في فهم الإنسان الرافديني المبكر في إن التحريض على فصل الجنس عن الفطرة تخلقه الثقافة، من هنا تبدو الملحمة في إشارتها لدور العامل الثقافي في تدنيس الفطرة فكرة قديمة، وإن الوقوع على أن يكون للفتنة الجسدية دور في خلق ثقافة العنف، بينما لم تتطرق الملحمة إلى حب الجسد إلا لما مات انكيدو، وأيقن جلجامش خسارة انكيدو، أي ضياع الفتنة في ثقافة العنف، وإن ما نطقت به صاحبة الحانة (سيدوري) وهي تعنفه في رحلة بحثه عن الخلود، مبينة أن وظيفة الجسد هي فقط للمتعة غير المحرمة (لدى الزوجة)

وقد كانت هي في خطابها له تطلق العنان للفكرة الخلقية السائدة لحد الآن، وهي إن التلاعب بشكل الجسد الأنثوي ودفعه نحو القيم اللامشروعة يجر نحو الخطيئة، وإن الحذر من إهدار ذلك الجسد في منزلق الفتنة، وهذا الخطاب الأخلاقي الذي أطلقته صاحبة الحانة إنما هو الرأي المميز لرؤية الآلهة من منظور العرف الذي سيتوارثه الناس جيلاً بعد جيل.

إنّ فتنة الجسد الأنثوي خاصة تعني الإمعان في الاثم الصارخ، فالمرأة يستطيع جسدها الأنثوي أن يخلب لب الذكر، تطلق عليه (جوديت بتلر) في (قلق الحالة النسوية وتخريب الهوية)[7] دراستها لفلسفة الكاتبة النسوية (جوليا كريستيفا) حول الجسد بـ(سياسة الجسد حسب كريستيفا) في علاقة شائكة وهي تتعرض لنظريتي فرويد ولاكان في مسألة أوديب الأسطورة الشهيرة، ومدى ما استنتجت من العلاقات الجنسية المحرمة، إذ كيف استساغت تلك الاسطورة أن تسمح لسفاح القربى ان يهلك الجسد بوصفها علاقات شائنة غير مسموح بها تسبق القانون الأبوي؟ وتخترق الطبيعة الجنسية التي لا تغفل عن هكذا خروقات، لولا إن الفتنة بمفهومها الجنسي والثقافي معاً فوض لها أن يتعامل أوديب الأبن مع جيوكندا الأم بعلاقات محرمة، لكنها غير خالية من الفتنة، ونحن نعرف أن الأساطير والأحلام تعمل على معالجة كسر المحرمات وتطويع كل الاعتبارات الواعية التي تحتفظ بالرغبة المكبوتة في الوعي او الأنا الجسدى نحو اللاوعي عبر تسريبها بعملية مشتركة بين الجنسانية والجنس والرغبة، من هنا يمكننا فهم التداخل بين المفهومين في وضع العلاقات بين حركية الجسد الأنثوي ثقافياً، بعد أن تتم صياغته جنسياً وبين فكرة الازاحات الاستعارية لفاعلية الفتنة، لان الفتنة في الجسد تبدأ أولاً بإزاحات العشق للجسد ثقافياً، والاكتفاء برشف الجسد جنسياً، ولنجد تلك الفكرة في كتابات كريستيفا وفيتيغ وفوكو واريغاري وغيرهم عن طريق التدليل بالأخطاء المنهجية الفادحة في رؤية فرويد ولاكان حول تحليلهما لأسطورة اوديب، لأن ملحمة جلجامش وهي اقدم نص بشري على ما اعتقد يعارض فرضيات العلاقات المحرمة التي تقيمها اسطورة اوديب حول سفاح القربى، على إنها ألوان من طبائعية اللاوعي البشري في كسر القانون الأبوي بدون الفتنة التي يساهم بها الوعي، ففتنة الجسد هي إشارة أولية عن الرغبة المضمرة في تدنيس الجسد الذي يخلق مع الفطرة.

هوامش:

(1) علم جمال الجسد المغاير، ابراهيم محمود، دار الحوار، ط1، 2015.
(2) ملحمة جلجامش، ترجمها عن الألمانية عبد الغفار مكاوي، راجعها عن الاكدية: عوني عبد الرؤوف، الهيئة العامة لقصور الثقافة.
(3) الجسد والنظرية الاجتماعية، كرس شلنج، دار العين، 2009
(4) الإنسان والمقدس، روجيه كايوا، ترجمة: سميرة ريشا، منظمة العربية للترجمة، 2010
(5) المصدر السابق.
(6) جسد متألم، ألين سكاري، ترجمة: حسام نايل، المركز القومي للترجمة، ط1، 2018.
(7) قلق الجندر النسوية وتخريب الهوية، جوديت بتلر، ترجمة: فتحي المسكيني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، 2022.

غازي السعودي.. الفن الجداري وبانوراما الواقع

د. جواد الزيدي

ينتمي الفنان غازي السعودي (1935 – 2013) الى جيل ما بعد الريادات الفنية، مسهماً مع الجميع في البحث عن ملامح هوية تشكيلية عراقية، أو ظلال هوية، انطلاقاً من البنيات الاجتماعية والمرموزات المحلية، وتوطين تلك الهوية في ضوء المزاوجة بين تقانات الآخر التي تعلمها أثناء دراسته في إيطاليا والنظر إلى تراثه الشرقي والإسلامي والعربي بعين فاحصة ومتأملة لكل ما يأتي من هناك، ليستطيع توطين هوية هذا الفن (الجداري) على الأقل، انطلاقاً من تلك الرؤية والمساحة التي تسمح بها الظروف المحيطة. ولتعدد مسارات الرؤية ومنابع المرجعيات، فقد تعددت مناخاته وطرق تعبيره عن الواقع. فالتراث العراقي والميثولوجيا والأسطورة وحكايات ألف ليلة وليلة البغدادية، والحياة الشعبية كلها مصادر للخطاب البصري الذي اتخذه طريقاً لتحقيق علاقته بأسئلة الوجود، وممثلاً لحضوره الإنطولوجي. فكمنت خصوصيته ووجوده من خلال تلك التمثلات الجمالية التي أنجزها عبر مسيرته الفنية التي قاربت نصف قرن وأكثر من ذلك.

كان (السعودي) شاهداً على العصر يروي ما يراه، ويستوقفه، وما يمر به الوطن والناس ضمن هذا الصراع وخضم هذه التناقضات والأحداث التي سجلت سيرة الوطن الحافل بالحروب، والثورات، والتبدلات الاجتماعية.

لذلك لا بدّ أن يختار جنسه الفني الممثل لتلك السيرورات وتجسيدها، ولأنه درس (الفن الجداري) بشكل علمي وحصل فيه على شهادته العليا وقام بتدريسه في (معهد وكلية الفنون الجميلة) فقد اتخذ منه أساساً في الغواية والممارسة العملية، خصوصاً وأنه جاء مع بداية اللحظة الحداثية التي رافقت الفن العراقي والبحث عن هوية جمعية وهويات خاصة تأصيلاً وتوطيناً، لكي تكون حداثة مستوية (لا مقعرة، أو محدبة) انطلاقاً من مرجعيات الموروث المتعددة وخصائصه المنشطرة الى (عربي، واسلامي، وعراقي وبغدادي وشعبي) مما يلقي بظلاله بكل تأكيد على تجربته الخاصة والمميزة، إذ ما زالت فضاءات بغداد الداخلية والخارجية تتزين بمشغولاته الجدارية المقاومة للظروف

المناخية، ويتردد صدى أسمه وأعماله المنجزة في كل حديث عن الفن الجداري.

وفي مشيداته الجدارية لجأ الى موضوعات قصصية في مضامينها وتكويناتها الظاهرية التي تتمثل بتفكيك الواقعة المحلية، بوصفها خطاباً اجتماعياً، واستنطاق أعماق الحكاية ومدلولاتها بكل ما تحمله من غرائبية، محققاً بذلك بنيات قصصية قائمة على ما هو مستلهم من ثوابت (المأثور الشعبي، والتراث العربي والاسلامي، والموروث الحضاري) بيد أن خصوصية هذا الإستلهام يكمن في أسلوبه ونزعته الذاتية التي تؤدي في النهاية الى خلاصة جمالية عن طريق صياغات متفردة لوحداته الشكلية، حتى تجلى أسلوبه الخاص الذي يتخذ من مشاهد الحياة اليومية منهلاً يغرف منه ما يريد، ومشيدات معمارية تراثية ومنمنمات إسلامية مروراً بمصورات الواسطي وتجليات (مدرسة بغداد للتصوير). اعتمد في ذلك الأسلوب تقسيم المساحة الخلفية والأرضيات هندسياً، وتشييد الكتل المتنوعة في بنية واحدة مع إمكانية التلاعب بالمنظور من أجل الحصول على بنيات متغايرة.

يختزن في ذاكرته ممارسات طقوسية وشعائرية وأعراف ثقافية يستحضرها لحظة الولوج الى الممارسة الفنية والتماهي معها بما يخدم الأغراض الفنية والوظائفية، فتتحول الجدارية عنده الى مرجع يستلهم هذه الموروثات كلها، موضوعاته تجسيد الحكايات الشعبية والميثولوجيا الروحية واستحضار مناخات الفنون العباسية التي جسدتها مدرسة بغداد للتصوير الإسلامي عبر مصورات الواسطي ومقامات الحريري، وحكايات ألف ليلة وليلة وغيرها من موضوعات ميثولوجية ترسم خطاباً يتسم بالغرائبية وتداعياتها الوجدانية ويحمل الشيء الكثير منها، فضلاً عما جسده من مشاهدات حية لأزقة بغداد الحديثة وحاراتها وأنساقها الاجتماعية والثقافية على السواء.

وعلى الرغم من دراسته فن الخزفة، إلاّ أنه وجد في الفن الجداري غوايته وتطلعاته التي تُعبر عن هواجسه الداخلية، ليخلق منها بانوراما تتداخل فيها الموضوعات والتقنيات والأجناس، فمن آليات الخزف المعتادة الى التمبرا، والرسم بالألوان الزيتية والمائية لتجتمع كلها في جدارية واحدة، فضلاً عن تنوع الموضوعات والرموز الدينية، والشعبية، تماثلاً مع غنى الحياة وثراء موجوداتها التي ستكون منهلاً يأخذ منه ما يشاء ويستلهمه، ولذلك فإن ما أنجزه من جداريات خلال فترة عطائه الفني لم يصل إليه أي فنان آخر، إذ أنجز (44) جدارية في أماكن مختلفة من الوطن، وضمن تخصصات تتواءم مع طبيعة الأمكنة سواء كانت عامة أو خاصة (متنزهات، متاحف، مطارات، كنائس، جامعات، بيوت خاصة، فنادق، قصور، ساحات عامة).

جادرياته في مداخل متنزه الزوراء الثلاثة تتضمن موضوعات تتشاكل في العلاقة مع المهمة لوظائفية المكان، حيث أمكنة اللهو

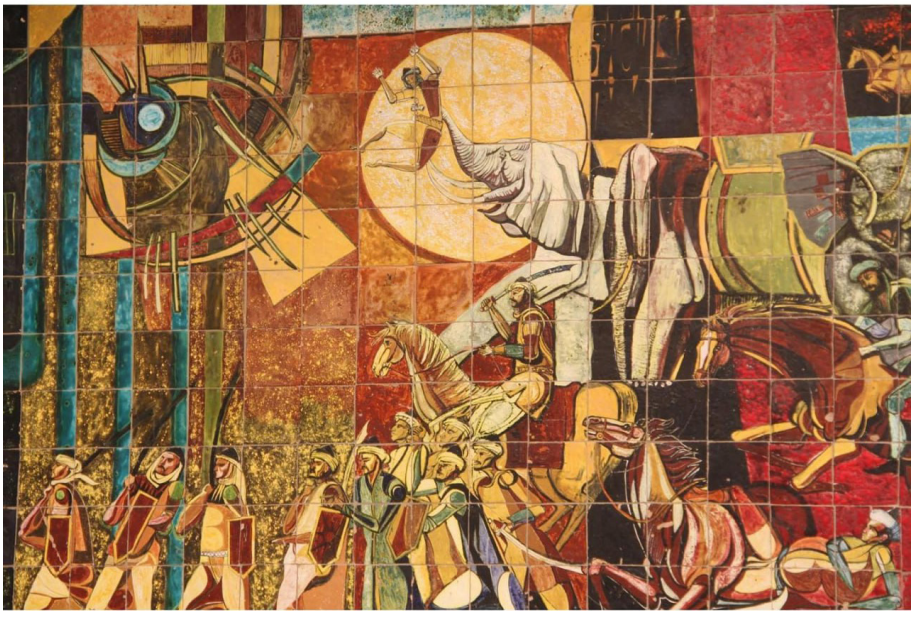

غازي السعودي

واللعب البريء والطفولة ونوازعها التي تقترن بالطبيعة ومكوناتها، الشمس والمآذن والقباب والبساط السحري، علاء الدين والمصباح السحري، ورحلة السندباد، والمبادئ الأسطورية التي تتيحها الحكايا البغدادية، وما تتضمنه من رموز أسطورية أشاعتها الثقافة الشفاهية في حكايات الآباء والأجداد، بوصفها جزءاً من أحلام ضائعة تحاول سلطة الخيال استعادتها والتطويح بها مرة ثانية الى الفضاء الإنساني الاستهلاكي، أو إعادة صياغة الواقع المعيش والمعاصر على أساس الحلم. لذلك ستكون سيرة المدينة هذه ماثلة أمام كل من يمر أمام الجداريات، أو يدخل من بواباتها الواسعة. وتعد جداريات بوابات متنزه الزوراء الثلاث من أهم الأعمال الماثلة أمام الجمهور من خلال بنية التواصل مع المكان بشكل يومي، وطبقات اجتماعية متباينة التلقي. وهنا تُصبح الجدارية وثيقةً تاريخية تسجل صلة المكان بالناس والإرث المجتمعي انطلاقاً من فاعلية المكان نفسه وتموضع الخطاب. وقد نُفذت هذه الجداريات على وفق نظام التقابل البنائي لكل مدخل ضمن فرضيات الفضاء والحيز المعماري بتقنية الرسم على الخزف، ما حقق تقابلاً تقنياً وأدائياً لمستويات التشكيل والفضاء المعماري المحيط، فضلاً عن البعد المفاهيمي الذي يُميز جدارياته وتحقيق التكامل الشكلي فيها الذي ينشده. ولذلك فـ (السعودي) لا يتخذ منهجاً واحداً في التعبير، أو الرمزيات المحدودة، فهو متعدد التصورات والرؤى والأساليب والإنتقال من التشخيص في رسم الخيول والمفردات الأخرى الى التجريد، فضلاً عن تفرده في استخدام اللون الأحمر في أعماله الخزفية، لصعوبته، وقد حاول التعبير به دلالياً في لوحة الفاكهة (اللقاح الأحمر) ولوحة (أكلة المسكوف).

واستطاع أن يوظف في جدارية البوابة الثالثة حكايات الحضارة العراقية العميقة والمُشفرة في ضوء استحضار مفردات حضارية شغلت المدونات البصرية ووثائق التراث مثل (مفردات الفلك، والزقورات، وبوابة عشتار، وغزوات الملوك، وترويض الحيوانات)، ومشاهد مصورة لمرموزات حققت حضورها الحكائي في متن الجدارية لتعزيز الإنتماء الحضاري، تقابلها في الجدارية الأخرى تجسيدات حكائية ترتبط بخطاب سياسي لاستعراض عسكري بابلي تم تنفيذه ضمن سياقات البيئة باستحضار بنيتي الزمان والمكان، ومشاهد استعراضات الرياضيين، فضلاً عن مشاهد العزف الموسيقي المرافق دوماً للحدث الحكائي.

وانطلاقاً من تكريس قيم المكان ووظائفية الفن، حاول في جدارية المتحف البغدادي استلهام الموضوعات المحلية الباحثة عن الروح السرمدية ومفهوم الخلود المقرونة بالنزعة الطفولية واليقين الشعبي مكوناً وحدات بصرية تعكس طبيعة الواقع المحلي البغدادي

في مجموع تجلياته وآثاره المرئية التي حاول جمعها في جداريته الواحدة، الآثار المائلة في الذاكرة وإن تمت إزالتها من أماكنها المعروفة مثل (نصب الجندي المجهول، والأسواق الشعبية، واحتفالات الأعياد الشعبية) في محاولة لترميم الذاكرة وإعادة الصالح إليها، ليعيد رسم خارطة الأمكنة والمدينة من جديد، بما يتلاءم والأثر الرمزي الكامن في الوجدان. مفردات من حياتنا اليومية اعتاد الناس على مشاهدتها والتعايش معها، ليعيدها مرة أخرى بعد استجلابها من ذاكرته الصورية، بوصفها بديلاً عن الذاكرة الجمعية التي تحقق بحثه عن الهوية الذاتية.

وإن هذا حتماً سيختلف عن جدارية الطب التي تم إنشاؤها في كلية طب بغداد، أو المؤسسات العلمية، إذ أن (السعودي) ستكون حاضرة في ذهنه موضوعاتها بما يتلاءم مع المكان المقترح لها، إذ ستكون موضوعاتها طبية استناداً للموروث العربي في هذا المجال، حيث تظهر الدوارق، والأواني المستطرقة، وألوان المحاليل الكيماوية الذي انتشر ذكرها في المخطوطات الطبية، وترجمتها المناهج الدراسية، لتكون جزءاً من وظائفية المكان ودلالة على المدلول الكامن في ماهية المضامين وجوهرها.

يقوم نسقه التصميمي على أفاريز هندسية تحقق توافقاً والنسق المعماري للمكان، فضلاً عن فاعلية الفضاء المنفتح على قراءة تأويلية مشهده المرئي من قبل المتلقي الذي غالباً ما كان امتداداً لتعزيز قيمة المكان، لمنح هذه المداخل ممكنات القراءة من خلال خصائص تشخيصية بروح معاصرة تمثل الهوية. وإن ثيمة موضوعاته الشكلية قائمة على مفردات معمارية تتسم بالمنظور الكلاسيكي مع توظيف لأنماط وعناصر معمارية تنتمي للطراز الإسلامي في المباني أحياناً، كالمآذن، والقباب، والعقود، والأبواب، والأهلة أنجزها بما يماثل الأقواس والعقود المنحنية مُشيدة على وفق محددات هندسية تحيلنا الى سمات المدرسة التكعيبية في بنيتها العامة.

وفي حالة لجوئه الى المنظور السطحي الجانبي تداخلت الخطوط ضمن وحدات شكلية تفرضها إنشائية مشهده البصري، فضلاً عن توظيف الحروف العربية في محاولة لتحويل اللساني الى صوري، والزخارف النباتية، والمفردات الحيوانية، والأجساد البشرية، والخيول، والفيلة والطيور الهجينة، والأسماك وشباكها، والبنى المعمارية من قباب ومآذن ومساجد وعقود، فضلاً عن موضوعات بغدادية تمثل نبض الحياة اليومية والواقع المعيش. إن (السعودي) عندما يلتقط هذا كله من نبض الحياة، فأنه يكتب سطراً خزفياً من الحياة البغدادية يماثل ما كتبه (جواد سليم) نحتياً في نصب الحرية، إذ أنه (السعودي) تتبع ذلك الأثر واستطاع أن يكتب سطراً بالخزف الملون عبر جدارياته لتمثل حياة العراقيين والمضامين البغدادية، وتصوير المشاهدات التي مرت من أمامه، فضلاً عن مخزونات الذاكرة من صور تمثل اليقين الشعبي وذاكرته الجمعية في حياته وتصوراته.

إن الطبيعة والبيئة والثقافة تعد بلا أدنى شك من أهم الضواغط المرجعية على ذات الفنان المبدعة عبر حوار ثقافي بين العناصر ورؤيته الذاتية للتراث والمعاصرة وتشييد العلاقة بينهما، بما يُثري النص ويدفع به الى الأمام، مُحصناً بحجة الدلالة الرمزية الظاهرة في البنية الشكلية. إن هذا الاستدعاء للوحدات البصرية جعل من جدارياته، أو خطابه حقلاً

استعاريا عندما يستلهمها ويوظفها كشكل رمزي يحقق انتماءه البيئي عن طريق الأثر ذاته، متجاوزاً حدود البنية الزمكانية المتعينة، عندما يتحرك مفهوم الزمان والمكان لديه عبر تضايفهما معاً، إذ أن فكرة التزامن قائمة على ترحيل الزمن في حقبه المختلفة، أو عند استبدال المكان أيضاً.

وقد أفادته دراسته التخصصية، وخبرته المتراكمة الارتقاء بالتقنيات الخاصة وتوسيع مداها الجمالي مستثمراً الخصائص الفنية للمادة نفسها لكل من (الرسم والفريسكو والتمبرا والسيكوفيتوا والخزف والموزائيك والصوف والرسم على الجص) وغيرها التي أتاحت له المناورة في إنجاز الخطاب الجمالي، فضلاً عن الخامات التكميلية الملحقة بما تقدم من أجل إيجاد تعالقات بين هذه المواد لإنتاج خطاب فني له خصائصه المفارقة، والذي سيفضي في النهاية الى أُسلوب فردي خاص به.

وتبعاً لهذا كله فأنه يصطفي منظومته اللونية لتتطابق مع دلالة الاشياء القابعة في الذاكرة الجمعية لتكون أكثر تعبيراً. فيستعين أحياناً بالصبغات اللونية الجاهزة، ومعادن (الذهب، والفضة، والبلاتين) ضمن اشتراطات التقنية لتحقيق قيمة لونية يفرضها المشهد التصويري المقترن بالواقع والحياة.

ولم يكتفِ بهذا، بل لجأ الى استمكان الطاقة التعبيرية الكامنة في تلك الخامات، فضلاً عن نماذجه الجدارية الأُخرى القائمة على توظيف خامات تقنية تنتمي للرسم، حيث نفذ بعضها بالألوان المائية والزيتية والسكرافيتو، مستعيناً بخامات تكميلية متعددة (الأسلاك الحديدية والصمغ العربي والخشب والجنفاص والشاش والقماش والصوف) لكشف القدرات الأدائية لكل خامة من هذه الخامات، بما يخدم الأغراض الجمالية والتعبيرية في البنى الكلية التي تشكل خلاصاته النهائية.

ذات الإطار الأبنوسي

موسى غافل الشطري

كانت العاهة التي عَوَّقت (فريد) قد وفَّرت له إدراكاً مبكراً بما يحدث من خفايا الأمور. دون أن يبدو على ملامحه، ما ينبئ من نضوج، سوى زغب كحلي، رسم خطوطه بلطف على شفتيه، تحاصره غمازتان موحيتان. فتحكمت العينان بنظرات ثاقبة. كما تجلى بوضوح عمق التأمل، ورجاحة المنطق. بينما بدت قائمتاه مريضتين، تقهقرت حيويتهما، وضمرتا بسبب الشلل الذي رافقه منذ طفولته، فاعتاد أن يخفيهما. لذا.. فقد استكان، وأقر أن يعتاد، بقضاء وقته على كرسي متحرك مطلاً من فوقه عبر بوابة الدار، مراقباً بصمت ما تدب من حركة. كان ودودا بل إن الجميع يستأنسونه، فيقفون بقربه، ليلتقطوا إجاباته المقتضبة، أو يجبروه على محاورة تخفف من معاناة عاهته. يؤنسه أن يشاهد (مروج) تلك الفتاة التي لم تخفِ رغبتها في اقترابها إليه وتشغله بمقارنة لشبيهتها التي طالما تأرّق من اجلها، تلك اللوحة الجدارية التي شغلت غرفته منذ حداثته. ذات يوم.. دعتها أمه، لكي تعينها على حمله إلى كرسيه المتحرك ـ طبعا ـ أخجله ذلك. فقالت الأم: إني لا أستطيع أن أرفعه بمفردي، لقد كبر وخشن عوده .قالت (مروج) بكلمات رقيقة: إني أرى ملامحه ناضجة وقد اكتملت . تقابلت الأم والفتاة، كي يضعاه هناك، فتأرجحت ساقاه بين ساقي الفتاة المكتنزتين، ودفع ذلك بوعيه الرجولي، لكي يتأمل ملامح الفتاة الريانة. فاطرق برأسه، كما لو كانت قد أيقظت مشاعره عمدا. ما أن استقر على كرسيه.. حتى مالت عليه مقتربة من جسده، وعلى نحو محسوس، متطوعة أن تدفع به نحو الحديقة، التي توحش مرجُها وأوحى إليه: بأنه قادر على تشذيبها وملئها بالأزهار. قالت مروج :هل تستطيع إحياءها كما كان يفعل والدك من قبل ؟ إنها لا تحتاج سوى إلى جهد ضئيل، سنعمل معا لإعادة ازدهارها؟ عندما غادرت (مروج) تحرت عيناه الحديقة التي لم تزل بنضارة خضرتها، عدا أن إطارها الزهري قد تلاشى، والذي يتطلب جهدا معافى. هـــل يستطيع أن يحييها بمفرده؟ إذن عليه أن يهبط من كرسيه ويجرّب: إن كان بوسعه ـ كما فعل أبوه من قبل- أن يغرس أداته بشكل جيد، ويستطيع بموجبها..

أن يهيئ أرضا رخوة، صالحة للإنبات لكي ينشئ رحما عامرا بالأزهار. فعلا.. هبط معتمدا على ذراعيه، واثقا بمقدرتهما. وزحف إلى داخل الحديقة، لكي يجرب تلك الأداة، ويغرسها هناك عميقا. انه سيطلب من أمه: أن تهيئ أصص القرنفل والشقائق، وسينقل ذلك إلى الحديقة، مستعينا بالفتاة. إذا استطاعت فعلا فسوف يجعل البيت رائقا ومزهرا.

* **

عندما جاءت الفتاة.. احتضنت الأصص بحماس، واقتربت بها إليه، وبدت تنوء بحملها باسمة. بدأ (فريد) يغرس الشتلات. كانا اثنيهما من الحماس: أن تتعانق أيديهما بألفة، وجسداهما. كذلك، ليوحي هذا إليه بمشاعر طاغية. إنه يفترض.. أن تكون هناك مواقع يشغلها القرنفل والشقائق. (مروج) كان همها- كما يوحى إليه - أن ترى الشتلات تتداخل ورودها وتكتنز، وتتفتح في الربيع، على نحو يثير سعادة الاثنين بحديقة مزدانة عامرة. نهضت مروج، ودفعت بآلة القص لكي تبدو الحديقة، ذات مرج مستوٍ، متجانساً ومهيأ أن يحتضن الأزهار. إن ذلك سيعكس لوالدته، ما كان يفعل والده. ويريدها أن تتحسس: بأن الحياة في هذا البيت ستمتلئ من جديد. راقب (فريد) جسد (مروج) الفتي، وهو يثب ويدفع بأنوثته جهارا. وكان جهدها الشاق، يستدعي أن يعلو صدرها ويهبط. كما لاح له: أن خِصَلاً من شعرها الفاحم تلتصق على نحرها. بدت كأنها ربة بيت، تجري بالة الحديقة، حتى يكون باستطاعة ذلك الأريج الانثوي أن ينفح. إنه يستطيع فعلاً: أن ينشئ حديقة عامرة بالأزهار، فواحة، معافاة. إنه ليس بحاجة إلى جهد إضافي عدا جهد (مروج). بدت ابتسامته، لأول مرة تميل إلى الجرأة. بدا كأنه قادر على النهوض باستقامة، على ساقين سليمتين، لكي يغرس (مسحاته) كمزارع ماهر في العمق. بل انه أحس إن عوقه يمكن أن يكون هينا، وإنه مثل أي شاب مكتمل، لا يعوزه إلى ذلك وسيط.

قالت: مروج :إن شيئا واحدا يمكنه أن يحيي كل هذا . قال : - ما هو ؟ قالت:- أن يقترن بالإرواء . كانت ماسورة الماء مقتدرة: أن تدفع بمياهها على نحو يكفي لإرواء الشتلات لضمان نموها. فيما بدت (مروج) تضغط برفق على التربة المنتفخة المحيطة بالنبتة

قال فريد: لماذا تفعلين هذا؟

قالت: لكي تتشبث الشتلة بالأرض.

قال: إنني أتوقع أن ننجح.

قالت: ولمَ لا؟ أنك قادرٌ أن تكون مزارعا كالآخرين

* * *

بعد إنجاز عملهما، غسلا أيديهما، وأدوات الحديقة. قالت مروج: هل أساعدك على الصعود إلى كرسيك. قال: إنني سأمكث، حاليا، أتأمل الحديقة .ربما يصعب عليه أن يبدو عاجزاً. بالتأكيد يصعب عليه ذلك، فهو يريد أن يكون أمامها رجلاً كاملا. فقد بدا له: إنها تصرفت معه بإحساس امرأة أمام رجل

* * *

طرأ في باله: كم سهر ليله لكي يتأمل تلك اللوحة البديعة المعلقة في غرفته، قبال سريره والتي شغلتها سيدة رائعة، بحليةٍ ذهبيةٍ ورداءٍ وملامح جذابة مألوفة؟ عندما اكتملت أنوثة

(مروج) كان يدعوها دوما أن تتأمل معه ذلك التشابه المدهش بينها وبين صاحبة الصورة. تقف (مروج) منبهرة. ربما يسعدها أن يتطابقا، بتفاصيل ملامحهما ويشغلان حيزا واحدا.

* * *

اقترب من الكرسي المتحرك، وثبّت يديه على تكيتيه لكي يتوازن، ويدفع بنفسه عليه، ثم يدفع به إلى ماسورة الماء ويغلقها. بعد مضي وقت العشاء انسحب إلى غرفته ليقضي وقتا ليس قليلاً متطلعا إلى صورة ذات الإطار الأبنوسي. إلى وجهها. وتلك الابتسامة الوقورة، وتساءل: هل يعقل أن تكون مروج بهذا البهاء؟ راقب بعناية منقطعة النظير.. إلى تينك العينين، اللتين أوحيتا إليه: إن حدقتيهما تبعثان إليه بإيحاء ناطق، وان تلك الحلية الذهبية، الراقدة على صدرها تثير غيرته. ما هذا كله؟

* * *

طيلة عوقه، واستعصاء قدرته، اعتاد أن يدفع بكرسيه، أمام بوابة الدار، ليرقب حركة الناس. كل أمله... أن يتحرى لكي يحظى برؤية ملامحها الأخاذة. ربما يحسسه ذلك بحاجته أن يضطرد نموه معها. هيأ كرسيه حتى يطل مباشرة أمام طريقها، ليرتوي من سواد عينيها، ونضارة وجهها. أما إذا خلت الطريق، فانه سيظل ساهما، كأنه يستعيد ما نفحته من أريج. غير إن ذلك لا يتكرر باستمرار، فيقضي وقته يجتر تفاصيل ذكرياته معها: ما الذي يدعوها إلى تلك النظرة؟ أهو الحب؟ كلما تأمل من فوق سريره تلك الصورة: التي أطرقت برأسها نحوه، وأرسلت إليه ابتسامة ماكرة، وجدها تجنح إلى ملامح (مروج) وكأنها هي. ظل يرقبها، ويتأمل ابتسامتها التي عودته عليها، فلاحت له كأن العينين تغازلانه. كيف لهذه الفتاة الرائعة، أن تنساق في حب مراهق؟ كيف لها أن تحب كل هذا الحب؟ بدا جسده يميل إلى الاستسلام إلى الخدر. وجفناه يميلان للكسل. لاحت (مروج) وهو مستلقٍ على سريره: واقفة في فرجة باب غرفته، بذلك البهاء نفسه، ترمقه بتلك العينين الماكرتين، اللتين عاشرهما، منذ نعومة أظافره حتى هذه الساعة، أخفى قدميه تحت غطائه، كي لا تفاجئها حالته المحزنة. ظلت واقفة قباله وقالت: من أين لك هتين العينين الناعستين؟ لماذا تخفي ابتسامتك الآسرة؟ فابتسم بحياء. ثم قالت كأنها تتوعده: انتظر ... دلفت مجتازة بوابة الغرفة، ناولته يديها فتمنّع، وقالت دون أن تراعي حرجه: لماذا تتحرج.. لأنك لا تستطيع؟ خفض رأسه بحياء وتعرّق، وضعت كفها تحت حنكه، ورفعت محياه: هل تسمح برؤية ساقيك؟ تندّى جبينه، ضاغطاً بذراعيه هناك، أراحتهما بهدوء، ومسحت عرقه وقالت: أنا أساعدك. لم يقل شيئا، لأنه يعرف مدى عجزه. قالت له بصوت آمر: - أنا أقول: انهض. نهض (فريد)، فراقب ساقيه كيف استقامتا. سألته: من في البيت؟ قال: أمي نائمة. واربت الباب الخارجي وقادته إلى الحمام، كانت قدماه تتنقلان بعناء. قالت: امش.. ستعتاد كالآخرين. دخلت به إلى المنزع.. خلعت ثيابه. دعكت جسده كله. دلكت ساقيه بعنف. وسكبت الماء على جسده وساقيه. قالت: كم أنت جميل؟ افتح عينيك وشاهد ساقيك كيف تحلوان :اغتصب نظره إلى هناك وقال: هل هذا أنا ؟ قالت: ومن تكون؟ أليس من حقك أن تكون؟ إنك بحاجة إلى هذا، هل شاهدت

سحر عينيك؟ قال لها: أعطني الصابون. اخذ الصابون، وقطعة الجلي، وجلا ساقيه وجسده واقفاً. ضحكت وقالت: أتقبلني زوجة؟ أومأ برأسه موافقا. أتت بالمنشفة، وناولته ملابسه الجديدة، فارتداها وغادرا الحمام. كان الوقت يمضي في الليل. جلسا سوية في غرفته مثل زوج وزوجة. أمه لما تزل نائمة، ولا تعلم بأمرهما.

* * * .

استلقيا على السرير، قال: أنا بحاجة إلى هواء نقي.. إني أختنق. قالت: هل ترغب أن نتجول مادام الجميع يخلدون إلى النوم؟ غادرا إلى الشارع، الجو بديع، وضعا يدا بيد، وانطلقا راكضين. مرا بطرق المدينة كلها، عبثا هنا وهناك، طرقا الأبواب. الناس يجفلون فيطلون برؤوسهم ويهتفون: - من الطارق؟ الاثنان يختبئان، وهما يمضيان بالضحك، بعض العجائز تشتم وتقول: من هو الخبيث الذي يطرق في عمق هذا الليل؟ فتهمس (مروج) بصوت خافت: فريد..... انه فريد..... الذي اختطف (مروج). تعالوا وأنقذوها؟ أجهدا نفسيهما بهذا الجري والعبث، أجهدتهما المشاكسة. أية لذة عظيمة لهذه المشاكسة؟ بعد أن كلّت قواها من شدة الضحك قالت له: فريد ...أنا لا أستطيع الجري، لقد كلّت رئتاي من الضحك، ألا تستطيع أن تحملني بين ذراعيك؟ حملها بين ذراعيه، كأي شاب فتي، وركض باتجاه زاوية قريبة يلوذان فيها. قال: أتريدين أن أحملك مسافة أكثر؟ أنا لا يتعبني ذلك. قالت: دعني أتوسد ذراعك و أنام . قال :- لا يجوز هذا في العراء. دعيني أحملك إلى البيت. عادا إلى البيت متعبين، واندسا في الفراش، مضيا يتأملان جولتهما ويضحكان بصوت واطئ، قالت مروج: مستيقظ؟ قال: أصارحك...؟ إنّي متعب جداً. فقد مضيت أجري كالحصان. قالت: آه.. كنتَ من الجموح بحيث عانيت من اللحاق بك. لا تنس.. عندما يشعشع الصباح أيقظني لكي أعود من حيث أتيت. قال: ليس بوسعك أن تستغني، ولو لليلة ثانية، عن موقعك العالي ونمارس أحلامنا الجميلة؟ أليس من حقنا أن نقترب في إطار أبنوسي واحد؟

حوارية الجبال

د. بشرى البستاني

الجبالُ ، الجبالُ
الجبالٌ تؤرَّقُني
وتلفُّ بأغصانِها جرحَ روحي ،
الجبالُ صبايا ،
تجزُّ ضفائرَها الطائراتُ
فأجمعُ عنها شظايا القنابلِ
أمسحُ وجنتَها،
فتسيل الغيومُ على مهلِها
فوقَ وردِ الصباحْ
والجبالُ حيارى
الجبالُ التي شرَّدَتْني
الجبالُ التي هَجَرتْني
وأهجرُها ، وأحنُّ إليها ،
فتبكي جروحي
وأنسى الذي كان ما بيننا من ملام
والجبالُ تلوبُ: العراقُ ، العراقُ ،
العراقُ متاحف نخل ، مرايا ، وعاجٌ
وأروقةٌ من لُجينٍ ، وأزمنةٌ من دمٍ ،
وأكفٌ تدقُّ رتاجَ العصورِ
فتنهض إنساً وجانْ
وتعدو الفيالقُ ، تعدو البيارقُ،
تعدو الخيولْ .
والعراقُ الرّؤى ، والمدى ، والأمانُ،
العراقُ الأماني

العراقُ حديقـةُ روحي
تضمُّ إليها غيوماً ، وبرقاً ،
وأزمنـةً من لظىً
وجداولَ شـهْ تشقُّ أكُفَّ الترابْ ..
والعراقُ عباءةُ أمّي ،
وثوبُ العذارى،
اللواتي يـمُتْنَ على السفـحِ
من ظمأ واغترابْ ..
- يا قمرَ الجبالْ ..
عَرَّجْ على السفوحْ ..
فوجهُكَ الأبهى ..
يطلـعُ في الجروحْ...
- يا قمرْ المنفى..
عَرَّجْ على الحقولْ ..
فوجـهُكَ الأبهى..
يولـدُ في البذورْ
فيا شجراً لا يهادِنُ ،
يا شجراً يستفزُّ الرياحَ
لماذا فتَحْتَ النوافذَ والشمسُ داكنـةٌ
والعيونُ قميئهْ ؟..
لماذا توضّـأتَ بالدمِ ، بالأمنياتِ ،
ودهـرُكَ أعجـزُ منَ باقلٍ
والعدوُّ يهدِهُ صبيانَهُ
والرياحُ تسيـرُ بما يشتهي القتلهْ
أنـتعلَّـمتَـني أن أموتَ كما ينبغي
وأُلَبّـي الحياةَ إذا انبلَجَـتْ قنبلهْ
فلماذا ذهبـتَ وخـلَّـيتَـني ؟
ولماذا عـبَـرتَ إلى جهةٍ أنا أجهلُـها؟
في الطريقِ إلى مـكّةٍ عـيَّـرتْـني القوافلُ
أنْ سأموتُ بلا كفنٍ ، أو سدورْ

وفي المغربِ العربــيِّ وجدْتُ ثيابي
مع لَقَةً فوق صاريـةٍ ،
وثيابي على جبلِ الشيـخِ في الشامِ
منشورةً فوق حبـلٍ يخـطُّ حدودَ هويةِ أهلـيَ
بيـنَ البنفسـجِ والنارِ ، بين المُدى والقتيـلْ
هناكَ وجدتُكَ تبتاعُ خبزاً لوردَ العراقِ
وتنـحَتُ صخراً لأحلامِهِ
نسـيَ النّـيـلُ ما كانَ ،
آفـةُ هذا الزمانِ التذكُّرُ
آفتُهُ الموتُ فوق حجارةِ أمـسِ تـلَبَّدَ
تلـكَ الجبالُ ، الجبالُ ،
الجبالُ طيورٌ تكابِدْ
منافٌ ، حصونٌ ،
حقولٌ من الزَّعتـرِ المُرِّ ،
نعناعُـها كَرَمُ الأرضِ ، شـحَّتُـها ،
قمـرُ الأرضِ ، لوعـتُـها
والجبالُ الجحيـمُ ، الجحيـمُ النّـعيـمُ ،
الجبالُ سياطٌ تغالـبْ
تهادِنُـني ، لا أهادِنُ
والجبالُ المناراتُ : خضراءُ ، حمراءُ ،سودْ.
والجبالُ : القبابُ ، الوعولُ ،
المرايا
مراكـبُ تسرحُ في الغيـمِ ،تبحـثُ عن لوعـةً
ولظـىً يَسَـعانِ هواها
تؤرجِحُـني ، أتهاوى إلى القاعِ
أصـعَدُ عبْرَ الجذوعِ ،
أرى ذَمَـماً تُشترى وشعوباً تُباعُ
وأُبصـرُ تاريـخَ حبّـي على السّـنديانِ
ممالكَ أهلي وتيجانَـهم
ونُـضارَ خُـطاهم وأزمانَـهم

فتلوبُ الكهوفُ وتشعلُ أنيابَ فيلٍ تمرَّدَ
أبرهـةٌ لا ينامُ ،
يفتِّشُ عن بابِ مكّةَ بين السفوحْ
والجبالُ ملاعبُ أهلي
أحسُ دبيبَ سواهم على قمَّةٍ ،
هي وردةُ روحي
على ربوةٍ هي جرحُ الضّفافِ
التي طهَّرَتْني ،
على نبعِ ماءٍ تغوصُ حمامةُ قلبي بأغوارِهِ
فأفوحُ شذىً ،
أتأرجَحُ ما بين ليلٍ وفجرٍ ،
وعطرً ووجدٍ ، وما بين نارٍ ، ونارٍ
وفي لحظةِ الشوقِ ،ما بين شِعبينِ ،
في شجرِ الجوزِ،
في جذعِ لوزٍ يخبّئُ تاريخَ آشورَ
في جنَباتِ الصّنوبرِ أو عنفوانِ الشَّقائقِ
يلتاعُ جلجامشُ
السرُّ يفقأُ عينَ الخطيئةِ
تحتدِمُ الأرضُ في قاعِ وادي العقيقِ ،
الحُداةُ ،
الحُداةُ يصيحونَ بالمُدلجينَ الذينَ
يجزُّونَ شعرَ الغزالِ ،
الغزالُ مُسجّى على قاعِ رملِ الخليجْ
- يا قمرَ البستانْ
عَرِّجْ على الشّرفهْ
فوجهُكَ الفتّانْ
يموتُ في سعفهْ
يا قمرَ الجبالْ
عَرِّجْ على السفوحْ
فوجهُكَ الفتّانْ

يولدُ في الجروحْ
وشريفُهم في الليلِ ،
يضربُ كفَّهُ ، ماذا سنفعلُ دونما تَتَرٍ ؟
همو وعدوا سيأتونَ العشيَّهْ
والعلقميُّ إذا تأخَّرَ ،
من سنعطيهِ مفاتيحَ القضيّهْ
يختضُّ تاريخُ الرّماحِ على ظهورِ علوجِهم
ترتجُّ أحذيةُ التتارِ على سفوحِ جباهِهم
يا ويلَ ماضيهم من الآتي
وآتيهم من الأصنامِ والأزلامِ ،
والزّمنِ المُضرَّجِ بالأسى ومجازرِ التفّاحِ ،
هذا البحرُ غربانٌ ، وأوحالٌ ، ودَمْ
ومراكبٌ تهوى ، وأخرى تُحْتَدمْ
والبحرُ أهدى الفجرَ قُبَّعةً ،وراحْ
لم يستبِحْ وردَ الطفولةَ ،
بانبلاجَ الأفقِ كان البحرُ يؤمنُ
بالخطيئةِ ، بالرياحْ
باللّعنةِ الكبرى ، وبالوطنِ المباحْ
أبوابُ حيفا مُذْ خرجنا
ظلّتْ مفتّحةً لأسرابِ النميمهْ
سِفرُ الجريمةِ أينَعَتْ أغصانُهُ
وعناكبُ الديجورِ تحجُبُ في الرّبى وردَ الصباحْ
ماذا ستعطيكَ الحياةْ ؟
النارُ أشعلَتِ السّنابلَ في الحقولِ
ونارُهم غرّاءُ لا تؤذي القتيلَ
حضارةُ زهراءُ من دمِنا إكفهمو تسيلُ
فلا تمُتْ في القيظِ
لا ماءٌ ، ولا خبزٌ
ولا قمرٌ ظليلْ
أعطَتْكَ هذي السنديانةُ ذاتَها

وهبَتْكَ عرشاً يستريحُ ، ولا يُريحُ
فلا تبِعْ تاجَ الطفولـةِ
فالجبالُ هي الجبالُ ، هي الجبالْ
وشجيرةُ الـرّمانِ ألـقَتْ زهرّها
فوق الرمالّ
ماءٌ يسيلُ من الغصونِ إلى يمامِ الـرّوحَ
أجنحـةٌ تحطُّ على ذرى القلـبِ
الجبالُ منافذٌ للبحـرِ
ذاك البحـرُ كان أذايَ
كان مظلّةً سوداءَ
كان البحـرُ مرسالي إلى قيـظِ الجزيرهْ ..
- يا قمرَ المنفى
عَرِّجْ على البيوتْ
فوجـهُك الأبهى
ياقوتـةٌ تموتْ
- يا قمرَ الصحراءْ
عَرِّجْ على الواحاتْ
فوجـهُكَ الوضّـاءْ
يذبـلُ في الفلاةْ
أهذا زمانُ الـرّجوعِ .!
إذنْ ، أنـتَ تكتبُهُ
وتهادنُ سراً يمـزِّقُنا
لا نبوحُ بـهِ ، نكتوي
لا نبوحُ بـهِ
ونسيرُ إلى حيـثُ تهوى المسيـرَ
إلى حيث ريح الـصّبا غـضّةٌ
والمناديـلُ آمنـةٌ
والمنايا نذورْ

اسراء الحنين

علي رحماني

اسرى لك الشهداء ....
اسرت لك العتبات....
اسراباً تطير الى سماء العشق
والملكوت ...
في ليلة التنزيل الجليل
وشهقة الطوفان
في الغسق الاخير
وغيمة الصبر الشريدة
في صحراء غربتنا الأسير...
وكل اسفار الحنين
واطوار التجلي والهطول
كل النهايات الطليقة
في الحضور
طيور جنتنا البعيدة
تسبح في سماء الصبر
تدور آفاق الدهور
بأوتار الحنين الى السيول
وسنابل الامل العنيد
مداخل الطرقات...
يا معابر الجبهات ...

لمسارح العتمات
ملامح للعبور....
الارض تعرف نهرها
تمتد من جريانه المرتد فيها
ورجالها الأشجار تشمخ كالجبال...
وحجارة الطرق الغريبة
...والدمار....
وقيود محنتنا
من رسم الحدود
حدود هذا الصمت
ومن وسم البيوت
مداخل للتجلي الاسير
من زرع الحقول
ومحبة ...ومهابة
شهادة ...
على العناء والعناد
ومن عانق الخطى
أو حصد القبول
على الدهور
والارادة في القيود

السعادة في السجود
هكذا اشتبك الخشوع
على عتب النزوع
نزف الدموع ...
مع العروج
الى جلال الامنيات
واقمار الطريق الجديد ...
فلوات الصخب المعجون .....
بالحسرات
وفي وهج الدموع العابرات
دماً بأرتال النداء
مهجاً تباركها الساريات
تزف آيات النزول ...
سور تبارك فجرها
تجلي الامنيات
تواشيح عصماء ...
تجول سماء الروح في العتبات
صدى شذرات العشق والملكوت ...
طوت بأذرعها
السنين الغابرات
وسرت لها الشهب المضيئة
في مدى الطرقات ...
حرائق الزمن اللدود ...
صواعق البرق اللجوج
بحواجز تعصف بالقيود
وكالسراب يصعد مرتسما ...
يدكَ بأودية السدود
اسراباً تدور عوالم الملكوت
تزف محافلها الردود
عواصف من حديد
بروق تنزف بالرقود
ترصد الحجب السليبة...
والوجوم على الوجود
ترشق النظرات في الافق البعيد
...وتناسق الاوتار...
ألاء من النبرات
سرت كنهار صيف صارخِ
يجول في الافق المديد ..

الترسيمات والإيقاعات البصرية للبياض والسواد في قصائد جواد الشلال

ليث الصندوق

من غرائب الكتابة عن ظاهرتي البياض والسواد في شعر شاعر ما هو أن تتماهى مدونات سيرتيه الحياتية والإبداعية مع اللون الأول، بينما تتماهى مدونات منجزه الإبداعي مع اللون الثاني. وهذا التباين اللوني ما بين الأبيض المجهول، والأسود الكثيف والمعلوم يكاد أن يكون المظهر الغريب من سيرتي الشاعر جواد الشلال وكذلك من منجزه، فقد بحثت في ملفات الشبكة العنكبوتية ومواقع التواصل الاجتماعي عن ومضة ولو خاطفة أو باهتة للتعريف به إنساناً أو شاعراً فلم أفلح، وكأن الشاعر قد تعمّد غمر السيرتين بطبقة كثيفة من بياض الإبهام. وفي المقابل فأن صفحات منجزه الإبداعي على فضاءات ومواقع التواصل الاجتماعي مغمورة بطبقات كثيفة من النصوص بما يسمح لي أن أستعير لها توصيف السواد.

وقريباً من تلك المقاربة اللونية الاستعارية بنصفيها السيري الخارجي، والإبداعي الداخلي فقد لفت انتباهي انغمار الشاعر بلعبة الإيقاعات البصرية للونين انغمارا كفل له أن يجمع ما بين صفتي الشاعر والرسام، على الرغم من أنه على خلاف الرسامين يستعين بالصفتين وبذات المواد، أي الكلمات، وبذات الأداة، أي الكتابة، مع انزياح جمالي طفيف تتحول لديه الكتابة والكلمات من نصوص إلى لوحات تشكيلية، وذلك بتطويعه اللعب على الورقة بالبياض، وهو الفراغ الكتابي أو الطباعي، وبالسواد الذي يرى البعض أنه الكتابة بحروف غامقة، ومنمازة عن سواها. بينما نراه هنا الامتلاء الكتابي بسد الفراغات والفجوات بجمل طويلة، أو متصلة ببعضها تملأ فضاء الورقة.

وان كان البعض قد ارتأى في البياض مقابلاً للصمت، ألا أننا نرى أن ثمة فارق ما بين المفهومين، فأن كان الصمت هو اللاشيء، أو العدم، فأن البياض هو الصمت الدال، أو هو الشيء الموجود، ولكنه محتجب وراء ستارة الفراغ التي تحول دون رؤيته، والدليل على وجوده هو في علاقات المجاورة بما قبله وما بعده والتي تُخفي في طياتها آثار ذلك البياض ودلالاته. وبذلك فأن الفراغ الكتابي هو وجود

محتجب من دوال غير لسانية، وأن موقعه المختار بقصدية وعناية ضمن النص يضمن له القدرة على التأثير وإنتاج التأويلات، فهو إذن لم يعد مجرّد دال على الصمت بقدر ما أصبح لصمت البياض معنى تكتبه أبجدية الفراغ. وفي المقابل صار الامتلاء الكتابي يفترض المعنى في تكدس الدوال وتعاقبها، وبذلك لم يعد السواد دالاً فقط على الضجيج الصامت، بقدر ما أصبح لسواد الضجيج معنى تكتبه أبجدية الامتلاء. وبمعنى آخر أصبح البياض والسواد موجّهات إيحائية تشير إلى داخل النص للبحث فيه عن الحمولات المتوارية.

أن التواشج الهندسي للحروف الطباعية مع التشكيلات اللونية للبياض والسواد في مفهوم الحداثة الشعرية قد أخرج القصائد من سجنها التقليدي كونها مجرّد نصوص مكتوبة للعين فقط، لتصبح لوحات تشكيلية معدّة للتأمل أيضاً، كما أزال حاجز التعالي التاريخي ما بين الشاعر والقارئ عندما سمح للثاني بالمشاركة في كتابة القصائد من خلال تعديل اتجاهاتها القصدية وترك بصمة التأويل عليها. وليس من التندّر القول بأن كل تلك القفزات الجمالية الثورية لم تكن لتُنجز لولا انتقال الشعر من مرحلة الإلقاء إلى مرحلة الكتابة، ذلك الانتقال الذي مهد للنص الشعري التحول من صيغته الأولى كونه مجرّد صوت يُتلى للأذن إلى صورة تُستقبل بالعين، وبالنتيجة ساهم هذا الانتقال في تطويع النص ليكون قابلاً للعرض، كما هو معدّ أصلاً للقراءة. وما هذه القراءة إلا محاولة لاستنطاق جانب من ذلك التحول من خلال الانزياحات الفضائية للبياض والسواد ودلالاتها داخل بعض نصوص جواد الشلال على موقع التواصل الاجتماعي ألـ Facebook.

إحدى آليات رسم البياض الأثيرة لدى جواد الشلال هي آلية القطع، حيث يُفتت الجمل المتكاملة إلى نثار يخلّف فضاءات بيض، كما في المقطع التالي الذي يتوفر على أربعة قطوعات خلفت خمسة فراغات بيض:

(ألقاكِ
يا ابنة الحب
الجليل
المتقد على نار
الحرب)

القطع الأول:

يعقب جملة الاستهلال الفعلية المتكاملة نحوياً، إلا أنها افتقرت إلى توصيف أكثر تفصيلاً لضمير المخاطب الأنثى. وبالرغم من اكتفاء الحاجة النحوية بالضميرين الفاعل والمفعول به، إلا أن مقاصد الشاعر التي لم تتضح عند هذا القطع تتعدى نحويتها إلى تفصيل يستجيب لمضمون الرسالة التي يريد إبلاغها لمحبوبته. وفي غياب ملامح المحبوبة يبقى البياض مهيئ لاستقبال تأويلات مرجأة للسطر التالي.

القطع الثاني:

تمثل في فصل الموصوف (السطر الثاني) عن صفته (السطر الثالث) فأنتج هذا القطع بياضاً مؤقتاً، تأجّل ملؤه إلى السطر الثالث المكون من مفردة الصفة (الجليل) وهي الأولى، وستعقبها الصفة الأخرى في السطر التالي. كما أن تأجيل ملء البياض في مستوى هذا القطع لما بعده وضع القارئ أمام تساؤلات عن أسباب فصل الصفة عن موصوفها داخل الجملة الواحدة، وقد تبيّن أن القصد من ذلك هو التمهيد للصدمة الناجمة عن العلاقة القلقة ما بين المتباعدين (الحب والحرب).

القطع الثالث:
استهلت الجملة التي أعقبت الصفة الأولى لمفردة الحب بالصفة الثانية لها، أي (المتّقد)، ولكن هذا الاستهلال لم يكد يتصل بشبه الجملة (على نار) حتى انقطع تاركاً فضاء بياض رابع من دون الإجابة عن طبيعة العلاقة بين ما رشح من دلالات الأسطر السابقة، تاركاً للقطع التالي وما يليه إضاءة الاحتمالات التأويلية الممكنة.

القطع الرابع:
هو القطع الفاصل ما بين القرينين (النار) و (الحرب) والذي يُفترض أن تُختم به سلسلة البياض، بيد أنه ترك بقعة بياض خامسة لا يمكن تأويل ملئِها إلا بما تُخلفه الحروب من قطع للتواصل ما بين ضمير المتكلم في فعل الاستهلال (ألقاكِ)، وما بين المخاطبة التي أوجب عليها قهر الحروب الصمتَ المطبق لتعقب هذا القطع في السطر الأخير مفردة الختام، وكل ختام (الحرب).

والآن:

- أليس من المعقول أن نبحث في البياض الذي خلفته مفردات (الحب+ الجليل+ نار+ الحرب) عن علاقات التشابك والتفاصل ما بينها وأثر تلك العلاقات على العلاقة ما بين المتكلم والمخاطبة؟

- أليس الحب قرين النار؟

- أليس الحب نقيض الحرب؟

- أليس (جلال الحب) في عبارة (الحب الجليل) نقيض (همجية الحرب) التي تحيل إليها عبارة (المتقد على نار الحرب)؟

- أليس الفاصل ما بين جملة الاستهلال (ألقاكِ) وبين (أبنة الحب) أقرب، بما يوحي للإمكان، من الفاصل ما بين جملة الاستهلال (ألقاكِ) وبين مفردة (الحرب) بما يوحي للاستحالة؟

- أليست الفضاءات الأربعة التي سبقت مفردة الختام (الحرب) هي تمظهرات بصرية للدلالات النوعية التي يحفل بها قاموسي الحب والحرب.

- وأخيراً، وليس آخراً، ألم يُساهم هذا النمط من الإيقاع البصري في تحفيز العين على نقل صورة البياض إلى المخيلة لتترجمها إلى معان ودلالات محتملة؟

في مقابل تساؤلات البياض تلك يتولد التساؤل النقيض، تساؤل السواد الذي يدفع إليه ضمّ أشتات الصورة الواحدة في جملة واحدة طويلة، أو ضم الصور العديدة في أسطر متراصة من السواد التعبيري المكثف، والحالتان تدفعان القراءة للبحث عن مسوغات ذلك السواد، وواحدة من مسوغات ذلك السواد أو الامتلاء الكتابي سنجدها في الامتلاء الدلالي الذي تمثله السلسلة المتراصة من الجموع، كما في المقتطعات التالية:

(أنا الشعب الممتلئ بالعطش وأخبار الملائكة الصالحين وتقنيات الطائرات صغيرة الحجم جداً)

أو:

(أزداد عدد منشدي المراثي، واختفت كؤوس النبيذ، تغيرت الأصوات وتشابكت الألحان، والموت متعدد الأطراف)

أو:

(نعم وأنت تطحنين وحدتك وتصبغين قلبك بالحناء، وتقرأين أناشيد على عظامك المسكونة بتحية الوجع..

لا بأس بكل هذا الحزن الرحيم وأنت تشرين ثيابك المملوءة ببقايا حزن الأمس)

هذا، وتدعم صيغ الجموع تلك ما تضفيه الجمل التالية من هيمنة صيغ الامتلاء والكلية والعددية والتشابك على النصوص لتسدّ

فراغاتها بسواد دلالي يتماهى مع سوادها الكتابي أو الطباعي:

- الشعب الممتلئ بالعطش: دلالة السواد = الامتلاء
- ازدياد عدد منشدي المراثي: دلالة السواد = الزيادة+ العدد
- اشتباك اللحان: دلالة السواد = التشابك
- الموت متعدد الأطراف: دلالة السواد = العدد
- كل هذا الحزن الرحيم: دلالة السواد = الكلية
- الثياب المملوءة ببقايا حزن الأمس: دلالة السواد = الامتلاء

وكما أوجد الشاعر مساحة البياض بتقطيع الجمل المكتملة، فقد عمد في قصيدة (ألملم بقايا الورد وأنتظر زخة مطر) لذات الآلية ليوسّع حجم البياض الذي أوشك أن يلتهم مقاطعها الثلاثة ممهداً لأسئلة بيض مفتوحة على إجابات بيض أيضاً، وتتمحور تلك الأسئلة في الغالب، والتي يُنهي بها القصيدة في مقطعها الثالث حول دلالة الانتظار، وعدا ذلك فكل ما تراءى في المقطعين الأول والثاني على أنها تساؤلات فليست سوى وهم نحوي كما سنبين ذلك في:

المقطع الأول: يضع الشاعر معاناة الأطفال الجادون في انتظارهم للخبز والحرب معاً، في مقابلة مع تحسّر الكبار على ما آلت إليه مصائر الأطفال وما يقاسونه جراء انتظاراتهم، لأن مهمة الكبار كما يرى هي التحسّر، ولذلك يُراكم الشاعر عبء انتظارات الفريقين فيجده عبئاً ثقيلاً، أو بحسب الانزياح التوصيفي الذي يرتأي الشاعر أنه أقرب إلى مخيلته المنفلتة من المحددات التوصيفية المنطقية، فهو عبءٌ سميكٌ. أو بالأحرى أنه يرى (الانتظار) سميكاً، واصفاً المجرّد بالملموس:

- كم سَميك كلّ هذا الانتظار

وما بين الطبيعتين المفارقتين يظل الإخبار عن سمك الانتظار غائباً، أو متسماً بالبياض، ولكنّ غيابه لا يعني انعدامه، ذلك لآن السطور الأولى من هذا المقطع ربما تعين في البحث عن مخرج للمعنى الغائب أو المتواري من خلال جدية مادتي الحياة والموت، وهما (الحليب والحرب):

(الأطفال لا يعبثون
أنهم ينتظرون
الخبز
والحرب
لا أحد يسقيهم الحقيقة مع
الحليب)

ربما يُسوّغ المنطق السليم (المنطق اللاشعري) أو منطق الجمل السود المكتملة انتظار الحياة عبر مادتها/الحليب، ولكن انتظار الحد المفارق/ الموت يوجب اللجوء إلى منطق الجمل البيض المقطّعة، والتي يُلزم تقطيعها على القارئ تفعيل قدراته التأويلية من أجل إكمالها افتراضياً على الأقل.

ولكن البياض دلالياً لم يتأتَ فحسب من فحوى الإخبار الذي أوهم القارئ بأنه نمط من الاستفهام، ذلك لأننا لا نستطيع افتراض الإجابة عددياً عن (السُمك) في المقطع الأول (كم سميكٍ كلّ هذا الانتظار)، ولا عن (الصعوبة) كما في المقطع الثاني (كم صعبٍ تكرار الانتظار) هذا من حيث المنطق على الأقل والذي من حق الشاعر تغييبه أو إنكاره، فللشاعر منطقه الخاص، لكننا في كل الأحوال نفترض أن الإجابة بالاسم (كم) الاستفهامية توجب نصب الاسم بعدها، وهذا ما لم يتوفر في الجملتين. ولعل الشاعر أيضاً قد وقع تحت طائلة هذا الوهم عندما ختك الجملة الأولى،

جملة (السُمك) بعلامة الاستفهام، بينما أدرك ذلك في الجملة الثانية، جملة (الصعوبة) فحذف علامة الاستفهام، واستعاض عنها بسلسلة ثلاثية من النقاط.

أقول إن دلالة البياض لم تأت من فحواه الإخباري فحسب، بل من النتائج الصفرية البيض لذلك الإخبار عن ثقل أو سُمك انتظار الحليب والموت معاً، ذلك الانتظار الذي عانى الأطفال مرارته، تضاف إليه ثمة علامة بيضاء صفرية أخرى تمثلها الحقيقة الغائبة التي لا يبسطها أحد للأطفال عن مآل انتظارهم:

(لا أحد يسقيهم الحقيقة مع
الحليب)

أما الكبار فهم لا يبحثون عن حل لإنهاء حالة الانتظار، أو بالأحرى أنهم لا يبحثون عن حل لهذا البياض الدلالي، لأنهم يكتفون بمعالجة وقع مرارته (أو سُمكه) عليهم بالحسرات والدموع:

(فمهمة الكبار
ألحسرات
وذرف الدموع)

المقطع الثاني: يحضر قلق الانتظار مجدداً، ولكن بصيغتين، الأولى صيغة النفي:

(لا أجيد
الانتظار)

لكن نفي الإجادة أو تبييض أثرها الدلالي يدفع الشاعر إلى توسيع أثر البياض في تركيب جملتها شكلياً أو تقطيعها، وفي المقابل تأتي حالة (عدم الإجادة) مقرونة بعكسها، أو بإثبات الإجادة في حفظ الأسرار، أو تسويد الأثر الدلالي لتلك الإجادة بتعمد الشاعر توسيع أثر السواد في تركيبها شكلياً، أو عدم تقطيعها (أجيد الأسرار حتى تتجمّد). ومع ذلك فالشاعر يبدو وكأنه يخترق أعماق المفردتين (الانتظار) و (الأسرار) فيرى فيهما ما لا يراه القاموس عندما يضعهما معاً على مستوى واحد من المقايسة الضدية:

(أنا
عادة
أجيد الأسرار حتى تتجمّد
لا أجيد
الانتظار)

أما الصيغة الثانية، فهي صيغة موافقة للصيغة السابقة في المقطع الأول، أي صيغة الإخبار:

(كم صعب
تكاثر الانتظار)

ومن الملاحظ أن الإخبار هنا موافق للإخبار في المقطع الأول من حيث توصيف المجرّد بالمزيد من جهة، ومن جهة أخرى فأن الصيغتين تُكمل وتدعم بعضهما معنوياً، فلولا (السُمك) في الأولى لما (صعُب التكاثر) في الثانية.

المقطع الثالث: تكتمل في هذا المقطع هندسة الفراغات البيض مع حضور الدلالات المفرغة للأسئلة المفتوحة على البياض، وهي الأسئلة الموجهة إلى الآخر غير الواعي، ألأرضي (الأشجار)، والسماوي (المطر) بعد أن أضفى على الأول وعي الانتظار:

(أسأل الأشجار
ماذا تنتظر؟)

وأضفى على الثاني وعي الإرادة:

(المطر
ماذا يريد ؟)

وكذلك السؤال الموجه للذات الواعية المتكلمة (الانا)، وهو سؤال الانتظار ذاته الذي سبق أن وجهه المتكلم لقرينه في الموقع (الأشجار) وكأن الانتظار هو ضالة المخلوقات الأرضية:

(أنا ماذا
أنتظر؟)
ومع مراوحة الأسئلة الموجهة لكل طرف من الثلاثة ما بين الانتظار والإرادة، تظل إجاباتهم عنها مقيدة في حدود الصمت الدال، أو البياض؟
وفي مقابل هذا البياض يهيمن سواد شبه مكثف على كثير من القصائد، ولنختر منها قصيدة (رأيت نبيذاً معتقاً يُشبه أصابعكِ)، حيث تتشكل المقاطع من حزمة من الصور، تتمثل كل حزمة في عتبة تُمهّد السابقة منها للاحقة، ثم تُختتم بالصورة الحسم التي تُغلق بها الحزمة الصورية، مع ملاحظة أن جُمل العتبات والجُمل الحسم هي جميعها من الجمل الفعلية، بغض النظر عن طبيعة الأفعال.
يستهل ضمير الغائب المؤنث السطر الأول من المقطع الأول من القصيدة، مكتفياً بأثره هذا (لم تكن تهذي)، إذ يغيب بعد هذا الاستهلال ولا يترك له أثراً ضمن هذا المقطع، والأثر الوحيد المهيمن بعد الافتتاحية على هذا المقطع هو لضمير المتكلم، لكن ضمير الغائب المؤنث سرعان ما يستبدل موقعه النحوي فيتحول إلى ضمير المخاطب المؤنث تاركاً أثراً طفيفاً كما هو أثر الأنثى في المطع الأول، أثراً لا يتعدى جملة (لم أعترف لك)، والأثر الأوسع منه قليلاً في المقطع الرابع:
(لكني لم أعتد أن أقول لك:
أن وجهك نبيذ فرنسي وبعض من ثمار الجنة الطرية)
وعدا ذلك فهذا الضمير يحضر بكامل سلطته التأثيرية في ثريا العنونة ليضيء له أثراً مغيباً في كامل القصيدة، ويوحي بهيمنته عليها، وعلى ضمير المتكلم أيضاً.
وبتجاوز الافتتاحية من المقطع الأول تتوالى الجمل العتبات، وكالتالي:
1 - كانت أصوات أزيز رصاصات غاضبة
2 - ورسائل مملوءة بالشتائم
3 - وحروقاً من الدرجة الثالثة للحروف
(مع ملاحظة أن الجملتين الإسميتين الثانية والثالثة معطوفتان على الأولى الفعلية مما يُخضعهما لتاثيراتها الفعلية)
4 – أضحك قليلاً لأعي نصف الحياة
5 – أسمع نصف أغنية
6 – وارمي نصف الكأس المملوءة
ولكن أين جملة الحسم ضمن هذا المقطع الذي شغلته بالكامل جمل العتبات الست والتي يُفترض أن تُختم بها سلسلة العتبات. أن افتراض الختام الموقعي لجملة الحسم قد اختل في هذا المقطع وازاح موقع جملة الحسم الفعلية من نهاية المقطع ليدغمها مع العتبة الرابعة مقرناً فعلها بلام التعليل، أي أنها جملة (لأعي نصف الحياة) التي أزيحت موقعياً فحسب، بينما بقي ثقلها الدلالي مؤثراً على كل العتبات الست.
مع المقطع الثاني تتوالى العتبات الفعلية كالتالي:
1 – اعتلي قمة السلم
2 – أتلو خطاباً مدججاً بالشتائم الخفيفة
3 – ألوّح بيدي لمن يُخالفني
أما الجملة الحسم فهي
- الجمهور كان خفيف الظل (مع ملاحظة أن ابتداء الجملة بمفردة أسمية (الجمهور) يعقبها مباشرة الفعل الناسخ الناقص (كان) لا يلغي فعليتها إذ أنه من اليسير قراءة الجملة التالية المبدوءة بذات الفعل على أنها معطوفة عليها:
- كان يريد مني أن أبدأ بشتائم ثقيلة حتى يتسنى لهم الضحك بإفراط.
ولكن ما الدلالة المعنوية لانحسار البياض

نسبياً عن القصيدة وإحلال السواد بدله؟ ربما تكون الدلالة في حالات الامتلاء المعبّر عنها بجموع المفردات (اصوات/ رصاصات / حروق/ شتائم / جمهور/ سلالم / البيوت/ ثمار).

وهذا النمط الدلالي للسواد سبق أن أتينا على نظيره، لكن ما يميزه عنه في هذا النص هو في المحددات المتراوحة ما بين الزيادة والنقص دون أن تبلغ العدم:

- فالحروق ليست من الدرجات الطفيفة الأولى، بل هي من الثالثة (وحروقاً من الدرجة الثالثة للحروف)

- والضحك خضع للمقايسة فهو لم يُعدم تماماً، ولم يُكثر بإفراط، بل هو في حدود القلة (أضحك قليلاً)

- والأمر كذلك بالنسبة لوعي الحياة فهو لم يُعدم تماماً، كما أنه لم يكن في أقصى مستوياته، بل اقتُصر على النصف (لأعي نصف الحياة).

- والأمر كذلك لنصف الأغنية (اسمع نصف أغنية).

- وللكأس التي خضعت هي ذاتها لمقياس الامتلاء، بينما أفرغت محتوياتها إلى النصف (أرمي نصف الكأس المملوءة).

- وللجمهور (الجمهور كان خفيف الظل) فهو لم يجعله بليداً ثقيل الظل، كما أنه لم يحرمه من ظله تماماً كما فعل الروائي فتحي غانم مع أحد أبطال روايته (الرجل الذي فقد ظله)، بل جعله خفيفاً، والخفة منطقة تتوسط ما بين العدم والثقل.

- والأمر كذلك للشتائم المتراوحة ما بين الخفة والثقل، فهو حيناً يتلو (شتائم خفيفة) أما الجمهور فكان يريد منه (أن يبدأ بشتائم ثقيلة) كل ذلك من أجل (الضحك بإفراط).

- والشيب بدوره لم يتحرر من الحساب (بضع شيبات)

- وكذلك الأمر للحزن (حزنت كثيراً)

- واعتلاء السلم إلى قمتها (أعتلي قمة السلّم)

- والجمهور لم يتكلم كل واحد منهم بصوته منفرداً، بل (قالوا بصوت جماعي)

- أما وجه الحبيبة المفرد فقد جاء تشبيهه بصيغة الجمع، فهو (بعض من ثمار الجنة الطرية)

أن تفعيل هندسة اللونين في تشكيل الرسمة الخارجية للنص الشعري ليس مجرّد لعب شكلي عابث بقدر ما هو محاولة للتوفيق ما بين طرفي الصورة الشعرية الداخلي/الدلالة، والخارجي/الشكل، أو من أجل تمكين الدلالة من التوسع خارجياً، وفي الحالين تتحكم مخيلة جامحة في موازين التوفيق، مخيلة سريالية غير مستقرة تهشّم الواقع لتبني من حطامه عالماً أخر ليس له قرين إلا في مخططات الأحلام والكوابيس:

(كان لي حديث ممتع مع عصفور حكيم
قال: العمر زمن سريع)

أو:

(بعد مفاوضات طويلة نجحت باستدانة نهر، أدخلته غرفتي
كنت أرغب برفع الملوحة من أقدامي، لكني لم أجده عند الصباح
كتب لي رسالة وهرب:
سأعود عندما أجد من يسحب الملوحة من رأسي)

أو:

(حائر
لازلت أعاني من صعوبة فضّ النزاع
بين غيمتين)

الحداثة والاستشراق في منظور توماس مان

د . بهاء محمود علوان

1. تعريف الحداثة الألمانية

يُعرّف الروائي الالماني توماس مان الحداثة الألمانية كما جاء في كتاب (تأملات شخص غير سياسي)، بأن الفرنسيين مفتونون بما يسمى بالعاطفة الجديدة.

يوصف توماس مان هذه الظاهرة، التي نمّتْ التطرف العالمي (تسييساً لكل الأخلاقيات؛ وتمثلت عدوانيته وتعصبه العقائدي في إنكار وازدراء أي أخلاق غير سياسية. (الإنسانية) أممية؛ كما (العقل) و(الفضيلة) بوصفهما الجمهورية الراديكالية؛ تُعد الروح كشيء مشترك بين نادي اليعاقبة والشرق الكبير. ويذكر مان في كتابهِ (تأملات رجل غير سياسي): (إننا نتعامل مع الفن بوصفه أدباً اجتماعياً، والبلاغة الخبيثة الذائبة في خدمة (الرغبة) الاجتماعية: وهذا ما يجعلنا نرى الشفقة الجديدة في ثقافتها السياسية الأكثر نقاءً).

يفترض توماس مان أن المجتمع الفرنسي يجسد كل ما لا يتناسب مع ألمانيا، وبالتالي يتم تصويره على أنه خطر على الشخصية الألمانية. وفي تأملاته يشير توماس مان الى أن هذا النظام الاجتماعي غير الألماني، أو بالأحرى الفرنسي، هو نوع من الواجهة، زائف بطريقة أو بأخرى. وإنهُ لا شيء كما يبدو. وبحسب مان، فإن النظام الديمقراطي الإنساني هو نظام مخادع ومتعطش للسلطة، من شأنه أن يقتلع كل ما هو ثمين بالنسبة للألمان. ويضيف: إن المواطنين الألمان سوف يرفضون هذه الديمقراطية الخطيرة ويتمسكون بالنظام الاستبدادي التقليدي، لأن (السياسة غريبة وسامة على الطبيعة الألمانية) ولأن الشعب الألماني لا يمكنه أبدا أن يحب الديمقراطية. إن التقاليد الألمانية المتمثلة في (الثقافة والروح والحرية والفن وليس الحضارة والمجتمع وحقوق التصويت والأدب) معرضة للخطر. وبدلاً من جنون الديمقراطية، تقدم ألمانيا بديلاً وسطياً معتدلاً؛ (إن الإنسان الألماني يقول توماس مان - الذي يمثل المركز الجغرافي والاجتماعي والروحي كان ولا يزال حاملاً للروحانية الألمانية والإنسانية ومعاداة السياسة). ويؤكد مان أيضاً على الشرعية الكاملة للنظام الاجتماعي الألماني

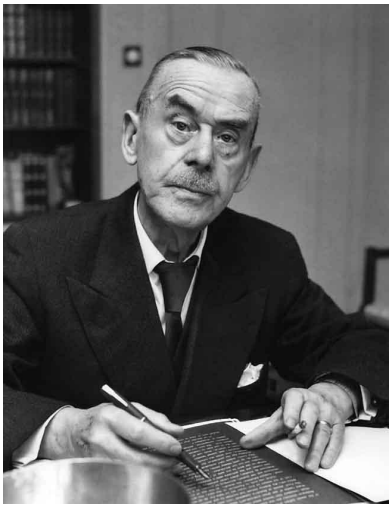

توماس مان

فيقول: (إن الإرادة الألمانية للقوة والعظمة على الأرض تظل غير قابلة للطعن على الإطلاق في شرعيتها وآفاقها)، ويذكر أن فرنسا، التي يعدها بلداً بائساً، ويقدم تبايناً بين هذا البؤس وبين ما يسمى بمجد النظام. ووفقاً لمان، فإن هذا التناقض موجود بسبب عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي في فرنسا ويستشهدُ بالقول:

(هناك شعوب سياسية للغاية، شعوب لا تهرب أبداً من الإثارة السياسية والاضطرابات، ومع ذلك، وبحكم افتقارها التام إلى القدرة على بناء الدولة والسلطة، لم تحقق أي شيء على الأرض، ولن تحقق أي شيء أبداً، على سبيل المثال البولنديين والأيرلنديين. ومن ناحية أخرى، فإن التاريخ هو الجائزة الوحيدة التي حصلت عليها في الأساس القوى التنظيمية وقوى بناء الدولة للشعب الألماني غير السياسي. أنك تمتلك بين يديك دليلاً على أن السياسة لا تنجح في بعض الأحيان. إذا أعلن أشخاص مثلي أن الروح السياسية غريبة ومستحيلة في ألمانيا، فلا ينبغي أن يكون هناك أي سوء فهم).

إن هذا التصوير للشرعية الألمانية يجعل من الحداثة الألمانية نموذجاً مثالياً مفضلاً إلى حد ما على النظام الاجتماعي السياسي الفرنسي المفترض. وحين لا يكتفي بالثناء على النظام الاستبدادي في ألمانيا، بل يقدم أيضاً الحرب العالمية الأولى بوصفها مهمة لا يمكن إنكار شرعيتها وآفاقها. وكما يزعم إدوارد سعيد فإن توماس مان في (تأملاته) يخلق تسلسلاً هرمياً في العلاقات بين الذات الألمانية و(الآخر) الفرنسي. ومع أن فرنسا لا تقع في الفضاء الجغرافي التقليدي للشرق، فإنها بالنسبة إلى توماس مان تمثل ساحة معركة من أجل الهوية الفكرية والثقافية الأوروبية.

يصور ألمانيا كدولة مثالية، ذات روح أخلاقية قوية وحرص عالمي في الحفاظ على النظام. في المقابل، يصف فرنسا بأنها مستنقع سياسي من الفساد وعدم الاستقرار، وبالتالي فهي أدنى إلى حد ما مقارنة بألمانيا. وهو يمتدح المجتمع الألماني وذلك التشكيك في الشرعية الفكرية لفرنسا، وهي استراتيجية استشراقية كلاسيكية: تحديد الذات (الأفضل) و(الآخر الأقل).

2. فرنسا الخطرة

لا يتردد توماس مان في الحديث عن خطر الحداثة الفرنسية على الروح الألمانية. في سياق حجته يزعم توماس مان أن (الأحزاب الراديكالية) في فرنسا تشكل في الواقع تربة خصبة وأرض خصبة للكراهية الفكرية لألمانيا والشخصية الألمانية. وكل ما يعتبر

في نظر الإنسان من الجوهر الألماني يتعرض للهجوم من قبل الديمقراطية الفرنسية. وهو يولي أهمية كبيرة لفكرته القائلة بأن أعداء ألمانيا، وخاصة فرنسا، بالمعنى الروحي والغريزي والسام والمميت هم البرجوازيون (المسالمون) و(الفاضلون) و(الجمهوريون) و (أبناء الثورة). إن التطرف (الكوزموبوليتاني) في فرنسا من شأنه أن يدمر الجوهر الألماني يقول مان :

(سوف يتم امتصاص الروح الألمانية واختفائها فيه، وسوف يتم القضاء عليها، ولن تكون موجودة بعد الآن).

إن تأملات شخص غير سياسي هي بمثابة نداء وتحذير في الوقت ذاته. يحذر توماس مان قُراءه من خطر مفترض موجود بالفعل بين المواطنين الألمان والذي يريد تقويض النظام الألماني الاستبدادي. كما جاء في كتاب توماس مان: (إن ألمانيا لديها أعداء داخل جدرانها، أي حلفاء وأنصار الديمقراطية العالمية)، ويشير كذلك إلى أن الجيوش الألمانية قادرة على صد المقاتلين الأجانب أكثر من قدرتها على صد الهجمات على الشعب الألماني. ويرجع توماس مان هذا الضعف الروحي إلى أن المسار الفكري الذي يتم إعداده في (الروح) الألمانية. لقد ضعفت الأخلاق الوطنية الألمانية بسبب الميل نحو ما أسماه مان بالنزعة (الكوسموبوليتانية) الخطيرة. إن هذه النزعة الكوسموبوليتانية التي يتبناها ماكاي مقموعة وغير فعالة بالفعل في ألمانيا. وفي هذا الصدد، تُقيم تأملات رجل غير سياسي ارتباطاً بكتاب (الموت في البندقية)، فيجسد الشخصية الرئيسية، غوستاف فون أشينباخ، وهو ألماني يجسد هذا الضعف العقلي. في بداية الرواية، يجسد أشينباخ كل ما هو مهم بالنسبة للرجل الألماني الصالح. ومن خلال كتاب (الموتُ في البندقية) فهمنا منذ الصفحات الأولى أن أشينباخ، المفرط في تحفيزه بالعمل الصعب والخطير في ساعات الصباح، والذي يتطلب في ذات الوقت أقصى درجات الحذر والحكمة والشدة ودقة الإرادة، نرى أن الكاتب قد أستسلمَ للتأرجح المستمر للخطة الإنتاجية، والمحرك الذي بداخله). لقد أظهر (أن لشاب الشاكر إمكانية التصميم الأخلاقي بما يتجاوز أعمق المعرفة). لكن بالرغم من هذه القوة، فإنه يتعرض للإغراء من قبل شخص غريب. لم يكن أشينباخ قادراً على تجاهل هذا الخطر، وتبع هَوَسه حتى وفاته. إنه نوع من النقد لضعف العقلية البرجوازية. ينتقد توماس مان النظام السياسي الفرنسي، ولكن من خلال الإضرار بالبطل (الألماني الصالح)، فإنه يشكك أيضاً في قدرة المجتمع الألماني على رفض هذا التهديد الأجنبي الخطير. ونرى في العملين، من الواضح أن توماس مان ورواة رواياته يصورون بأن يصوروا فرنسا والبندقية ككيانات خطيرة يجب على الألمان الحقيقيين حماية أنفسهم منها بالقوة الأخلاقية، لكنه ينتقد أيضاً وبشكلٍ جزئي قدرة الألمان على الاستمرار في التمسك بـ (الألمانية) والهوية الألمانية المتجذرة.

مكالمة هاتفية

قصة: دوروثي باركر*
ترجمة: ميلينا مطانيوس عيسى

أرجوك يا رب، أتِح له الاتصال بي الآن.
عزيزي الله دعه يتصل بي الآن، ولن أطلب منك أي شيء آخر، صدقاً لن أفعل.
ليس كثيراً ما أطلبه، بل إنه بسيط بالنسبة لك يا رب، طلب بسيط، بسيط، فقط أتِح له مهاتفتي الآن، من فضلك يا الله! أرجوك، أرجوك، أرجوك.
ربما يرن الهاتف إن أنا تناسيت الأمر، ذلك أنه أحياناً يرن.
لو أنني أستطيع التفكير بشيء آخر، فربما مع مرور الوقت يرن إن أنا عددت خمسمئة خمسات، سأحصيها ببطء ولن أغش، ولن أتوقف إن يرن الهاتف عند وصولي إلى الرقم ثلاثمئة، ولن أجيب على المكالمة إلى أن أبلغ الخمسمئة. خمسة، عشرة، خمسة عشر، عشرون، خمسة وعشرون، ثلاثون، خمسة وثلاثون، أربعون، خمسة وأربعون، خمسون .... من فضلك رن، رجاءً.
سأنظر إلى الساعة للمرة الأخيرة، وسوف لن أنظر إليها ثانيةً.
إنها الساعة السابعة إلا عشر دقائق، وهو قال إنه سيتصل في الخامسة "سأتصل بك في الخامسة يا حبيبتي"، وأعتقد بأنه ذاك المكان الذي قال فيه "حبيبتي" ومتأكدة أن ذلك ما قاله هناك، أعلم بأنه ناداني "حبيبتي" مرتين، ومرةً أخرى عندما قال "عن إذنك، إلى اللقاء يا حبيبتي". كان مشغولاً وليس باستطاعته التحدث أكثر في المكتب، لكنه دعاني "حبيبتي" مرتين.
إنه لا يحبذ اتصالي به، وأنا أعلم أنه ليس عليك الاستمرار في الاتصال بهم وأعلم أنهم لا يحبون ذلك، فهم عندما يعلمون أنك تفكر فيهم وتريدهم، يكرهونك، لكنني لم أكن قد تحدثت منذ حوالي ثلاثة أيام، ليس لثلاثة أيام، كل ما فعلته هو السؤال عن حاله وتلك حال أي شخص من الممكن أن يتصل به.
هو لا يميل لأن أتصل به، ولا يمكنه التفكير بأنني أضايقه.
"أكيد، أنت لست كذلك" قال هذه العبارة وإنه سيتصل بي، لم يكن عليه أن يقول

ذلك، فأنا لم أطالبه، صدقاً لم أفعل، متأكدة لم أفعل، ولا أعتقد أنه سيقول بأنه اتصل بي، وبالتالي لن يفعل ذلك.
أرجوك يا رب، لا تتِح له فعل ذلك، أرجوك لا.
"حبيبتي، سأتصل بك في الخامسة"، "وداعاً عزيزتي."
كان مشغولاً وفي عجلة من أمره مع الكثير من الأشخاص حوله، لكنه دعاني "حبيبتي" مرتين، إنه لي، إنه لي، أمتلكه ولو أني لن أراه ثانية.
آه، إنما ذلك قليل جداً وغير وافٍ، وما من شيء كافٍ إن لم أرَه مجدداً.
من فضلك يا رب دعني أراه ثانيةً، أرجوك أريده جداً، أريده جداً.
يا رب، سأكون بخير، سأكون أفضل إن تسمح لي برؤيته ثانيةً، وإن تتيح له محادثتي، دعه يتصل بي الآن.
آه يا رب، لا تسمح لصلاتي بأن تبدو ساذجة في حضرتك، فها أنت تجلس هناك، أشيب جداً وهرماً جداً، مع جميع الملائكة حولك والنجوم تأفل، وقد أتيتك بصلاة من أجل مكالمة هاتفية، آه لا تضحك يا رب، فأنت ترى لكنك لا تعلم بماذا أشعر.
هناك، على عرشك أنت في أمان، ما من شيء يستطيع لمسك وما من أحد بإمكانه تشويه قلبك بيديه، إنها المعاناة يا رب، معاناة سيئة للغاية، فهل تساعدني؟ بحق ابنك ساعدني، قلت بأنك ستلبي كل ما أطلبه منك باسمه، اسم ابنك الحبيب، سيدنا يسوع المسيح، دعه يتصل الآن.
يجب التوقف عن هذا، أن لا أتصرف بهذه الطريقة.
لحظة! لنفترض شاباً يقول إنه سيتصل بفتاة، وعندئذٍ شيء ما يحدث فلا يفعل، الأمر ليس بذلك السوء، أليس كذلك؟ إن قرع الجرس سيصل إلى جميع أنحاء العالم في هذه اللحظة؟
آه، لماذا أهتم بما يحدث للجميع، ولم لا يمكن لذاك الهاتف أن يرن، لم لا، لم لا، لم لا ترن؟
آه أرجوك، أليس بمقدورك أن تفعل؟ يا لك من شيء برّاق وقبيح ولعين، ماذا يضرّك إن ترن، آه، ليته يضرك ذلك، اللعنة عليك، سأقتلع جذورك النجسة من الحائط وأسحق وجهك الأسود المتعجرف إلى أجزاء صغيرة، اللعنة عليك، فلتذهب إلى الجحيم.
لا، لا، لا، ينبغي أن أتوقف وأفكر بشيء آخر، وهذا ما سأفعله، سأضع الساعة في غرفة أخرى، عندئذ لن يكون باستطاعتي النظر إليها، فإذا أردت أن أفعل وجب عليّ السير إلى غرفة النوم، وربما أقوم بهذا الشيء قبل أن أهتم بها ثانية.
سيتصل بي وسأكون لطيفة معه، وإن قال إنه لا يستطيع رؤيتي الليلة سأجيب "لا بأس يا عزيزي، بالطبع لا بأس" سأتصرف بالطريقة نفسها التي التقيته بها للمرة الأولى، فربما يحبني ثانيةً، فقد كنت دائماً لطيفة في البداية، آه كم من السهل أن تكون لطيفاً مع الأشخاص قبل أن تحبهم.
أظن أنه ما زال يحبني ولو قليلاً، لم يكن بمقدوره أن يناديني "حبيبتي" مرتين اليوم، لو أنه لم يكن يحبني قليلاً. لم يختفِ كل شيء إن كان ما يزال يحبني قليلاً؛ حتى إذا كان قليلاً فقط.
ها إنك ترى، يا رب، إذا جعلته يتصل بي فلن أطلب منك أي شيء بعدها، سأكون مرحة ولطيفة معه، سأتصرف بالطريقة

التي اعتدتها، عندئذٍ سيغرم بي ثانية، حينئذٍ لن أطلب منك أكثر من هذا، ألا تشعر بي يا الله؟
لم لا تتِح له الاتصال بي، لم؟ أرجوك، أرجوك، أرجوك.
يا رب، هل تعاقبني لأنني أسأت التصرف؟ هل أنت غاضب مني بسبب ما فعلت؟ آه يا رب، لكن هناك كثيرون سيئون، لا يجوز أن تقسو عليّ أنا فقط، لم يكن ولا يمكن أن يكون ما فعلت بهذا السوء، لم نؤذِ أحداً يا رب، فقط تكون الأمور مشينة عندما تسبب الأذى للناس، نحن لم نؤذِ نفساً واحدة، وأنت تعلم ذلك، وتعلم بأنه ليس بفعلٍ سيء، أليس كذلك يا رب؟ إذن، هل تسمح له بمهاتفتي الآن؟
سأوقن أن الله غاضب مني إن لم يهاتفني، سأعد خمسمئة خمسات، فإن انتهيت ولم يتصل بي، عندئذ أدرك أن الله لن يساعدني بعد الآن.
مرةً أخرى سيكون العد إشارة، خمسة، عشرة، خمسة عشر، عشرون، خمسة وعشرون، ثلاثون، خمسة وثلاثون، أربعون، خمسة وأربعون، خمسون، خمسة وخمسون، كان فعلاً سيئاً جداً وأدرك ذلك، حسناً يا رب، فلترسلني إلى الجحيم، أتظن بأنك ترعبني بجحيمك؟ فأنت تعتقد أن جحيمك أسوأ من جحيمي.
لا يترتب ولا ينبغي عليّ فعل هذا، لنفترض أنه تأخر قليلاً في اتصاله، لا شيء يزجّني في هذه الحالة الهستيرية لأجله، ربما لن يتصل وربما يأتي مباشرة إلى هنا من دون اتصال، سيغضبه أن يراني أبكي، فهم لا يعجبهم أن تبكي، هو لا يبكي، وكم أتمنى أن أجعله يبكي ويصرخ، أن يخطو على الأرض شاعراً بقلبه ثقيلاً متقيّحاً يكاد ينفجر في داخله، لو كان بإمكاني أن أؤذيه بشدة.
هو لا يتمنى لي ذلك، ولا أعتقد أنه يعرف حتى كيف يجعلني أشعر به، أتمنى لو يعلم من دون أن أخبره، لا يعجبهم أن تخبرهم بأنهم قد جعلوك تبكي، وبأنك غير سعيد بسببهم، فإن أخبرتهم ظنّوا أنك متملك ومتطلب، ومن ثم يكرهونك، هم يكرهونك لمجرد التعبير عن أي شيء تظنه حقيقة، لذا عليك دائماً مواظبة العبث بألاعيب قليلة، آه أعتقد أنه لم يكن علينا أن.. وأظن أن ما حدث كبير جداً مما يجعلني أقول ما أعني.
أظن أنك لن تستطيع أبداً وأفترض أنه لم يكن هناك أي حدث بليغ كفاية من أجل ذلك.
آه، إن يتصل بي لن أخبره أنني حزينة من أجله، إن الرجال يكرهون الحزانى، وأنا سأكون لطيفة جداً ومرحة جداً، فهو لا يمكنه مساعدتي سوى أن يحبني، لو يتصل فقط، فقط لو يتصل، ربما ذلك ما يفعله، وربما هو قادم إلى هنا من دون أن يتصل بي، ربما هو في طريقه الآن وربما حدث شيء ما له، لا، لا يمكن لأي شيء أن يحدث له، لا أستطيع أن أتخيل شيئاً يحدث له، و لا أستطيع تخيله مدهوساً، و لن أراه ملقاً ممدّاً، خامداً وميتاً، إنها أمنية مرعبة، بل أمنية جميلة، بموته سيصبح لي، و بموته لن أفكر كما أفعل الآن، وكما سأفعل في الأسابيع القليلة المقبلة، عندها فقط سأتذكر الأوقات الحميمة وسيكون كل شيء جميلاً، كم أتمناه ميتاً، كم أتمناه ميتاً.. ميتاً.. ميتاً.
يا للسخافة، يا له من أمر سخيف أن تتمنى موت الأشخاص لمجرد أنهم لم يتصلوا بك في اللحظة التي قالوا إنهم سيتصلون، ربما عقارب الساعة تسرع، وأنا لا أعلم ما إذا

كان الوقت صحيحاً وربما هو بالكاد متأخر، ويمكن لأي شيء أن يؤخره قليلاً، ربما عليه البقاء في مكتبه، وربما ذهب إلى المنزل ليتصل بي من هناك، ربما هو منزعج قليلاً لإبقائي على قيد الانتظار، وربما يأمل أن أتصل به، أما أنا فلا يمكنني فعل ذلك، لا يمكنني الاتصال به،

لا يجب، لا يجب، لا يترتب عليّ ذلك، آه يا رب، أرجوك لا تسمح لي أن أتصل به، امنعني من القيام بذلك، رجاءً، فأنا أعرف تماماً ما أنت تعرف، بأنه إذا كان قلقاً بشأني سيتصل بغض النظر عن مكان تواجده، أو عدد الأشخاص الموجودين حوله، أرجوك دعني أحس بذلك يا رب، لا أطلب أن تسهّل الأمر لي، إذ لا يمكن أن تفعل ذلك لجميع البشر الذين خلقتهم، فقط دعني أشعر به يا الله، لا تسمح لي بمواصلة الأمل، لا تسمح لي أن أحدّث نفسي بأمور معزّية، لا تدعني آمل يا ربي العزيز، أرجوك لا تفعل.

لن أتصل به، طالما أنا حية لن أتصل به ثانية، سيهترئ بجهنم قبل أن أتصل به.

يا رب، لا أطلب منك أن تمنحني القوة، لأنني أمتلكها، وبإمكانه الحصول عليّ إن كان يريدني، فهو يعرف أين أقبع وهو يعلم بأنني أنتظر هنا، إنه واثقٌ بي، واثقٌ جداً، وكم أتعجب لم يكرهونك حالما يطمئنون لك، وأعتقد أن الأمر لطيف أن يشعر المرء بالثقة.

إنه لمن السهل الاتصال به، ثم إنني أعلم، ربما ليست حماقة إن أنا فعلت، وربما لا يمانع، وربما يحبّذ ذلك، ربما كان يحاول أن يصل إليَّ، أحياناً يحاول بعضهم أن يصل إليك من خلال الهاتف، قائلين إن الرقم لا يجيب. لا أقول ذلك لأساعد نفسي فإن هذا الأمر يحدث حقاً، وأنت يا رب على يقين بأن ذلك يحدث فعلاً.

آه يا رب، ابقني بعيدةً عن ذلك الهاتف، أبعدني عنه، واسمح لي أن أحتفظ بجزءٍ صغيرٍ من كبرياء أعتقد أنني أحتاجه، وظنّي أن هذا كل ما عليّ امتلاكه.

آه، ما أهمية الكبرياء حينما لا أستطيع تحمل عدم اتصالي به؟ مثل هذا الكبرياء سخيف ومخلخل وساذج، إنما الكبرياء الحقيقي والعظيم هو التواضع، ولا أقول ذلك لمجرد رغبتي بمحادثته، لست كذلك، وما أقوله صحيح، وأنا أعلم بأنه كلام دقيق، سأكون كبيرة، وأتجاوز هذا العنفوان الساذج.

من فضلك يا رب، امنعني من الاتصال به، أرجوك يا الله.

لا أعلم ما علاقة الكبرياء بالأمر، إذ إنه أمر صغير لأقحم الكبرياء فيه، ولأثير حوله الكثير من الضجة، ربما أسأت فهمه، وربما طلب مني أن أتصل به في الخامسة ”اتصلي بي في الخامسة يا حبيبتي“، ومن الممكن أنه قالها بشكل جيد جداً، ومن الممكن أنني لم أسمعه جيداً، ”اتصلي بي في الخامسة يا حبيبتي“. متأكدة بأن هذا ما قاله.

يا رب، لا تدعني أتحدث مع نفسي بهذه الطريقة، دعني أعرف، أرجوك دعني أعرف.

سأجلس بهدوء وأفكر في شيء آخر، ربما بإمكاني القراءة إن استطعت الجلوس، آه، كل الكتب تتحدث عن الأشخاص الذين يحبون بعضهم البعض حباً حقيقياً جميلاً، لماذا يريدون الكتابة عنه؟ ألا يعلمون بأنه غير حقيقي؟ ألا يعلمون أنه كذبة؟ كذبة الآلهة اللعينة؟ ماذا عليهم أن يرووا عن الحب عندما يعون كم أنه يؤلم؟ اللعنة

عليهم، اللعنة عليهم، اللعنة عليهم.
لن أفعل، سأكون هادئة، ما من شيء يضطرك أن تنفعل من أجله، لحظة، لنفترض أنه شخص آخر لا أعرفه جيداً، وأنني اتصلت وقلت "حسناً، بالله عليك، ما الذي حدث لك؟" ذلك ما قد أفعله من دون التفكير بشأنه، لم لا يمكنني أن أكون طبيعية وغير مبالية، فقط لأنني أحبه؟ أستطيع أن أكون، صدقاً، يمكنني أن أكون، سأتصل به وسأكون طبيعية ومبتهجة، سترى أني سأفعل يا رب، آه لا تسمح لي بالاتصال به، أبداً، أبداً، أبداً.

يا رب، أحقاً لن تسمح له أن يتصل بي، هل أنت متأكد يا الله، ألا تلين من فضلك، ألا يمكن؟
حتى أنني لن أطلب منك السماح له بالاتصال في هذه اللحظة، فقط دعه يفعل ذلك بعد قليل، سأعد خمسمئة خمسة، سأعدها ببطء شديد وإنصاف شديد، سأهاتفه إن لم يتصل، سأفعل، آه، أرجوك، يا إلهي العزيز الطيب، أيها الأب المبارك في السماء، دعه يتصل قبل ذلك الحين، أرجوك يا رب، أرجوك.
خمسة، عشرة، خمسة عشر، عشرون، خمسة وعشرون، ثلاثون، خمسة وثلاثون.

*** كاتبة وشاعرة وناقدة أدبية، وصحفية من الولايات المتحدة الأمريكية (1893-1967). من أعمالها: ولادة نجم/ المخرّب/ الموت والضرائب.**
****كاتبة ومترجمة سورية، صدر لها كتب نثرية. آخر كتاب لها عن الايزيديين والديانة الايزيدية بعنوان" لقد نسينا العالم " صدر في الدنمارك.**

من أدب الأطفال، باب جديد سنسعى الى تقديمه لقرائنا، بين فينة وأخرى، بهدف دعم هذا الجنس الادبي المهم. وسعيا من مجلة (الثقافة الجديدة) الى المساهمة في تذليل العقبات والتحديات التي تقف بوجه نهوضه، والتي برزت في ظل التطورات الاجتماعية والتقنية خلال السنين الماضية. ولهذا سنسعى في قادم الأيام الى نشر ما يردنا من دراسات ونصوص مسرحية جادة تعنى بهذا الجنس الادبي المهم.

(محرر باب ادب وفن)

مسرحية
أُمنيةٌ واحدةٌ تكْفي ..

د . ياسر عبد الصاحب البرّاك*

الشخصيات :

- أحمد : طفل في العاشرة من العمر .
- ماجد : طفل في الحادية عشرة من العمر .
- العفريت : شخصية أسطورية طيبة .
- عفاريت صغار : أبناء العفريت .
- المعلم : في حوالي الأربعين من العمر .
- تلميذ 1 : في الثانية عشرة من العمر .
- تلميذ 2 : في الحادية عشرة من العمر .
- مجموعة تلاميذ : من أعمار مختلفة .

المنظر :

(غابة واسعة متشابكة الأغصان ، أصوات طيور وحيوانات مفترسة ، الجو فيه مسحة من الظلام على الرغم من أن الحدث يدور أواخر النهار، يدخل أحمد وماجد وهما تائهان ومتعبان ، يتحسسان طريقهما بصعوبة ، مع ارتفاع أصوات الحيوانات المفترسة يزداد خوفهما) ..

أحمد: آه.. لقد تعبت من المشي .

ماجد: وأنا تعبت من الجوع والعطش ، ما هذه الورطة التي وقعنا فيها .

أحمد : (منفعلاً) هذه نتيجة من يسير وراءك من دون تفكير، كيف نجد رفاقنا الآن؟
ماجد : ما ذنبي أنا، أنت من طاوعني ووافقني على لعبة الإكتشاف، ولولا موافقتك على الدخول في الغابة لما حصل ما حصل .
أحمد : كنت أظن أنك تعرف دروب الغابة جيداً، ولم أفكر أننا سوف نتيه عن رفاقنا .
ماجد : لقد حصل ما حصل وعلينا أن نجد الطريقة المناسبة للخروج من هذه الورطة.
أحمد : لقد تعبت من المشي طوال النهار، سأستريح بالقرب من هذه الشجرة الكبيرة.
ماجد : الجلوس ليس في صالحنا ، سيحل الليل قريبا وقد تخرج إلينا الحيوانات المفترسة .
أحمد : (خائفاً) ماذا تقول؟
ماجد : ألا تسمع أصواتها ، ربما هي تستعد لافتراسنا .
أحمد : إنني خائف .
ماجد : وأنا كذلك .
أحمد : وماذا نعمل الآن؟
ماجد : إسترح أنت قليلاً ، وسأبحث في المكان عن طريق يؤدي إلى خارج الغابة .
أحمد : (جالساً قرب الشجرة) لا تبتعد عني .
ماجد : لا تخف ، لن أبتعد.
أحمد : حسناً .
ماجد : (متفحصاً المكان) لا يبدو أن هناك مخرجاً ، الليل سوف يحل قريباً ، ونحن تائهان ، يا لها من سفرة مشؤومة ، لا أعرف كيف يفكر أصدقائي الآن ، ولا أعرف ماذا يفعل مُعلمي عندما يشعر بغيابنا عن بقية التلاميذ .
أحمد : ماجد ، ألم تجد طريقاً ؟
ماجد : كلا يا أحمد (يعود إلى جانب الشجرة الكبيرة يصطدم بشيء ما على الأرض) آه .. ما هذا الذي كاد يُوقعني على الأرض؟
أحمد : إبتعد قليلاً لأرى .
ماجد : إحذر يا أحمد فالغابة فيها الكثير من الأسرار .
أحمد : لا تخف، إنني حذر .
ماجد : ربما يكون فخاً تركه أحد الصيادين لصيد الحيوانات .
أحمد : (يبحث في الأرض) إنه شيء يشبه الحديد، وهو مدفون .
ماجد : (مازحاً) قد يكون كنزاً .
أحمد : يا لخيالك الكبير .
ماجد : ليس خيالاً ، ولكنني سمعت الكثير من الحكايات التي تقول بوجود كنوز مدفونة في الغابات ، لماذا لا يكون هذا الشيء واحداً منها؟
أحمد : (وهو يحفر بغصن شجرة ساخراً) إذا كان كنزاً فسوف نتقاسمه معاً .
ماجد : (مُصدقاً) حسناً ، اتفقنا .
أحمد : (ساخراً) اتفقنا .
ماجد : دعني أساعدك في الحفر (يبدأ الحفر).
أحمد : إننا نُضيّع وقتنا هنا .
ماجد : (مُنهمكاً) اصبر قليلاً .
أحمد : ربما تُراقبنا الحيوانات المفترسة ونحن لا نعلم .
ماجد : هذا جائز .
أحمد : (صارخاً) إذن ما فائدة الكنز بعد أن نُصبح طعاماً للحيوانات المفترسة ؟
ماجد : لا تكن جباناً يا أحمد ، اصبر قليلاً .
(يُخرج من الأرض مصباحاً قديماً)
أحمد : ما هذا ؟
ماجد : مصباح ، إنه مصباح قديم .
أحمد : وماذا يفعل هذا المصباح هنا ؟
ماجد : ربما يكون مصباحاً سحرياً ، مثل مصباح علاء الدين .
أحمد : مصباح علاء الدين السحري مجرد حكاية نراها في أفلام الكارتون .

ماجد : بل هي حقيقة وها أنت ترى ، لقد أصبح مصباح علاء الدين في أيدينا .
أحمد : أرني إياه .
ماجد : انتظر ، دعني أُنظفه من التراب ..
(يدعك المصباح محاولاً تنظيفه)
أحمد : كن حذراً يا ماجد .
ماجد : لا تخف .
(يواصل دعك المصباح ، فجأة يظهر صوت غريب يسقط المصباح على الأرض يبتعد الاثنان إلى جانب الشجرة ، يظهر دخان من المصباح ، يخرج العفريت ، يختفي الاثنان خلف الشجرة ، العفريت يتمغَّط ، يُمارس بعض الألعاب الرياضية ، لحظة ، ينتبه للمكان فلا يجد أحداً ، يُنادي ..)
العفريت : سيدي .. سيدي ، أين أنت ؟
أحمد : (خائفاً) ماذا فعلت يا ماجد أنت تُخرجنا من ورطة وتُدخلنا في ورطة جديدة .
ماجد : لا تخف ، إنه عفريت طيب ، كما في حكاية علاء الدين والمصباح السحري .
أحمد : ليته يكون كذلك.
العفريت : (يبحث في المكان) سيدي ، أو سيدتي ، لا فرق ، أين أنت؟
أحمد : إنه يبحث عنا .
العفريت : سيدي ، لماذا دعوتني إذن ، لماذا تختبئ خلف الشجرة ، إظهر وبان وعليك الأمان.
ماجد : إنه عفريت ذكي ، لقد عرف بمكاننا، لنتحدث معه.
أحمد : احذر يا ماجد قد يكون عفريتاً شريراً .
العفريت : لستُ عفريتاً شريراً يا سيدي .
أحمد : (مُستغرباً) آه .. لقد سمعني .
العفريت : ورأيتكما منذ البدء ، لكنني حاولت أن أمازحكما.
ماجد : ألم أقل لك أنه عفريت طيب ؟
العفريت : شكراً لك يا سيدي لأنك دعوتني أخيراً، لقد مللت الجلوس داخل المصباح .
أحمد : إنه عفريت فعلاً ، كما في حكاية علاء الدين والمصباح السحري .
ماجد : ألم أقل لك ، عفريت طيب وسيحقق كل أمانينا.
أحمد : رباه ، هل نحن في حلم ، أم في يقظة ؟
ماجد : بل في يقظة ، وها هو العفريت أمامنا.
العفريت : (منحنياً أمامهما) شبيك لبيك عبدك بين يديك.
ماجد : (فرحاً) أرأيت يا أحمد، كما في الحكاية.
أحمد : أنا لا أصدق ما يجري أمامي .
ماجد : بل صدق .
العفريت : شبيك لبيك عبدك بين يديك .
ماجد : اسمع أيها العفريت الطيب، هل تستطيع أن تحقق جميع أمانينا ؟
العفريت : ثلاث أمنيات فقط .
أحمد : ماذا ، ثلاث أمنيات ؟
العفريت : نعم يا سيدي ثلاث أمنيات، وعليكما أن تتصرفا على هذا الأساس .
ماجد : (فرحاً) أنا سآخذ أُمنيتين .
أحمد : وتترك لي أمنية واحدة ، لماذا ؟
ماجد : أنا من عثر على المصباح أولاً .
أحمد : يا لك من أناني ، ألم نتفق على أن نتقاسم الكنز سوية ؟
ماجد : هذا صحيح ، لكننا لم نجد كنزاً ، بل وجدنا مصباحاً سحرياً .
أحمد : ولكن ، ألا يُعدّ المصباح السحريّ من الكنوز ؟
ماجد : لنحتكم إلى العفريت ، فقد نجد عنده الجواب المناسب .
العفريت : (ضجراً) كفاكما شجاراً أيها السيدان الصغيران واطلبا أمانيكما الثلاث بسرعة.
أحمد : (موجهاً الكلام لماجد) حسناً سأكون

أكثر كرماً منك وسأكتفي بأمنية واحدة .
ماجد : وأنا سأجعلك تشاركني إحدى الأمنيتين، أيها العفريت نحن جائعان، اجلب لنا ما لذَّ وطاب من الأكل والمشروبات .
العفريت : سمعاً وطاعة يا سيدي .
(يختفي العفريت سريعاً)
أحمد : يا لك من مغفل، كيف تفرط بإحدى الأمنيتين بهذه السهولة، ما نفع الأكل والشراب ونحن تائهان وسط الغابة المليئة بالحيوانات المفترسة، ألم تفكر بالخروج من الغابة ؟
ماجد : لا عليك يا صديقي فمازالت لدينا أمنيتان واحدة لك والأخرى لي.
أحمد : لديك أمنية واحدة، لا شأن لك بأمنيتي .
ماجد : حسنا .
(يظهر العفريت ومعه عدد من العفاريت الصغار وهم يحملون أطباقاً كثيرة من الطعام)
العفريت : شبيك لبيك عبدك بين يديك، تفضل يا سيدي ما لذَّ وطاب من الطعام والشراب .
ماجد : شكراً لك أيها العفريت الطيّب .
أحمد : ومن هؤلاء؟ (مُشيراً إلى العفاريت الصغار)
العفريت : إنهم أولادي ، العفاريت الصغار ، يساعدونني في تلبية أمنيات أسيادي .
ماجد : (بفضول) وهل يمتلكون القدرة على تحقيق الأماني مثلك؟
العفريت : عندما يكبرون يا سيدي .
أحمد : يا للطرافة، ولكن هل تستطيع أن تُخرجنا من الغابة أيها العفريت ؟
العفريت : بكل سرور، إذا شئتما يا سيديَّ ، فمازال لديكما أُمنيتين .
أحمد : ولكنني لا أريد أن أفرّط بأمنيتي الوحيدة بسهولة .
العفريت : أنت حرٌّ يا سيدي ، أنا رهن إشارتك ما دمت تملك حقَّ الأمنية .
ماجد : (يأكل بشراهة ، ثم يُخاطب العفريت بفضول) عندما تُحقق ما تبقى من أمنياتنا ماذا ستفعل ؟
العفريت : أعود إلى المصباح في انتظار سيدي الجديد .
أحمد : ومن هو سيدك الجديد؟
العفريت : الذي يملك المصباح .
ماجد : ولكننا نحن الاثنان من يملك المصباح؟
العفريت : (ضاحكاً) يبدو أنكما لا تعرفان قوانين عملي في المصباح .
أحمد : وما هي قوانين عملك ؟
العفريت : سيدي أنا أظهر إلى الوجود كل مائة عام لأحقق ثلاث أمنيات لمن يملك المصباح، بعدها أعود إلى غفوتي بداخله مُنتظراً انقضاء مائة عام أخرى، وهكذا دواليك .
ماجد : يعني أنك تُصبح عديم الفائدة بعد تحقيق الأمنيات الثلاث ؟
العفريت : تستطيع أن تقول ذلك .
أحمد : يا إلهي ، حتى العفاريت لها "أكس باير" !!
ماجد : (يواصل الأكل بشراهة) هيا يا أحمد كُل ما دُمنا لا نزال نملك أمنية لكلٍّ واحد منا.
أحمد : (يأكل بتأنٍ ، بينما يواصل ماجد الأكل بشراهة)، ألا تأكلُ معنا أيها العفريت ؟
العفريت : (مُشرفاً على مائدة الطعام) أنا في خدمتكما يا سيِّدَيَّ، أنا عبدكما ولا يجوز لي الأكل معكما.
ماجد : (فرحاً) يا للطرافة .
(يستمر الاثنان في الأكل، بينما تقوم العفاريت الصغار بخدمتهم، عفريت صغير يقدم طعاماً خاصاً لأحمد) ..
أحمد : شكراً لك أيها العفريت الصغير، ما اسمك ؟
(العفريت يهز رأسه بعدم المعرفة)

ماجد : (فمه مليء بالأكل، يضحك بقوة) ها.. ها..ها.. كم أنت مرح يا أحمد، اسمه عفريت طبعاً، وهل عمرك سمعت أن للعفاريت أسماءً مثلنا، ها.. ها.. ها .. (تقف اللقمة في بلعومه) ماء .. ماء .. ماء ..

(العفاريت الصغار يتراكضون لجلب الماء)

أحمد : ما بك ؟ كأنك لم ترَ الطعام منذ سنوات.

ماجد : (بعد أن ينتهي من شرب الماء) آه .. كدت أموت .

أحمد : لقد أكلت الكثير يا ماجد كفى ، سوف تُصاب بالتُّخمة .

ماجد : لم أذق طعاماً شهياً في حياتي مثل هذا.

أحمد : أتقتل نفسك مقابل شهية الطعام ؟

ماجد : لا عليك ، سأطلب من العفريت أصنافاً جديدة.

أحمد : ولكن .....

ماجد : أيها العفريت .

العفريت : (بسرعة خاطفة) شبيك لبيك عبدك بين يديك.

ماجد : إذا طلبت أصنافاً جديدة من الطعام، هل يدخل هذا ضمن الأمنية الأولى أم الثانية ؟

العفريت : كلا يا سيدي يدخل ضمن الأمنية الأولى، لأنها أمنية في الطعام والشراب وقد حققتها لك .

ماجد : (فرحاً) حسناً ، اجلب لي أصنافاً جديدة من الطعام، ولا تنسى الحلويات .

العفريت : سمعاً وطاعة ..

(يتحرك العفريت مع صغاره لجلب أصناف جديدة من الطعام)

ماجد : (يستمر بالأكل ، بينما يكتفي أحمد بالقليل) يا له من طعام شهي ، كُلْ يا أحمد، كُلْ ..

أحمد : كفى يا ماجد سوف تمرض بهذه الطريقة ، ستصاب بالتخمة.

ماجد : لو أن العفريت يزيد من الأمنيات لطلبت الكثير من الأشياء .

أحمد : لا تكن طماعا لقد قال لك ثلاث أمنيات فقط ، وها أنت أضعت أمنية بالطعام والشراب.

(يدخل العفريت مع صغاره وهم يحملون أصنافاً جديدة من الطعام)

العفريت : أنا بخدمتك يا سيدي .. تفضل ...

(يُقدِّم له الطعام)

أحمد : (الى ماجد) أنا لست مسؤولاً عن مرضك يا ماجد ، لقد حذرتك فلا تلمني بعد ذلك .

ماجد : لا عليك .

العفريت : (لأحمد) وأنت يا سيدي، متى تطلب مني أمنيتك كي أحققها لك؟

أحمد : لا أدري ، امنحني قليلاً من الوقت لأفكر، إنها أمنية واحدة فقط وعليَّ أن أستثمرها بشكل صحيح.

العفريت : أمرك يا سيدي .

ماجد : ما رأيك يا أحمد أن تطلب منه "بلي ستيشن"، إنك لا تستطيع شراءه فهو غالي الثمن بالقياس إلى راتب أبيك .

أحمد : لا، لا أفكر في ذلك إنها أمنية بسيطة وشخصية .

ماجد : (مواصلاً الأكل) حسناً ، اطلب منه قصراً وسيارة سباق سريعة .

أحمد : لا.. لا.. إنها أمنيات تافهة .

ماجد : لقد احترت معك، اطلب منه أن يُخرجنا من هذه الغابة المخيفة .

أحمد : ولماذا لا تطلب ذلك أنت بأمنيتك الوحيدة التي بقيت لديك، ألست من أوقعنا في هذه الورطة .

ماجد : لا.. لا.. أمنيتي أنا أحتاجها .

أحمد : وكذلك أنا .

العفريت : (موجهاً الكلام لماجد) وأنت يا

سيدي ألم تفكر في طلب أمنيتك الثانية مني ؟
ماجد : الحقيقة .... الحقيقة .... (يشعر بألم في بطنه) آه .. بطني ، بطني تؤلمني .
أحمد : ألم أقل لك ؟ لقد أفرطت في الأكل وها أنت قد أُصبت بالتُّخمة .
العفريت : هل انتهيت من الطعام يا سيدي؟
ماجد : (بألم) نعم .. لقد انتهيت ، انتهيت ...
العفريت : (إلى العفاريت الصغار) هيا ، أيها الأولاد أعيدوا أطباق الطعام إلى مكانها .
(يتحرك العفاريت الصغار بسرعة)
ماجد : آه .. بطني ، بطني ...
العفريت : ما بك يا سيدي ؟
ماجد : بطني ، بطني تؤلمني ، ألا يوجد حل؟ بطني ...
العفريت : يوجد يا سيدي ، أجلب لك الدواء حالاً ، وستشعر بتحسن .
ماجد : (بألم) حقاً ؟
العفريت : نعم يا سيدي ، أنا بخدمتك مادامت لديك أمنية واحدة .
ماجد : ماذا تعني ؟
العفريت : إذا جلبت لك الدواء ، فهذا يعني أنني سأحقق لك الأمنية الثانية ، أمنية الدواء .
ماجد : لا.. لا أريد ، لا أريد أن أفقد أمنيتي الوحيدة بالدواء ، آه .. بطني ، بطني تؤلمني...
(يزداد الألم عليه)
العفريت : أنت حر يا سيدي .
أحمد : قل لي أيها العفريت الطيب ، لو كانت لديك أمنية واحدة ، فماذا ستتمنى؟
العفريت : (وقد فوجئ بالسؤال) أنا.. أنا ؟ الحقيقة، إنني لم أفكر بهذا طوال حياتي، لقد تعودت على تحقيق أماني الآخرين ولم أفكر يوماً بأمنية لي .
أحمد : لو افترضنا أن لديك هذه الأمنية ، فماذا تفعل ؟
ماجد : آه .. بطني .. بطني .. لا أستطيع أن أتحمل الألم . أيها العفريت .. إجلب لي الدواء ، الدواء .. أرجوك .. أرجوك .
العفريت : سمعاً وطاعة يا سيدي.. سمعاً وطاعة .
(يخرج العفريت مسرعاً)
أحمد : ها أنت تفقد أمنيتك الثانية من دون فائدة.
ماجد : كيف من دون فائدة ، إنني أشعر بألم لا يُطاق .
أحمد : لقد حذرتك ، ولكنك لا تستمع إلى التحذيرات .
(يدخل العفريت حاملاً قنينة تشبه قنينة الدواء)
العفريت : خذ يا سيدي ، هذا الشراب يحمل مفعول السحر ، ستُشفى بسرعة .
ماجد : (يشرب) شكراً لك أيها العفريت الطيب .
العفريت : الآن أكون قد حققت لك أمنيتك الأخيرة، ولم يبقَ سوى سيدي الآخر..
(مُشيراً إلى أحمد)
أحمد : إنني في حيرة من أمري ، لا أعرف كيف أتصرف (يتجه نحو قاعة جمهور الأطفال) ماذا تقولون أنتم يا أصدقائي ؟
(يتعامل أحمد مع ردود فعل الأطفال باختلاف فعل إلى آخر)
العفريت : (يقترب من أحمد) سيدي ، لقد سألتني قبل قليل إن كانت لي أمنية واحدة كيف سأتصرف ؟
أحمد : أجل ، أيها العفريت الطيّب .
العفريت : إذن، إسمع مني، في البدء أنظر إلى نفسي فإذا كنت قانعاً بحياتي وليس لديَّ أي نقص في الأشياء التي تساعدني في تسيير أموري الحياتية، عندها أحمد الله على نعمته، وأفكر في الآخرين، فقد يكون ثمة من يحتاج إلى هذه الأمنية حقاً .

أحمد : فكرة جميلة ، ونبيلة في الوقت نفسه .
ماجد : الحمد لله ، لقد زال الألم عن بطني .
العفريت : إنه مفعول الشراب يا سيدي ، فيه من السحر الشيء الكثير .
أحمد : إذن ، أيها العفريت هل أنت راضٍ عن حياتك ؟
العفريت : (مرتبكاً) الحقيقة .. يا سيدي .. وبصراحة .. أنا غير راضٍ عن حياتي .
أحمد : لماذا ؟
العفريت : إنني سجين هذا المصباح منذ قرون، والمشكلة أنني أحيانا أُجبر على تحقيق بعض الأماني التي لا أريد تحقيقها لو تُرك لي الخيار .
ماجد : (بدهشة) مثل ماذا ؟
العفريت : أحياناً يقع المصباح بأيدي بعض الأشرار فيطلبون مني أن أحقق لهم بعض الأمنيات الشريرة .
أحمد : لقد فهمت .
العفريت : لذلك فإن حياتي ليست سعيدة، فضلاً عن ذلك فأنا دائماً في خدمة الناس، ولم يفكر أحدهم في يوم ما أن يكون في خدمتي ويلبي لي أمنية واحدة على الأقل .
أحمد : وما هي أمنيتك؟
العفريت : الحرية ، أن أتحرر من هذا المصباح الضيّق وأعود لممارسة حياتي مثل باقي العفاريت .
أحمد : وماذا ستُكافئ الإنسان الذي يُطلق سراحك ويحررك من هذا السجن؟
العفريت : سأبقى مديناً له طوال حياتي .
أحمد : إذن، أيها العفريت الطيب ، أمنيتي هي أن.....
(يقاطعه ماجد)
ماجد : ماذا ؟ ماذا تفعل؟ ..
أحمد : (بثقة) أطلب أمنيتي من العفريت .
ماجد : وما هي أمنيتك ؟
أحمد : وما شأنك بي، لقد تمنّيتَ أنت ما تريد، وحان الوقت الآن لأتمنّى ما أريد .
ماجد : كيف لا شأن لي ، أليس مصيرنا مشتركاً ؟
أحمد : هذا قبل أن تُفرَّط بالأمنيتين، أما الآن فعليك أن تُطيعني في ما أُريد .
ماجد : (منفعلاً) وما تُريد ؟
أحمد : سوف أهب أُمنيتي الوحيدة للعفريت كي يحصل على حريته .
ماجد : (مرتبكاً) ولكن ، نحن .. كيف سنخرج من الغابة ؟
أحمد : سيساعدنا بالتأكيد .
ماجد : أنت مجنون .
أحمد : بل سأكون مجنوناً إذا فكرت بنفسي فقط، أيها العفريت الطيّب، إذا وهبتك أمنيتي الوحيدة، هل تساعدنا في الخروج من الغابة، والعودة لزملائنا؟ ..
العفريت : (غير مصدق) حباً وكرامة يا سيدي، سأكون مديناً لك طول العمر، وسأُخرجكما من الغابة عند حلول الصباح.
ماجد : (مُتذمراً) والحيوانات المفترسة ؟
العفريت : (يضحك) ها.. ها.. ها.. أنسيت أنني عفريت؟ لن تجرؤ الحيوانات على الاقتراب منكما ما دمت معكما .
أحمد : (فرحاً) إذن، اتفقنا ، ننام هنا حتى الصباح، بينما تبقى أنت حارساً لنا ، وعند شروق الشمس تقودنا إلى حيث نريد .
العفريت : (بفرح) شبيك لبيك عبدك بين يديك.
أحمد : من الآن أنت حر أيها العفريت .
العفريت : (يُقبّل أحمد) شكراً لك يا سيدي، شكراً لك.
أحمد : هيا يا ماجد لننم حتى الصباح ، بينما العفريت يحرسنا .

(ينام الإثنان تحت الشجرة، بينما يروح العفريت جيئة وذهاباً، تبدّل بالضوء دلالة على مضي الليل، الشمس تبدأ بالشروق، نسمع أصواتاً تنادي)

أصوات : أحمد.. ماجد.. أحمد.. ماجد، أين أنتما ؟

(العفريت يخرج متفقداً الأصوات، بينما يغط أحمد وماجد في نوم عميق)

أصوات: أحمد..ماجد..أحمد..ماجد، أين أنتما؟

(تدخل مجموعة من التلاميذ هم رفاق أحمد وماجد في السفرة المدرسية ، ثم يدخل المعلم خلفهم، يتوجه الجميع نحو أحمد وماجد)

تلميذ 1: ها هما ، لقد وجدتهما .

تلميذ 2 : إنهما نائمان .

المعلم : لابد أنهما تعبا من التجوال طوال الليل والنهار في البحث عن المُخيّم ، هيا أيقظوهما كي نعود أدراجنا .

تلميذ 1: أحمد .. ماجد ، استيقظا ، هيا .

ماجد : (مفزوعاً) ماذا؟ ماذا ، أيها العفريت؟

(يضحك جميع الأطفال)

المعلم : لابد أنهما قضيا ليلة مخيفة .

ماجد : أستاذي ، نحن آسفان لم نكن نقصد ...

المعلم : (يقاطعه) لا بأس ، المهم أنكما سالمان.

أحمد : (مستيقظاً) أين العفريت ؟ أين ذهب؟

تلميذ 2 : يبدو أن أحمد وماجد كانا في سهرة أنس مع العفاريت..

(يضحك الجميع)

ماجد : بل كان هناك عفريت ليلة البارحة ، وقد منحنا ثلاث أمنيات .

تلميذ 1 : وماذا تمنيتما ؟

ماجد : (مُحرجاً) أنا فقدت الأمنية الأولى في الأكل والشرب حتى أُصبت بالتُخمة .

تلميذ 2 : والأمنية الثانية ؟

ماجد : جلب لي العفريت دواءً أراحني من الألم في بطني المتخمة .

تلميذ 1 : وأنت يا أحمد ، كيف فقدت أُمنيتك ؟

أحمد: (مُستاءً) لم أفقدها ، بل وهبتها للعفريت كي يتحرر من سجنه في المصباح .

تلميذ 2 : وأين ذهب العفريت ؟

أحمد : لا أدري .

تلميذ 1 : (ساخراً) لقد تبخّر .

(يضحك الجميع)

المعلم : (ضاحكاً) هيا ، أيها الأطفال لنذهب، فالعفاريت لا توجد إلا في الحكايات .

(يخرجون جميعاً، بينما يستغرب أحمد وماجد اختفاء العفريت)

ماجد : أحمد ، هل تعتقد أن العفريت كان موجوداً أم لا ؟

أحمد : (مفكراً) لا أدري .

ماجد : (ينتبه لجمهور الأطفال) لماذا لا نسأل أصدقاءنا الأطفال .

أحمد : فكرة رائعة .

ماجد : أصدقائي الأطفال ، هل كان العفريت موجوداً أم لا ؟

(مع ردود فعل الأطفال تزداد حيرة أحمد وماجد ، ثم يذهبان وراء زملاءهم التلاميذ)

أحمد : أنا أقول لك أن العفريت كان موجوداً .

ماجد : وأنا أظن أنه كان مجرّد حلم .

(يخرج الاثنان وهما يتشاجران)

***اكاديمي، كاتب وناقد مسرحي من مدينة الناصرية - العراق**

مطبوعات وصلتنا

• كامل كرم، صفحات من سيرة مناضل، دار الرواد المزدهرة، بغداد 2025.
• د.عبد الرزاق مسلم، دراسة ابن خلدون في ضوء النظرية الاشتراكية، دار الرواد المزدهرة، بغداد 2025.
• ابتهال بليبل، كونشرتو لموجة وحيدة - الهامشي واللامركزي في السرديات النسوية، اصدار خاص،2025.
• اسماعيل سكران، بيت الخاتون (رواية)، الورشة، بغداد، 2023.
• ايريس مردوك، ترجمة: سعد الحسني (رواية)، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد،2024.
• بهاء محمود علوان ، المسرح الملحمي والمسرح العائم-المقاربات والاهداف ، نقابة الفنانين العراقيين، بغداد، 2025.
• بهاء محمود علوان، رؤى نقدية في المسرح العالمي المعاصر، ابجد للنشر، بابل، 2025
• جمال جمعة (ترجمة)، شعراء الحرب الباردة، دار المأمون للترجمة والنشر ، بغداد، 2024.
• ريسان الخزعلي ، انصات عن بغداد لما فات من العزف (شعر)، دار الشؤون الثقافية، بغداد،2025.
• سالم محسن، موجز الغياب (شعر)، مطبعة البصرة، البصرة ،2025.
• فرح غارس، اسلوبية السرد في رواية (خطوط الطول وخطوط العرض) لعبد الرحمن مجيد الربيعي، دار ماسكي ، الموصل، 2024.
• عماد مبارك غانم (ترجمة)، وداع وقصص قصيرة اخرى ، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، 2024.
• كفاح محمد مصطفى / ج 5 / همسات، مكتب زاكي، بغداد، 2025.